

سليمان تقي الدين، وداعاً

فاتتني فرصة أن أسهم في تكريمك وجاهياً، وها أنا مدعو إلى أن أكرمك باسم رفاقك وأنت في طريق الغياب. منذ ٤٥ سنة. لفتنا الطالب الثانوي بحدة الذكاء والمبادرة وبهندام الكبار: سترّة وربطة عنق، ونحن، شباب وصبايا منظمة العمل الشيوعي في لبنان، في أوج الاستهتار بالتراتب والتقاليد والهندام. والأغرب أن أناة سليمان تقي الدين لم تكن تنمّ إلا عن خفر واحترام للنفس وذوق وتطلب للجمال والأناة في الكسم والقول. وسوف نكتشف أنها أناة تتلّس جسداً هو من مادة الأحلام ومعدن الإرادة الجامحة.

منذ ذلك الحين، ما غادرت ميداناً. حاضر في معارك المزارعين، في «لجنة المناطق»، عندك في بعقلين حيث علمتنا شرب المتّي. حاضر في «اللجان العمالية» تنظم الاضرابات في معامل الجبل، حاضر في معارك «لجان العمل الطلابية»، والتظاهرات الطيّارة على مدى سنين، حاضر في نشاطات دعم المقاومة الفلسطينية، حاضر لتحمل المسؤولية عند انتخابك، وأنت الأصغر سنّاً، في الهيئات القيادية لمنظمة العمل الشيوعي. حاضر بما أنت الكاتب في مجلة «الحرية» وفي «بيروت المساء».

حاضر متعدد الحضور والأفعال، لما لاحت إمكانية المغامرة الكبرى، مغامرة الانتقال من لبنان الطائفي إلى لبنان الديمقراطي العلماني. وبعدما هرسنها الدبابات وأغرقتها دماء التحارب الأهلي ودماره، ما غادرت ميداناً. متعدّد الحضور في كل مبادرة حوار وفعل ونضال من أجل تجاوز النظام الطائفي ومن أجل إعادة تكوين وطن يليق بأهله وأحلام شبابه.

وما غادرت ميداناً في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية وتنظيم الأشكال المختلفة من المقاومة الوطنية والإسلامية.

لن يكتب سليمان تقي الدين مقالته لهذا العدد من «بدايات»، غادرنا الرفيق والصديق يوم ٢٢ نيسان ٢٠١٥ على أثر مرض صاعق. تنعي «بدايات» إلى قرائها سليمان المناضل والكاتب، وهو أحد مؤسسيها إلى جانب زهير رحال وغسان عيسى وفواز طرابلسي. وتعاهد المجلة قراءها بأن تستحضر دوماً كتابات هذا الإنسان الحر صاحب الذهن النقدي المبدع والمبادرة الدائمة، كما تعاهد الراحل العزيز أن تظل حاضرة بالفكر والعمل في كل فصول التغيير من أجل الحرية والمساواة.

ولد سليمان تقي الدين في بعقلين العام ١٩٥٢. واسهم باكراً في الحقل العام مناضلاً في صفوف منظمة العمل الشيوعي في لبنان والحركة الوطنية اللبنانية. عمل في المحاماة وفي الصحافة اللبنانية والعربية وشغل منصب أمين عام اتحاد الكتاب اللبنانيين وله مؤلفات عديدة منها: التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية. مقدمات الحرب الأهلية (١٩٧٧)، العرب والمسألة السياسية (١٩٨٤) المسألة الطائفية في لبنان. الجذور والتطور التاريخي (١٩٨٥) تحولات المجتمع والسياسة. أفكار عن عالم جديد (١٩٩٢) القضاء في لبنان (١٩٩٦) القضاء اللبناني. بناء السلطة وتطوير المؤسسات (١٩٩٧) المقدمة في أصول المحاكمات الجزائية (٢٠٠٢) سيرة الأديب سعيد تقي الدين (٢٠٠٤) إشكاليات الديمقراطية في العالم العربي (٢٠٠٤) المشروع اللبناني الصعب (٢٠٠٩) العرب في مخاض التغيير (٢٠١٢) واليسار اللبناني وتجربة الحرب. منظمة العمل الشيوعي، اللحمه والتفكك (٢٠١٣).

نشر هنا الكلمة التي القاها فواز طرابلسي في توديع الراحل يوم الجمعة في ٢٤ نيسان ٢٠١٥ بإسم رفاق سليمان واصدقائه.

الغيظ، أنت هكذا؛ واثق من نفسك. نبيل، لا تهادن وانت المحاور، ولا تجامل وأنت المساجل. لكنك صلب بلا هواة في وجه الاستبداد والتزمت والتكفير والظلم. وفوق هذا وقبله وبعده، أنت من كسب لقمة العيش بعرق الجبين، فلم تتنازل عن كرامة أمام أي سلطان، ولا عن الحرية واستقلال الرأي لأي كان.

وبعد..

بعد بكير يا سليمان.

لم تنجز آخر مشروعك الكتابي. لم تكتب مقالاتك للعدد ١١ من «بدايات». لم ننظم الندوة عن الثورات العربية التي اقترحتها علينا وأنت على سرير الألم. لم نحفل معاً بالأول من أيار. لم تتذمر من المرض إلا لأنه يعوقك عن المطالعة والكتابة. لم تصعد إلى بعقلين القلعة ولو ليومين من الراحة مع العائلة. لم تكف عن سؤالك اليومي: شو الأخبار؟ لم توقف المبادرة والحركة رغم الاتاييب المغروزة في شرايين الجواد الأزرق الجموح.

لم تترك سؤالاً لم تطرحه علينا ونحن نعودك.

لم تكف عن النضال في حياتك ولم تكف عن النضال في موتك (والكلام لشريكة حياتك إكرام). وأنت الشاعر، باق في ذاكرة شعبك والعاملين من أجل «أن نصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين». ونحن رفاقك وأصدقائك ومحبيك الكثر، المجتمعين هنا لوداعك من جهات الوطن الأربع، نيكيك مع إكرام ونسيب ورنده وميساء وجنى، وشقيقاتك وسائر أسرته. أنت باق في قلوبنا، يا سليمان، بحب، ولك منا هذا الوعد:

لن نتخلى عن الحلم. لن نعدم إرادة. لن نياس من أمل.

ولما غادرت العمل الحزبي، وتفرق الرفاق، ظلت النجمة الحمراء بوصليتك. تهتدي بها للتفكير في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. فدعوت في كتابك «تحويلات المجتمع والسياسة: أفكار من أجل عالم جديد» إلى النضال من أجل ثلاثي الوحدة العربية والديمقراطية والحضور العربي الوازن في العالم الجديد.

راجعت تجربتك ناقدًا، لتقول إمكانات استخدام فكر اليسار وتراثه الثري بطرائق ووسائل أخرى في عصر آخر وفي وجه تحديات أخرى. وقرنت القول بالفعل مبادراً دائماً من أجل تفعيل اليسار اللبناني وإعادة بنائه. حملت إليك الثورات العربية المزيد من زخم وإرادة ووعد. أسسنا معاً مجلة «بدايات» الثقافية الفكرية مساهمة متواضعة لمواكبة الانفجارات والتفكر بها، وكنت أنت من اختار العنوان لتؤكد أن الفكر والنضال هما دوماً وأبداً تجديد لبدائيات.

لست أدري أين كنت تجد الوقت لتكون كل هذا الشخص وليكون لك هذا الحضور المتعدد وتلك الأدوار. لعلك فعلت مثلنا نحن أبناء جيلنا: سرقت الوقت على حساب الأهل والعائلة والراحة والصحة.

مؤرخاً، مؤتمناً على الذاكرة الجمعية لشعبك، تنبش وثائق وأخباراً وروايات الماضي لتتكش فيها الجمر وسط الرماد، لتروي التحول والإمكان والوعد.

محامياً، كنت مؤلفاً متضلعا من القانون والتشريع، مرافعاً أبداً عن الحريات وحقوق الناس السياسية والاجتماعية.

كاتباً، تدهش، في مقالاتك وحضورك الإعلامي، بالنبرة الهادئة، والتحليل المكين. في زمن الصحافة الشتامة، كنت محاوراً دمثاً، لعميق احترامك للعقل - عقل القارئ - وللحجة والبرهان. ليس لأنك تكتم

اليمن في عين العاصفة

فواز طرابلسي

«اللقاء المشترك» المعارضة - وبنفوذه على القسم الأكبر من الوحدات العسكرية وخصوصا الحرس الجمهوري والوحدات الخاصة واجهزة الامن. ولتأمين استمرارية النظام، نصبت المبادرة الخليجية عبد ربه منصور، نائبه في الرئاسة والحزب، رئيسا للجمهورية ومنحته صلاحيات استثنائية. وعلى غرار الترسيم الاميركية القاضية باعتماد «الاسلام المعتدل» مشروع حكم بديل، جرى دعم وتشجيع شركاء صالح السابقين في الحكم: حزب الاصلاح اليمني وهو تحالف بين مشايخ و متمولي وعسكريي قبيلة حاشد وتنظيم الاخوان المسلمين اليمنيين. علما ان الحزب المذكور يضم بين زعمائه، الشيخ عبد المجيد الزنداني، الشخصية السلفية الجهادية المتهمه من الادارة الاميركية بالصلوات مع «تنظيم القاعدة».

لم تعالج «مخرجات الحوار الوطني» ابرز قضيتين جهويتين تطالبان بالحكم الذاتي المحلي في وجه السلطة المركزية: «انصار الله» في الشمال الغربي من البلاد و«الحراك الجنوبي» في المحافظات الجنوبية. شكل الحراك الجنوبي، الذي انطلق العام ٢٠٠٧، احد ارهاصات الثورة اليمنية. وقد انفجر نتيجة تراكم اخطاء فادحة ارتكبت خلال عملية التوحيد الاندماجي الاعباطي لشطري اليمن العام ١٩٩٠ ونتائج حرب ١٩٩٤ التي شنتها قوات علي عبدالله صالح على الشطر الجنوبي على اثر اعلان قيادة الحزب الاشتراكي اليمني فك الارتباط بالجمهورية العربية اليمنية. وقد لحق المحافظات الجنوبية وسكانها جراء الانتصار الشمالي في تلك الحرب اشكالا متنوعة من النهب والاستباحة والتمييز والقمع.

عاش اليمن شهرين من الدمار والقتل في حرب جوية تخوضها اغنى الدول العربية، السعودية ومجلس التعاون الخليجي، ضد أفقر دولة عربية. وقد شكّلت مساهمة جامعة الدول العربية في تغطية الحرب سابقة خطيرة من المؤسسة المترهلة التي يتلخص دورها الاساسي، بل مبرر وجودها، في منع اعتداء دولة على اخرى ووقف الاقتتال بين الدول الاعضاء والإسهام في حل النزاعات بينها. وعلى الارض، تدور رحى حرب أهلية يزداد وجهها المذهبي سفورا تشتعل في كافة انحاء البلاد. أعلنت هذنة لم توقف القتال ولم تسمح بإغاثة فعلية لمئات الالوف من اليمنيين الجرحى والعالقين في مناطق القتال والنازحين والذين على حافة المجاعة. وأنعقدت قمم ومؤتمرات في الرياض وكامب ديفيد وجنيف لا تبشر الى الآن بقرّب وضع حد للمأساة.

في وجهها المباشر، مثلت الحرب الجوية محاولة لاستلحاق انهيار المبادرة الخليجية التي لا يلام عليها في المقام الاولى الا اصحابها، السعودية والرعاية الاميركية والتنفيذ الاخرق للامم المتحدة بشخص جمال بن عمر. قضت المبادرة على ابرز مطالب الثورة الشبابية والشعبية: الاطاحة بنظام علي عبد الله صالح الدكتاتوري الفاسد وقيام نظام مدني ديمقراطي. بدلا من ذلك، أصدرت عفوا عن علي عبدالله صالح على ٣٤ سنة من الفساد والقمع والحروب والنهب، في مقابل تخليه عن الرئاسة. تخلى الرجل عن الرئاسة ولم يتخلّ عن الحكم او السلطة. والاهم انه ظل محتفظا برئاسة حزبه - الذي شارك مناصفة في الحكومة مع احزاب

يشكلان قوتين شعبيتين واسعتي النفوذ في اليمن. قاطع الحوثيون جلسات الحوار الوطني، وفشل عبد ربه منصور في تشكيل قيادة بديلة للحراك الجنوبي تدين له بالولاء وترتضي بنهجه في معالجة المسألة الجنوبية.

تصاعدت أشكال الاحتجاج والتظاهر والاعتصام في المحافظات الجنوبية، مع الاحتفاظ بطابعها السلمي مع انها اخذت تتعرض الى القمع المسلح بوتيرة متزايدة. في المقابل، تحرك «انصار الله» المسلحين خارج معقلهم في صعدة معززين بما راكموه من حشد وقوة وخبرة عسكريتين. وكان آل الحوثي قد اعلنوا مذهبيا انتسابهم الى المذهب الشيعي الاثني عشري والى مرجعية الإمام السيستاني في النجف بالعراق مثلما اعلنوا انحيائهم سياسيا الى الجمهورية الاسلامية الايرانية. وباشروا الزحف باتجاه صنعاء مستفيدين من الاستعصاء والعجز اللذين اصابا «المبادرة الخليجية» والسلطة الجديدة ورعاتها الخليجيين والاميركيين والاعميين. وما لبث تطويق صنعاء ان تحول الى احتلال للعاصمة من «اللجان الشعبية» الحوثية، بدعم من الوحدات الموالية لعلي عبد الله صالح. وجدير بالذكر تواطؤ عبد ربه منصور مع الاحتلال وقد إمتنع عن اصدار الاوامر للوحدات العسكرية الموالية أن تخرق الحصار وان تقاوم اقتحام العاصمة، على أمل إستمالة الحوثيين ضد خصومه.

لقي التمرد الحوثي اول الامر قدراً لا بأس به من التأييد لدى قطاعات واسعة من الرأي العام اليمني، خصوصاً بعد توقيعهم «اتفاق السلم والشرابة» في سبتمبر ٢٠١٤ الذي بشر بوقف العمليات العسكرية واخراج السلاح من المدن وتشكيل حكومة جديدة

اما الحركة الحوثية فنشأت في كنف «حزب الحق» الهاشمي الزيدي وما لبثت ان تحولت الى حركة «الشباب المؤمن» بقيادة آل الحوثي. وابرز العوامل وراء نشأة الحركة ردود الفعل ضد انشاء وتوسيع المدارس والمعاهد الوهابية بإدارة احد زعماء الاخوان المسلمين المتشددين، الشيخ عبد المجيد الزنداني، بدعم وتمويل من العربية السعودية. وقد رافق ذلك حملات «وهبة» لعدد من القبائل اليمنية. شكّل اغتيال زعيم الحركة حسين الحوثي، على يد عناصر من الجيش اليمني، علامة فارقة في مسارها وتحولها الى قوة مسلحة باسم «انصار الله»، إفتتحت سلسلة من الحروب شنتها قوات النظام في صنعاء ضد معاقل الحوثيين في معاقلهم بمحافظة صعدة. أدت تلك الحروب وظائف متعددة تضمنت توريث ابرز عسكري النظام، علي محسن الاحمر، في الحرب، وهو المعروف بمعارضته توريث علي عبدالله صالح لابنه احمد رئيساً للجمهورية؛ وخوض جميع الافرقاء في تهريب السلاح والمتاجرة به؛ واخيراً ليس آخرها، شكلت الحروب مناسبات لاستدراار الاموال من قطر لقاء القبول بوساطاتها والموافقة على توقيع اتفاقات وقف اطلاق النار. وقد دارت آخر الحروب بين «انصار الله» والقوات السعودية، على الحدود بين البلدين، ولم تسفر عن الحسم لصالح هذه الاخيرة.

في مقابل مطلب الحكم الذاتي الذي رفعه الطرفان الشمالي الغربي والجنوبي ضد مركزية صنعاء (وصلت حد دعوات الانفصال في اوساط الحراك الجنوبي) إرتجل عبد ربه منصور اعادة تقسيم البلاد الى ست محافظات دون اخضاع قراره لاستفتاء شعبي ودون ان يأخذ بالاعتبار معارضة الطرفين المعنيين، وهما

الولايات المتحدة في المنطقة. زاد الامر خطورة أن الجمهورية الاسلامية قد افادت من الوقت الضائع في المفاوضات النووية مع القوى الغربية لتحسين ومحسين مناطق نفوذها في لبنان وسورية والعراق واحداث الاختراق الذي آمنه الانقلاب الحوثي في اليمن. وقد تم كل ذلك في مناخ من التساهل حتى لا نقول التواطؤ الاميركي مع تنامي النفوذ الايراني في تلك البلدان. هكذا بدت الحرب السعودية ضد اليمن بما هي تصعيد في الهجوم المضاد الذي يشنه تحالف تركي سعودي خليجي وقد ظهرت معالمه المبكرة في العراق وسورية.

هكذا صار اليمن في عين العاصفة الاقليمية من خلال حرب جوية مضاعفة بحرب اهلية. وبعد شهرين من الحرب، لا تزال «عاصفة الحزم» عاجزة عن فرض الانكفاء او الهزيمة على تحالف «انصار الله» وعلى عبدالله صالح. ففي ظل ضربات جوية عنيفة لم تعف البنية التحتية ولا المدنيين، ظلت قوات تحالف الحوثيين- علي صالح تتقدم في المحافظات الوسطى والجنوبية وتسيطر على معظم مواقعها بما فيها تعز وعدن. اما اذا كان ما اعلنه الناطق باسم «عاصفة الحزم» عن تدمير الصواريخ الباليستية «الايرانية» الموجهة للعربية السعودية ودول مجلس التعاون الخليجي هو هدف الحرب، فدليل قاضح على الثمن الذي جرى تدفيعه للشعب اليمني قتلا ودمارا وتهجيرا وتجويعا في سبيل هذا «الانجاز الجيو ستراتيغي»!

حقق الرئيس اوباما ما اراده من القمة الخليجية في كامب ديفيد. حصل على دعم الزعماء الخليجيين للاتفاق النووي مع الجمهورية الاسلامية الايرانية و«باعهم من كيسهم» كما يقال، الحماية الامنية والعسكرية المدفوعة بالمليارات من البترو دولارات. فقد وعد اوباما بفتح مخازن السلاح الاميركية وتسريع عمليات تسليم السلاح والذخيرة لتعزيز الترسانة العسكرية لدول مجلس التعاون الخليجي. فلا عجب ان تصف مجلة «فورين بوليسي» الاميركية (١٤ نوار/مايو ٢٠١٤) قمة كامب ديفيد بأنها معرض لبيع الاسلحة الاميركية اكثر منها ندوة دبلوماسية. وللتذكير، فخلال السنوات الخمس الاخيرة من ولاية اوباما، باعت المصانع الحربية الاميركية الى دول

تعيد النظر في «المبادرة الخليجية» وتؤمن تسوية جديدة للنزاعات اليمنية بمشاركة جميع الاطراف. وزاد من التفاؤل دعوة عبد الملك الحوثي ممثلي الحراك الجنوبي الى المشاركة في حكومة الاتحاد الوطني.

على ان ما يثير التساؤل هو انقلاب «انصار الله» المفاجئ والكامل على «الاتفاق» وما رافقه من مبادرات. جهرت بتحالفهم مع علي عبدالله صالح، وارتدوا عن دعوتهم تشكيل حكومة سياسية، وفرضوا تشكيل وزارة من التكنقراط وتراجعوا عن دعوتهم ممثلي الحراك الجنوبي الى المشاركة فيها، بل تنكروا لمطالب الحراك الجنوبي إذ اعلن زعيمهم عبد الملك الحوثي ان المسألة الجنوبية مسألة مظلومية وليست مسألة سياسية. وما لبثوا ان فرضوا الاقامة الجبرية على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.

ترافق هذا الانعطاف الحاد مع الاكثار من الخطوات الموحية بأن الانقلاب الحوثي إمتداد لمسار جيواستراتيجي بقيادة الجمهورية الاسلامية الايرانية. اعلن «انصار الله» عن وصول طائرات إيرانية الى مطار صنعاء؛ وعن اتفاقات تبادل اقتصادي وتجاري متسعة مع طهران؛ وتقدمت ميليشياتهم لاحتلال مواقع استراتيجية على ساحل البحر الاحمر في الحديدة والمخا والجزر لا دلالة لها الا الاعلان ان النفوذ الايراني قد بلغ البحر العربي والبحر الاحمر وبات يسيطر على مضيق باب المندب.

والادهى من هذا هو اندفاع ميليشيات «انصار الله» لفرض هيمنتها على المناطق الوسطى والجنوبية من البلاد وهي مأهولة في اكثريتها من السنة الشوافع، ما أفقدهم اي ادعاء وطني جامع، وزاد الاقتناع بأن انقلابهم لا يحمل تسوية بديلة للمبادرة الخليجية قدر ما يرمي الى تجديد وتصليب العصب الزيدي المتحكم بالسلطة - بعد ان تصدع جراء النزاع بين علي عبدالله صالح وشركائه السابقين في الحكم - وفرض السيطرة المركزية لصنعاء بالحديد والنار على سائر مناطق اليمن ومكوناته.

لم تقتصر اغراض الحرب التي شنتها التحالف بواسطة القيادة السعودية الجديدة على استعادة اليمن الى ما تعتبره الخطيرة السعودية. كانت احتجاجا بقعقة السلاح ضد انقلاب اقليمي استراتيجي محتمل يتمثل في المتربات الاقليمية للاتفاق النووي الايراني، وما يلوح وراءه من تغيير جذري في تحالفات

مجلس التعاون الخليجي اسلحة وخدمات عسكرية وامنية بقيمة ٦٤ مليار دولار، دفعت العربية السعودية ثلاثة ارباعها، لتتحول الى اول مستورد للسلاح الاميركي في العالم. ومن المترتبات المباشرة لـ«عاصفة الحزم» عقد وقعته قطر لشراء ٢٤ طائرة رافال فرنسية بقيمة ٦،٣ مليار دولار؛ وإعلان من دولة الكويت عن قرب توقيع عقد لشراء ٢٨ مقاتلة «إف ١٨ - سوبر هورنيت» من مجموعة بوينغ الاميركية.

سوف تنعقد مفاوضات الاتفاق النووي النهائي بين ايران ومجموعة الدول الغربية الست، في نهاية يونيو ٢٠١٥، في مناخ جيوسراتيجي مختلف نسبيا عن المناخ الذي ساد منذ الاعلان عن الاتفاق؛ خصوصا بالنظر الى التطورات الاقليمية في العراق واليمن وسورية.

ومع انه من المبكر التكهن بماهية تلك التطورات وطبيعة انعكاسها على حصيلة المفاوضات فلا بد من تسجيل هذه الملاحظات.

لقد إمتنعت ايران الممانعة عن إدراج الثلاثمة رأس نووي اسرائيلي على طاولة المفاوضات مع الدول الغربية الست، مثلما امتنعت عن اقتراح مقايضة التخلي عن السلاح النووي الايراني في مقابل نزع السلاح النووي الاسرائيلي ولو من قبيل تحسين شروط التفاوض الايراني ذاته، او من اجل الاستمرار في تسجيل رفض شعوب المنطقة للامر الواقع النووي الاسرائيلي المفروض عليها. وغني عن القول ان لا بحث جادا في سلام في المنطقة الا بتفكيك الترسانة النووية الاسرائيلية وقيام «شرق أوسط خال من الاسلحة النووية».

سعت ايران وتسعى الى مقايضة النووي الايراني لا بالنووي الاسرائيلي، ولكن بالنفوذ الاقليمي، وبرجاء ما تسميه «الشراكة الجيوستراتيجية» مع الولايات المتحدة الاميركية. هكذا تبقي اسرائيل في عتتها العنكبوتي ذي الشبكة النووية.

ومن يرد تذكر ما يحمله النووي الاسرائيلي من خطر على شعوب المنطقة، بما فيها الشعب الايراني، ما عليه الا ان يتابع ما اعلنه وزير الدفاع الاسرائيلي موشيه يعالون بهذا الصدد مؤخرا (٥ نوار/مايو ٢٠١٥) إذ لم يستبعد اللجوء الى السلاح النووي الاسرائيلي ضد ايران. وقد استشهد بالقاء الولايات

المتحدة القنبلة الذرية على هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين، خلال الحرب العالمية الثانية، بما هي النموذج الذي يجب ان تقتدي به اسرائيل في التعامل مع ايران وذلك قطعاً للطريق على حرب كلاسيكية طويلة المدى تماماً مثلما اختار الرئيس الاميركي قتل ٢٠٠ ألف ياباني يديلا من خوض مثل تلك الحرب. وخلص يعالون الى ما خلص اليه ايزنهاور حينها، من ان مثل هذا القرار إنما هو «قرار اخلاقي».

من جهة ثانية، كان اقتراب موعد توقيع الاتفاق النهائي في الاتفاق النووي، مناسبة لاجراء تعديلات جذرية في خطوط معسكر الممانعة وتوجهاته. ترافق الافصح على الشهوات الامبراطورية التوسعية الايرانية، السافرة النزعة المذهبية، مع التحديد المتزايد للولايات المتحدة الاميركية عن صف معسكر الاعداء. تحدث علي يونسي، مستشار الرئيس حسن روحاني للشؤون الدينية والاقليات (مارس ٢٠١٥) عن استعادة ايران دورها «الى وضع الامبراطورية كما كانت طيلة حياتها» حيث العراق «عاصمة تلك الامبراطورية التي تدافع عن شعوب المنطقة ضد التطرف الاسلامي والاحاد والعثمانية الجديدة». هكذا اختفى «الشیطان الاكبر» كليا من صف الشياطين. اضيف الى ذلك تأكيد محمد علي جعفري قائد الحرس الثوري بأن تدخلات ايران في اليمن وسورية تأتي في اطار توسع خريطة ما اسماه هو نفسه «الهلل الشيعي» في المنطقة وقد لاحظ جعفري ان «نظام الهيمنة العربي» هو ابرز المتخوفين من «توسع الهلال الشيعي» (٩ مايو ٢٠١٥).

في عودة لليمن، لم يبشر مؤتمر الرياض برغبة في التسوية لدى التحالف وحكومة خالد البجاح والمندوبين الى المؤتمر بناء على المطالب السياسية المرفوعة للمشاركة في مؤتمر جنيف المقرر عقده في آخر مايو ٢٠١٥. ففي الوقت الذي وافقت فيه الحركة الحوثية على حضور مؤتمر جنيف دون شروط، تتكاثر شروط الطرف الآخر، دون ان تدعمها إنجازات عسكرية فعلية، وتتضمن الاعتراض على دعوة ايران اصلا او المطالبة بوقف الحوثيين القتال وما شابه.

في مثل هذا الجو الصاخب الجعجعة هل من يسمع صوتا يصرخ مطالبا بوقف القتل والتدمير في اليمن وترك اليمنيين يقررون مصيرهم ومصير بلدهم بانفسهم؟

أميركا بين إيران والسعودية ضبط الصراع الإقليمي

مصطفى اللباد

رئيس «مركز الشرق
للدراستات الإقليمية
والاستراتيجية»،
القاهرة.

الأميركية على النظام الدولي الراهن، تبدو مقارنة علاقة كل منهما مع واشنطن حاكمة إلى حد كبير في تقدير سيروية هذا الصراع ومآلاته. على ذلك تنشغل السطور المقبلة بتسليط الضوء على تصورات إدارة أوباما لتوازنات الشرق الأوسط وقابليتها لتحقيق مصالح واشنطن في المنطقة، ثم أبعاد علاقة كل من السعودية وإيران بالولايات المتحدة الأميركية، وفي النهاية خلاصة أولية.

تصوّرات أوباما لتوازنات الشرق الأوسط ارتكزت واشنطن طيلة فترة الحرب الباردة وحتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على تصور أساسي لتوازنات الشرق الأوسط الكبير يقوم على ثلاث بؤر استقطابية، لتمرير مصالحها في المنطقة ولتصريف فوائض القوة الإقليمية لدى الأطراف في مواجهة بعضها بعضاً، وليس في مواجهة الولايات المتحدة الأميركية. كانت هذه البؤر الاستقطابية الثلاث هي التالية: الهند في مواجهة باكستان، وإيران في مواجهة العراق، وإسرائيل في مواجهة دول الطوق العربية. انهار التوازن الهندي - الباكستاني في أعقاب احتلال أفغانستان وضمور الأدوار الباكستانية واشتعال تناقضاتها الداخلية والعرقية، كما أن احتلال العراق في العام ٢٠٠٣ أطاح بالتوازن القائم بين العراق وإيران، حتى تدرج الأمر وصولاً إلى تمكّن إيران من مفاصل القوة العراقية، في تعديل صاخر نتيجة الحرب العراقية - الإيرانية بأثر رجعي. ومن الواضح أن انهيار البؤرة الاستقطابية الثالثة أي التوازن العربي - الإسرائيلي في ظل استمرار الصراع على المستوى الرمزي، مع غياب تسوية سياسية للقضية الفلسطينية، جعل فكرة التوازنات المهندسة أميركياً في الشرق الأوسط طوال أكثر من خمسة عقود ضرباً من الماضي.

يتصدّر الصراع بين السعودية وإيران رأس قائمة الصراعات الإقليمية منذ عقد من الزمان، بحيث أصبح هذا الصراع علماً على ساحات المنطقة الساخنة والمشتعلة بالوكالة من العراق شمالاً وحتى اليمن جنوباً، ومن البحرين شرقاً حتى لبنان غرباً. تعددت أسباب الصراعات الداخلية في كل بلد، لكنّ الناظم لها في سلسلة الصراع الأكبر والرئيس ظل واحداً: المصالح المتضاربة لطهران والرياض. تغطى البلدان اليمينيان بامتياز - من حيث نظام الدولة وتوجهات الحكم والانحيازات الاجتماعية - بعباءة المذهب، فشاع الحديث عن «المعسكر الشيعي» و«المعسكر السني» للدلالة على المحور الذي تقوده إيران والآخر الذي تقوده السعودية. وبمرور الوقت لم يعد التمييز السياسي في منطقتنا قائماً على أساس الفرز بين اليمين واليسار مثل باقي المجتمعات، وإنما على أساس الانتماء المذهبي وفي الخلفية راعيتاه الإقليميتان.

مع اندلاع الانتفاضات الشعبية العربية انتعشت الآمال في الانتقال بالحركات السياسية إلى آفاق أكثر رحابة من تلك المذهبية الضيقة، لكنّ فورة الأحلام انتهت في المرحلة الأولى من الربيع العربي، إذ عاد بعدها الصراع السعودي - الإيراني، أو السني - الشيعي، ليحتل موقعه كمحدد أساس للصراعات المنطقة. راهنا ترتفع راية الصراع الإقليمي الرئيس فوق المبارزات والحركات والصراعات المحلية: في العراق واليمن ولبنان، كما تغطي الحرب في اليمن، مع التسليم بمسبباتها المحلية، بالغطاء المذهبي الإقليمي ذاته. باختصار غير مغل، تبدو العلاقات السعودية - الإيرانية مجسّدة وملخّصة لتوازنات المنطقة، إذ يُعدّ تقليب النظر في طبيعتها مؤشراً دقيقاً على مآلات الصراعات المحلية وأرتباطاتها وتقلباتها بعضها ببعض. ولأن سباق فرسي الرهان الإقليمي يتبلور مع استمرار هيمنة الولايات المتحدة

كاليفورنيا على حق التنقيب في المنطقة الشرقية)، فقد تطوّرت العلاقات إلى مصاف التحالف الاستراتيجي في نهايات الحرب العالمية الثانية مع إعلان الرئيس الأمريكي الأسبق فرانكلين روزفلت بسط الحماية الأميركية على السعودية بقوله: «الدفاع عن السعودية هو مصلحة حيوية للدفاع عن الولايات المتحدة الأميركية». ومنذ اللقاء الشهير الذي جمع الزعيمين على ظهر الفرقاطة توينسي في شباط/فبراير من العام ١٩٤٥ في البحيرات المرة المصرية، يشكل التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية، والاعتماد عليها في حماية أمنها القومي عمود خيمة المصالح الدولية للرياض، بمعنى آخر، أرسى أساس العلاقة بين الطرفين وفقاً لمعادلة «النفط مقابل الأمن».

ومع احتدام الحرب الباردة أخذت السعودية موقعها بوضوح ضمن الاصطفاف الغربي، واعتمدت واشنطن باضطراد على الموارد النفطية السعودية بصفتها أحد روافد زعامتها العالمية. وعند إعلان الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون فك ارتباط الدولار الأمريكي بالذهب وفقاً لاتفاقية «بريتون وودز»، لم يسقط الدولار الأمريكي في الأسواق العالمية ولم تتراجع المكانة الأميركية، والسبب واضح، أنّ سوق النفط العالمية تقمّ بالدولار وأنّ فوائض النفط تصبّ في النهاية في المصارف الأميركية، ما حفظ للدولار مكانته في العالم.

عزّزت السعودية مكانتها الإقليمية والدولية في أعقاب حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، إذ سمح ارتفاع أسعار النفط في الفترة القليلة التي تلت تلك الحرب بفوائض مالية لم تعرفها السعودية في تاريخها، ما سمح لها بترسيخ أعمق لتحالفها مع الولايات المتحدة الأميركية. وبالرغم من الحرب الطاحنة التي دامت ثماني سنوات بين البلدين النفطيين الجارين العراق وإيران، وتعذّر التصدير منهما إلى العالم، فقد ظل سعر النفط متدنياً بشدّة (دار وقتها حول عشرة دولارات للبرميل الواحد) بفضل قدرة السعودية على الإنتاج وزيادة المعروض النفطي في العالم.

ترسم السعودية سياساتها النفطية في سوق الطاقة العالمية (تصدّر ١٠ ملايين برميل نفط يومياً) بالتنسيق الكامل مع الولايات المتحدة الأميركية، كما تستثمر السعودية فوائضها النفطية بالأخص في أميركا، بحجم استثمارات يقدر بتريليونات الدولارات (التريليون يساوي ألف مليار). تقول التجربة التاريخية إنّ السعودية ساهمت في إسقاط الاتحاد السوفياتي السابق عندما

تبدو المصالح الأميركية الأعمق في الشرق الأوسط راهناً متمثلة في حماية النفط من الأقطاب المنافسة وخصوصاً الصين، فضلاً عن ضمان أمن إسرائيل وإعادة تشكيل التوازن والخرائط بما يضمن ويرسخ هذا الهدف ومعه أمن الحلفاء الإقليميين الآخرين. من هذا المنظور يبدو التقدّم الذي حققه المحور الإيراني خلال السنوات الأخيرة على كامل الساحة الممتدة من العراق مروراً بسورية وحتى لبنان، مزعجاً للتوازن المرغوب أميركياً. من المنطقي إذاً أن الغرض الأساسي من المخاض الإقليمي الراهن سيتمثل على الأرجح في تغيير المعادلات المحلية في المنطقة وأزماتها المشتعلة سواء في العراق أو سورية على الأرض، قبل الشروع بحلول سياسية تترجم هذا التغير إلى معادلات إقليمية وتوازنات جديدة، تضمن في النهاية المصالح الأميركية في المنطقة ضماناً أكثر نجاعة. وكل ذلك سيستغرق وقتاً. على ذلك، ليس المطلوب أميركياً القضاء على المحور الذي تقوده إيران، أو الانتصار للمحور الذي تقوده السعودية، وإنما دفع الطرفين، كلّ إلى تحجيم الآخر. ومرةً ذلك أن الصراع السني – الشيعي الذي تقوده كل من السعودية وإيران يشكل مركز الدائرة التي سيدور عليها التوازن الإقليمي الجديد والمطلوب أميركياً، ويستجيب لحاجة إسرائيلية في تبديل هوية الصراعات المركزية في المنطقة إلى طائفية ومذهبية. باختصار غير مخل، المطلوب أميركياً من الحركات الجارية في المنطقة ضبط التناقضات البنوية والعداوات التاريخية بشكل أكثر مناسبة لواشنطن، وليس اجترار تسويات تاريخية شاملة أو تعديلات بنوية جذرية بين القوتين المتصارعتين. على ذلك، يبدو الفارق شاسعاً وضخماً بين التواطؤ مع أحد فرسي السباق بغرض عرقلة الآخر أو حتى الانتصار لأي منهما، وإنما إعادة تشكيل موازين القوى لمصلحة ما تهندس أميركا من توازنات.

السعودية وأميركا

فردت بريطانيا مظلة حمايتها على السعودية في مواجهة الأتراك منذ بدايات القرن العشرين، واستمر ذلك الأمر قائماً حتى تغيّرت موازين القوى الدولية مع صعود الولايات المتحدة الأميركية زعيمة للعالم الغربي. وعلى الرغم من أنّ اعتراف أميركا بحكم آل سعود جاء في العام ١٩٣١ مترافقاً مع أول عمليات التنقيب الأميركية في السعودية (حصلت شركة ستاندارد أويل أوف

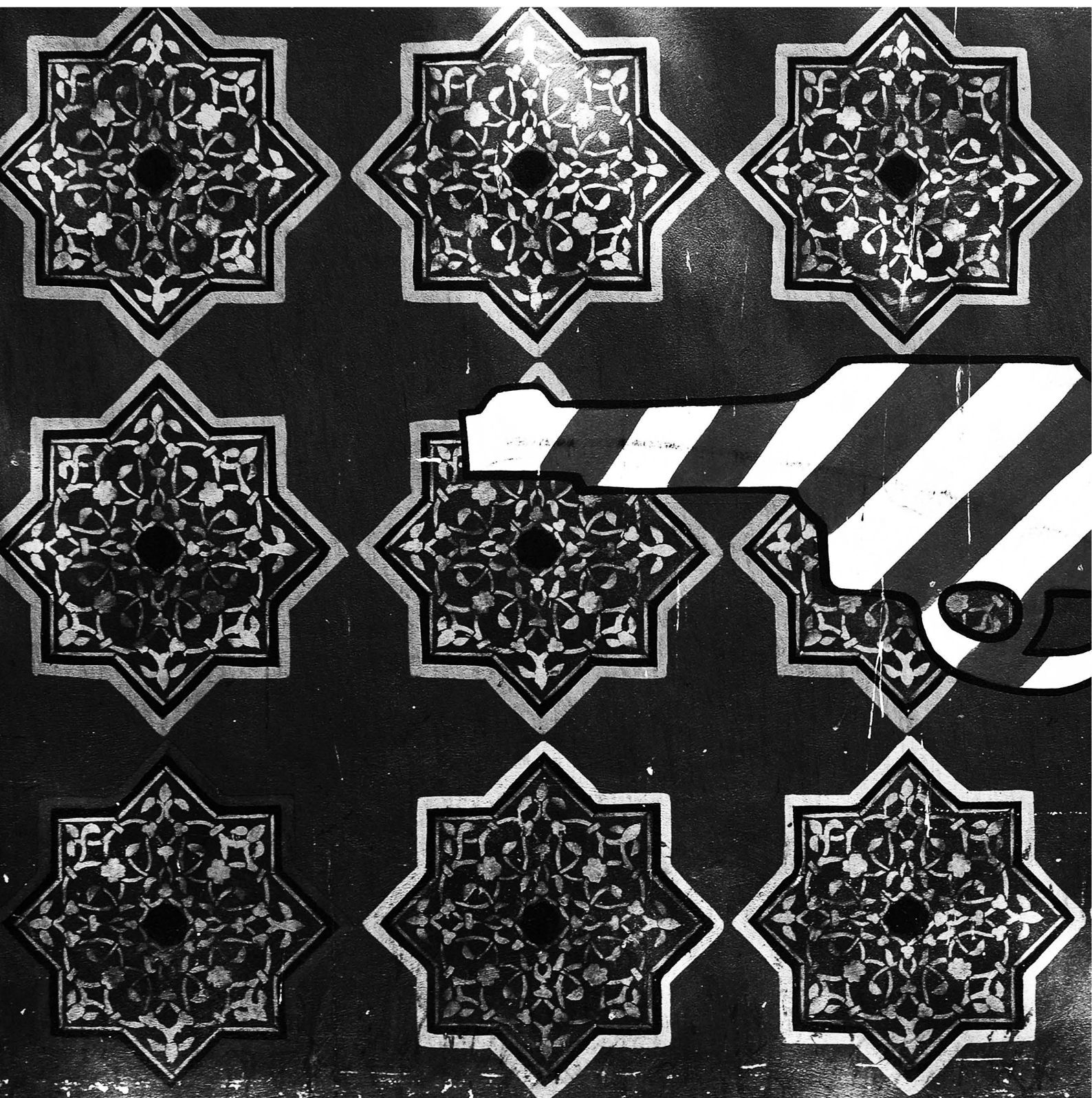
رفعت إنتاجها اليومي من مليوني برميل إلى خمسة ملايين برميل خلال الثمانينيات من القرن المنصرم، ما هبط بأسعار النفط بقسوة، وأثر سلباً بالتالي في عوائد موسكو من النفط، وذلك بالتوازي مع ضغوط جيو-سياسية أميركية، قادت بالنهاية، ضمن عوامل أخرى، إلى سقوط الاتحاد السوفياتي.

ويشرح جيمس نورمان ذلك بسلسلة في كتابه المعنون: «ورقة النفط: الحرب الاقتصادية العالمية في القرن الحادي والعشرين»، كيف أمكن للسعودية المساهمة في تشكيل موازين القوى العالمية باستخدام ورقة النفط. وبالإضافة إلى ذلك، تستورد السعودية عتادها العسكري في غالبيته الواضحة من الشركات الأميركية، فتكون قد ضمنت بذلك تأثيراً غير قابل للنكران على مكونات النواة الصلبة لصنع القرار الأميركي: (اللوبي المالي) حيث الإيداعات السعودية الضخمة في المصارف والبنوك الأميركية، والتنسيق في سوق النفط من حيث الكميات والأسعار (لوبي النفط)، وليس انتهاءً بالمجمع الصناعي - العسكري الأميركي عبر مشتريات السلاح.

وعرفت العلاقات الثنائية السعودية - الأميركية فترة ازدهار نوعية مع رئاسة جورج بوش الأب للولايات المتحدة، وارتباطاته التاريخية مع لوبي النفط، والأدوار الاستثنائية التي قام بها الأمير بندر بن سلطان في تعزيز العلاقة بين آل سعود وآل بوش. ثم تغير الحال مع هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، حين اهتزت صورة المملكة في أميركا، ما دفع السعودية إلى القيام بحملات مكثفة للعلاقات العامة كلفت الكثير من المال، لعقد مؤتمرات «حوار الأديان»، وتدشين حملات الدبلوماسية العامة لتعميم صورتها باعتبارها الشريك الذي يُعتمد عليه في الشرق الأوسط وسوق الطاقة العالمية. ومع احتلال العراق عام ٢٠٠٣، تبدلت موازين القوى في المنطقة لمصلحة إيران، بالتوازي مع ظهور عدم قدرة السعودية على رص اصطفاف إقليمي قوي في مواجهة طهران وطموحاتها الإقليمية.

تخطط مصادر التهديد بالسعودية من كل اتجاهات جوارها الجغرافي، سواء من أقصى الشمال حيث الوضع في سورية المتحالفة مع إيران، أو من الشمال الشرقي حيث العراق بتركيبته السياسية الجديدة بعد ٢٠٠٣، أو من الشرق في الخليج حيث البحرين. ومن الجنوب الغربي حيث عدم الاستقرار في اليمن والمعارك الطاحنة التي تدور فيه مع الحوثيين لحظة كتابة هذه السطور. كل

❖
شعارات مناهضة
للولايات المتحدة
الأميركية على
جدار السفارة
الأميركية المغلقة
في طهران (تصوير
فيليب مايولد)



مصادر التهديد هذه تحمل - من المنظور السعودي - طابعاً إيرانياً إلى الحد الذي أصبحت فيه الأخيرة التهديد الرقم واحد للسعودية.

تقليدياً، تكمن المصالح الإقليمية للسعودية في معاداة التغيير وتفضيل إبقاء التوازنات الإقليمية على حالها، أو بعبارة أخرى، تدافع السعودية بضراوة عن استمرار الوضع القائم، الأمر الذي يمثل نقطة ضعفها الأساسية. وذلك لاضطرارها للتموضع في موقع الدفاع أمام أية قوة في المنطقة، تطرح مشروعا إقليمياً يتجاوز حدودها. لكل ذلك تعمل السعودية بدأب على تعزيز ورعاية الاتجاهات المحافظة السياسية والدينية في المنطقة، فتفلح من ناحية في كبح الاتجاهات الليبرالية، إلا أنها من ناحية أخرى تدفع ثمناً سياسياً كبيراً لظهور اتجاهات راديكالية ومفرقة في المحافظة بالعقدين الأخيرين.

لا بديل أمام السعودية عن الاستمرار في التحالف مع واشنطن لحماية أمنها ومصالحها. في حين يملك أوباما بالمقابل مروحة أوسع من البدائل.

لا بديل أمام السعودية عن الاستمرار في التحالف مع واشنطن لحماية أمنها ومصالحها، في حين يملك أوباما بالمقابل مروحة أوسع من البدائل. انتعشت آمال أوباما في تشكيل اصطفاك جديد في المنطقة مكوّن من دول «الربيع العربي» وتركيا إلى جوار محور السعودية ومحور إيران لتعظيم الشركاء والبدائل، لكن هذه الآمال عادت للانتكاس من جراء إطاحة حكم جماعة «الإخوان المسلمين» في مصر العام ٢٠١٣. لذلك، أرسى أوباما تفضيلاته لتصميمات الشرق الأوسط على محورين أساسيين: محور إيران مع تشذيبه وكبحه بنعومة، ومحور السعودية مع تصليبه في منطقة جواره الجغرافي، بالتوازي مع إبقاء تركيا وإسرائيل حليفين جاهزين للتدخل لصالح أحد المحورين في حال تطلبت المصالح الأميركية ذلك. في هذا السياق التصميماتي الجديد، أيدت واشنطن عملية «عاصفة الحزم» وسهّلت صدور القرار ٢٢١٦ من مجلس الأمن، لمساعدة السعودية على مواصلة السباق الإقليمي في مواجهة إيران.

راهنّت إيران على فوز أوباما في الانتخابات الرئاسية الأميركية، متخيلة عن إرث تاريخي ربط موضوعاً مصالح

إيران بذلك القسم من اللوبي النفطي في أميركا، والذي يظهر تقليدياً الجمهوريين. وتنطبق هذه الحقيقة على إيران زمان الشاه، مثلما على جمهورية إيران الإسلامية. والدليل الأوضح على ذلك أزمة الرهائن الأميركيين في طهران نهاية العام ١٩٧٩، والذين أطلقت إيران سراحهم بالتزامن مع أداء الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان القسم الرئاسي مطلع العام ١٩٨١ إثر فوزه على الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر، الذي امتنعت إيران عن مساعدته في حل الأزمة طوال السباق الانتخابي لتخرج المنافسة بينهما بنتيجتها المعلومة. في الانتخابات الأميركية ٢٠٠٩ و٢٠١٣ انحازت المصالح الإيرانية لأول مرة إلى المرشح الديمقراطي باراك أوباما، وبدا واضحاً أن غالبية كبيرة من الأميركيين ذوي الأصول الإيرانية (يزيد عددهم على مليون أميركي) صوّتت لمصلحته، على الرغم من معارضتهم لسياسات النظام الإيراني خوفاً على بلادهم من ضربة عسكرية قد يوجهها المرشحون الجمهوريون في حال انتخابهم. وفي المقابل، أبدى أوباما قدراً واضحاً من الصمود أمام الضغوط الصهيونية في ما يخص توجيه ضربة عسكرية إلى إيران.

تعود أهمية انتخاب أوباما إيرانياً إلى أنّ مروحة الاحتمالات تنفتح معه على احتمالات شتى، تبدأ من حوار أميركي - إيراني يقنّ بالنهاية دور إيران الإقليمي، وحتى توجيه ضربة عسكرية إلى منشآت إيران النووية. وبالرغم من تقدّم المفاوضات النووية بين إيران وأميركا والتوقعات العالية بنجاح البلدين في إبرام اتفاق شامل هذا العام، مازالت إيران تشكل معضلة أميركية لعدة أسباب. أولها أن تقنين دور إيران الإقليمي يعني بالضرورة الاعتراف لها بما حقّقتها من نفوذ في المنطقة خلال العقد الأخير، وبدوره، يعني هذا الاعتراف تأثيراً سلبياً في علاقات واشنطن بكل من تل أبيب والعواصم الخليجية وأنقرة. كما أن توجيه ضربة عسكرية سيعني - بافتراض بنجاحها في إنجاز أهدافها السياسية - أنّ المنطقة سيلزمها ترتيب إقليمي جديد بما يملأ الفراغ الذي ستتركه، وهنا ستكون التداعيات فادحة بسبب الدخول المرجّح لقوى من خارج المنطقة إلى قلب توازاناتها ملء الفراغ (الهند في الخليج وروسيا في شمال إيران)، وهو ما يتناقض مع التصورات والتصاميم الأميركية لمصالحها في الشرق الأوسط. بكلمات أخرى، يقول المنطق الداخلي للعلاقات الأميركية - الإيرانية إنها عابرة للبعد الثنائي ومتخفية له إلى البعد الإقليمي، سواء عند الحوار أو المواجهة العسكرية.

إيران أبعد في مشروعها النووي برفع نسبة التخصيب، بغرض مقايضة الرجوع عن نسبة التخصيب المرتفعة برفع العقوبات الإضافية الجديدة، وهكذا دواليك.

باختصار، كلما زادت العقوبات على إيران زادت الأخيرة من نسبة تخصيب اليورانيوم واقتربت من الخط الأحمر الأميركي، وهو أمر لا يمكن أن يستمر كذلك طويلاً لأنه سيكون على أميركا أن تقبل بإيران نووية في النهاية، أو توجيه ضربة عسكرية إليها، وكلاهما أمران لا يرغب أوباما في رؤية أي منهما يتحقق، ومرد ذلك أن إيران نووية ستخرج عن التصميم الإقليمي المرسوم وتهدد التوازنات المهندسة أميركياً، كما أن توجيه ضربة عسكرية لإيران سيشرع أبواب المنطقة لقوى إقليمية من خارجها، منها مثل الهند وروسيا مثلاً، للتنفذ إليها بغرض تعبئة الفراغ الناتج من الضربة العسكرية، وهي نتيجة لا ترغب واشنطن بالطبع فيها. لذلك السبب فشلت تل أبيب في تحريضها المتكرر على ضربة عسكرية لمنشآت إيران النووية، ويعود هذا الفشل إلى أن الهدف السياسي المتوخى من الضربات غير مضمون التحقق، كما أن التداعيات الإقليمية للضربة ستكون غير مواتية لواشنطن، وليس لأن تل أبيب عديمة التأثير في واشنطن.

يبدو الصراع السني - الشيعي في المنطقة بالقيادتين السعودية والإيرانية أمراً مواتياً للمصالح الأميركية، ومن البديهي أن استمرار الصراع يعني حكماً عدم تمكن أحد طرفيه من القضاء على الآخر. ولأن إيران تملك تفوقاً نسبياً على السعودية في ساحات الصراع الإقليمي بالوكالة في العراق وسورية ولبنان، سيستلزم الأمر تشذيب الأطراف الإيرانية في المنطقة بالوسائل الناعمة. ويتيح الاقتصاد الإيراني المتطلع إلى الاستثمارات الأجنبية والانفتاح على الأسواق العالمية أفضل الفرص لواشنطن للتغلغل عبر شركاتها الكبرى والعابرة للقارات في مفاصله، وصولاً إلى التأثير في قرار إيران السياسي والإقليمي بما يضمن بقاء التوازنات المهندسة أميركياً للإقليم في مكانها. حتى ذلك الحين ستتعاون واشنطن مع فرس الرهان الإقليمي في كل الملفات العالقة دون الانحياز لطرف على حساب آخر، ولعل أبلغ دلالة على ذلك تعاونها مع السعودية جواً في مواجهة «داعش» ومع إيران براً في مواجهة ذات التنظيم أيضاً. وفي النهاية، من الخطأ توصيف أوباما بالتوصيفات المذهبية الرائجة في المنطقة، إذ إن الرجل ليس سنياً أو شيعياً، وإنما أميركي يسعى إلى تحقيق مصالح بلاده، وضبط حركات المنطقة على قياس المصالح الأميركية وقياقتها.

يعتقد أوباما أن الاتفاق الإيراني - الأميركي حول الملف النووي سيعبّد الطريق أمام رفع العقوبات الاقتصادية تدريجياً عن إيران، ولكنه سيعني في الوقت نفسه تبدل موازين القوى داخل إيران لمصلحة رموز الاعتدال الإيراني، رفسنجاني وروحاني. كذلك إبرام الاتفاق الشامل سيعني على الأرجح تراجع مواقع المؤسسة الأمنية الإيرانية بقيادة الحرس الثوري في إدارة الملفات الإقليمية لصالح روحاني ومن خلفه رفسنجاني، وهي نتيجة جيدة لواشنطن. ستكون إيران في حاجة إلى بعض الوقت والكثير من النجاح في إدارة الملفات والمآزق الاقتصادية كي تبدأ في جني ثمار رفع العقوبات، وحتى ذلك الحين سيكون الانتباه الإيراني مركزاً نحو الداخل وتكريس توازنات جديدة في مفاصل الدولة الإيرانية، وبالتالي فالفرصة متاحة أمام واشنطن للتحكم بالإيقاع الإيراني في الإقليم مهما بدت الصورة محتمة في ملفات المنطقة راهناً. يراهن أوباما أساساً على قدرات بلاده في التأثير على معادلات إيران الداخلية عبر الشبكات الدولية العابرة للجنسيات، تلك التي ستستفيد من فتح الاقتصاد الإيراني أمام التجارة الدولية وتتغلغل فيه لفترات طويلة مقبلة، كما حدث مع تجارب شبيهة سابقة (حالة مصر السبعينيات مثلاً).

من ناحيتها، تعلم طهران جيداً أن طموحها التاريخي المتجدد للعب دور إقليمي في المنطقة لن يجد اعترافاً دولياً به سوى على مائدة المفاوضات مع واشنطن، أما المهارة والمداورة التي أظهرتها في طول المنطقة وعرضها على مدى السنوات العشر الماضية، فكانت الشرط اللازم لإجبار واشنطن على الجلوس إلى مائدة المفاوضات. وهكذا ارتقت أولويات طهران من مجرد حماية نفسها من ضربة أميركية محتملة، إلى حصد الأوراق الإقليمية ورعايتها انتظاراً للحظة الجلوس إلى طاولة المفاوضات التي أتت ولن تدعها إيران تفلت. لتأمل القصور الذاتي والمبرمج للتصعيد في الملف النووي الإيراني ومدى مطابقته للمصالح الأميركية في المنطقة، ما يفسر رغبة أوباما في حله سلمياً لحفظ المصالح الأميركية وليس انحيازاً لإيران أو رهبة من قدراتها. كلما امتنعت إيران عن الاستجابة لطلبات الدول الست الكبرى بخصوص برنامجها النووي، شددت أميركا والدول الأوروبية العقوبات الاقتصادية عليها بضغط من إسرائيل واللوبي الصهيوني في واشنطن. وبالنتيجة كلما اشتدت العقوبات الاقتصادية على طهران كي ترضخ تفاوضياً، مضت

٢٦ مارس ٢٠١٥ أفتح عيني وأتذكر البداية

بُشرى المقطري

روائية وصحافية،
اليمن.

مغرية وهم يشعلونها كما يشعلون سجنائهم، ولا يفكرون أن هناك شعباً معطوبة من القتل والموت الذي خبرته كما خبرت ملامح أبنائها وسير أبطالها، شعوب تكره الحرب وتريد أن تعيش ولو لمرة واحدة حتى بنصف سلام مؤقت، غير أن تحالف الأقوياء في «عاصفة الحزم» لا يفهم هراء الشعوب وأحلامها، فهو يريد تأديب الحوثيين وإعادة الرئيس الطيب منزوع الحيلة عبدربه منصور هادي إلى رأس السلطة اليمنية، كما أخبرنا خبراء عاصفة الحزم، لكن ما يحدث على الأرض كان مختلفاً جداً عن كل النوايا الطيبة التي يصدرها إعلام الحرب، إذ تعاطفت الانفجارات وهزت المدينة في ذلك الليل القديم، وتصاعدت النيران في أماكن متفرقة من صنعاء. كان الصوت أسرع من قدرتنا على فهم ما يجري، والجحيم أقرب من القيامة، ثم دوت مضادات الطيران في سماء المدينة، ولعلعة الرصاص تُرجّ رؤسنا في كرنفال الموت الذي دُشن حينها وأيقظ الأهالي من هناءة نومهم وركضوا إلى الشوارع كفتران مذعورة. شاهدت لمعة سجنائهم وغضباً كسيحاً يتسع في عيون أشياخها الرعب، إنه ليل القيامة.

في ليل القيامة الذي توالى دائماً وبلا انقطاع، لم يفلح اليمنيون حتى في لملة أوجاعهم من حرب خارجية وأخرى داخلية لا ناقة لهم بها ولا جمل: حروب طاحنة تحصد أرواحهم وسلامهم، وتركهم كحيوانات نافقة معروضة للفرجة والتكهنات في ساحات التبارز الإقليمية والدولية، حروب لم يختاروها قط وإنما اختارها الآخرون بالنياحة عنهم ليجدوا أنفسهم في عين العاصفة. يصحون كل يوم على تفاصيل مختلفة للرعب، يتلمسون بغضب ما خلفته غارات التحالف: قصف مطار صنعاء وعدن وتعز والحديدة. قذيفة تخطئ وتسقط على مزرعة قرب مطار

كل الطرق تؤدي إلى الموت، هذا ما خبره اليمنيون اليوم وهم يحصدون سنوات الموت والرعب دفعة واحدة، من دون أن يقدروا حتى على التقاط الأنفاس، بعدما اختبأ السياسيون ومُشعلو الحرائق وملوك الطوائف في جحورهم الظليلة، وتركوا جميعاً لعين العاصفة نهبا للحرب قامت تحت جلدنا وستعزّش في ذاكرتنا القريبة والبعيدة. أفتح عيني وأتذكر البداية، أتذكر العين التي اتسعت فوقنا، كنتخب في مدار الكون: الساعة الثانية والنصف من فجر الخميس ٢٦ مارس/ آذار ٢٠١٥: الكهرباء مقطوعة والظلام حالك في الشقة، فقط نور خافت للقمر يتسلل من نافذة غرفة المكتب ويعكس وجوهنا الحزين. أطلّ من النافذة على شارع هائل ويفزعني الصمت. كل شيء أصبح مطفأ، ليس شارعنا وحسب بل كل المدينة مطفأة. منذ أشهر والناس ينتظرون فاجعة ما، لكن أحداً لم يفكر أن الأسوأ قد أتى أخيراً، ولم يعد بيننا وبينه إلا مسافة ذلك الليل المتجهّم.

جلستُ أنا وزوجي حول المنضدة، متحلّقين حول فنجان قهوة ورماد السجائر، نتشم رائحة حرب وشيكة تحملها نسيمات الليل، ونداري خوفنا الذي كان يكبر كل يوم. نتحدث عن الأصدقاء الذين تركوا بيوتهم ورحلوا، ونفكر متى سيحين دورنا. غير أن فكرة النزوح مرعبة، توقظ خوفك البدائي من العراء والتشرد. توقّف النقاش على أزيز طائرة، ثم دوي انفجار «بم بم». قال زوجي: «لقد بدأت الحرب». هكذا إذاً بدأت الحرب، فجأة وبدون مقدمات، وفي قواميس العتاة والمجرمين، لا تحتاج لإشعال حرب سوى إلى نية الفتك أو الانتحار، كما فعل الحوثيون وعلي عبدالله صالح على مدى أشهر طويلة في حربهم ضد اليمنيين العزل. وفي صراعات الأقوياء، لا خيار للشعوب في قرار الحرب، إذ تبدو فكرة الحرب

وقوات صالح، أسر وأسر آخر، حروب شوارع، القناصة في أعلى سطوح المنازل يحصدون أرواح اليمنيين، منظمة «أطباء بلا حدود» تعلن عدن مدينة منكوبة و«الصليب الأحمر» ينادي بوقف الحرب لكن جيوش البرابرة لا تبالى. تستمر المواجهات والعنف والقتل في عدن والضالع والحج، مساحة مוגلة للموت اليمني الذي ينقذه الحوثيون وصالح بدم بارد.

يمتد الموت أيضاً إلى مدينتي، تعز، التي لم تبرأ من جراح المنتقمين منذ أشعل أبنائها ثورة العام ٢٠١١. هي المدينة المنهكة أكثر من أي مدينة أخرى في العالم، تعرضت هي الأخرى لاستباحة مليشيات الحوثي وصالح وفرض حصار خانق على أبنائها الذين تركوا كل تراثهم السلمي وتسلبوا بعدما طال الموت كل شيء في هذه المدينة في دروة جديدة للعنف. السلاح لغة الشارع اليمني الآن، يتحدث بها الشباب والأطفال والنساء في لياليهم المظلمة. أتصل بأمني بعد غارات عنيفة على المدينة، يجهش صوتها بحرقة وهي تصف القذائف التي سقطت في حينا، حي الصحابة، مات عدد من أقربائنا والجيران، أقول لها أن تنزع هي وأبي إلى قريتنا البعيدة في أعالي جبال الحجرة، ترفض أمني فكرة النزوح: سأظل في بيتي وسأموت في هذه المدينة. لا أعرف ماذا أقول عن جغرافية الموت التي تتسع كل يوم لتجعلنا جميعاً موتى محتملين، لا أعرف ماذا أقول لخوف أمني وحزنها وقلة حيلتنا معاً، هي فقط هوة تتسع في قلبي وأبكي من هذه التغريبة اليمنية الحزينة.

الكتابة تحت عين القناص

القصص على رؤوسنا، والحرب الداخلية مستعرة في كل جبهات الوطن، في كل الجغرافية اليمنية المنكوبة، التحالف العربي والحوثي وصالح يحرقون ما تبقى من سفن النجاة، في حين يقف غالبية اليمنيين متعينين من حماقة الأطراف التي أدخلت اليمن في أتون حرب طويلة لن ينجو منها أحد. كجماعة لا حول لهم ولا قوة ولا صوت، يقف غالبية اليمنيين رافضين التدخل السعودي والإيراني وأن يصبح وطنهم ساحة لصراع دولي، يرفضون هذا الأذى المزدوج، هذا الجنون المضاعف، هذه النهايات المفتوحة على الدمار. لكن في هذا الزمن العصوي المريض، زمن الاستقواء بالخارج والولاءات العابرة للحدود، زمن السلاح والعنتريات، فإن صوتهم، صوت اليمنيين، صوتنا الحزين، الواهي، الحالم، الضعيف،

صنعاء فتميت أسرة بكاملها. قصف على مدينة حجة تخطئ قذيفة فتسقط على مخيم للنازحين في محرز ويموت عشرات النازحين، قصف على معسكر الدفاع في الحديدة: تخطئ قذيفة وتسقط على مصنع الألبان ويموت عشرات من العمال وهم يحاولون الهرب. قصف على معسكر في تعز، تخطئ قذيفة فتصيب قرية للمهمشين (الأخدام) في ماوية يروح ضحيتها عشرات الفقراء، قصف في صعدة يسقط ضحيته عشرات من المدنيين. قصف في فح عطان في صنعاء يروح ضحيته عشرات من المواطنين الذين ماتوا إما بتهديم السقف على رؤوسهم وإما اختناقاً بغازات الكلور. قصف على ناقلة للغاز وقاطرة للبئر والحبوب وعلى مخازن المواد الغذائية. قصف على معسكر العند على الطريق بين الحج وعدن، تسقط قذيفة على مصنع الإسمنت فيسقط ضحايا مدنيون حولتهم نشرات الأخبار إلى مجرد أرقام. وكالمعتاد يتقاذف الإعلام المؤيد للعاصفة والإعلام المؤيد للحوثي وصالح الاتهامات حول المتسبب في القتل، ولا أحد من الطرفين لديه ما يكفي من الإنسانية أو الحياء لتركنا نحصي موتانا ونبكي على هذا الخراب اليمني الجديد.

السلاح لغة

لا تفهم جماعات الرب وأنصار الإله سوى منطق القتل والكراهية، حتى لو أحرقوا كل اليمنيين من أجل سمو العقيدة المخادعة وأوهام السيادة الوطنية التي باعوها أولاً بأول. لم يقاوم الحوثيون وقوات صالح غارات التحالف ولم يفكروا في إيقاف حروبهم على اليمنيين لتجنب العدوان، بل استمروا في وحشيتهم في كل شوارع مدينة عدن وأزقتها: خور مكسر، كريتر، التواهي، القلوعة، المعل، الشيخ عثمان، البريقة. الحوثيون وقوات

السلاح لغة الشارع اليمني يتحدث بها الشباب والأطفال والنساء في لياليهم المظلمة.

صالح يدشنون حروب الإبادة ضد أبناء المدينة المسالمين، يقصفون المنازل ويقتلون الأهالي. قائمة الشهداء تتسع لتصل إلى أكثر من خمسمائة شهيد في عدن وآلاف الجرحى. أبناء عدن يحملون السلاح للدفاع عن حياتهم، اللجان الشعبية المؤيدة لهادي تشترك مع الحوثيين

تجيب السماء، كم عدد القتلى في هذه الغارة؟ كم من البيوت تدمرت؟ فرق بين أن تسجل ما حدث وأن ترى الموت بعينك، هذه الحادثة لم يتناقلها إعلام الحرب سواء الرفض للعاصفة أو المؤيد لها. لا أحد يبالي بالضحايا، هذا هو المسكوت عنه في الحروب: الموت والفرع.

لا ملجأ للفقراء إلا الفقراء

حملتُ فرعي وعدنا إلى بيتنا صامتين، شيء انكسر داخلنا، ربما هو السلام الواهي الذي كنا نخبئ داخله، لم نهذاً من هول الفاجعة إلا ووصلتنا رسالة قصف معسكر في عمران. أخطأت قذيفة هدفها ووقعت على مدرسة وقتل عدد من الأهالي، دقائق واتصلت أختي مذعورة، شقيق صديقاتنا، ليزا ولينا الحسني، قتل برصاص قناصة في مدينة عدن، غصة تصاعدت في قلبي وغضب أعمر، غضب من كل شيء، إلى أين يذهب اليمنيون من هذه الفوضى التي تعصف بهم وطرق الموت مفتوحة تحت أقدامهم؟ أي كوكب خرافي سوف يستقبل جيوش المعطوبين من الحياة؟

لا ملجأ لليمنيين اليوم في عام نكبتهم، عزلاً وبلا أمل أو مستقبل يراوغون الهلاك فقط برغبتهم الأصلية في النجاة من الموت، لا مكان يليق بحزنهم وجوعهم، لا مكان يليق بحروبهم الجديدة. لكنهم، وكعادتهم في معاناة الحياة، ينزحون من جديد، إذ يبدأ اليمنيون رحلتهم في التيه، بعدما دُكت منازلهم جزاء القصف الجوي أو الذين هم في خط نار المارك بين الجماعات المسلحة، نزوح جماعي من صنعاء إلى أريافها أو إلى المدن البعيدة، ومن تعز والحديدة وإب ومارب والجوف إلى قرى لم تعد صالحة للحياة منذ عقود. ومن عدن، لا يعرف الأهالي إلى أين ينزحون فليس هناك من مفر إلا عن طريق البحر حيث غرق أكثر من ٣٠ عدنياً في قوارب الصيد المتجهة إلى جيبوتي.

أي دمار هذا؟ أي جريمة اقترفوها في حقنا؟ أي سيناريو أكثر بشاعة في انتظارنا؟ دوامة النزوح تتسع. اللاجئين الأفارقة والسيوريون والفلسطينيون ينزحون هم أيضاً من اليمن. نزحت جارتنا السورية، حملت حقائبها ورحلت إلى جيزان، ومنها إلى الأردن. نزح أصدقائي من بيوتهم تاركين كل شيء خلفهم، الذكريات ووهم الأمان. نزح كثير من اليمنيين من بيوتهم ومن ألفتهم، وبقي الوطن اليمني مقبرة متجددة لأبنائه الطيبين من مات منهم ومن ينتظر.

يحبس في عمق الزجاجة، فلا أحد يريد سماع الصوت الصارخ بالبرية معزياً زيفهم وقناعاتهم المدمرة.

لا ماء لا كهرباء. نضبت كل مقومات الحياة كما نضبت حياتنا، لا ديزل أو بترول أيضاً لنفكر بالنزوح، لا مواد غذائية كافية لجموع المذعورين من الجوع الذي بدأ ينهش بطون أبنائنا. لا حياة آدمية في اليمن، فقط القتل والقتل الآخر، الذعر والكراهية والفرع. أنت وأنا وهي وكل اليمنيين في عين عاصفة لا ترى ولا ترحم، في عين حقد جماعات لا تعرف سوى الموت والدم. الكهرباء مطفأة في اليمن منذ أسابيع. أنا وملايين اليمنيين مقطوعون عن العالم في جزيرة مظلمة، أحمل اللايتوب وأنزله إلى البقالة ليُشحن، ثم أعود وأبدأ بالكتابة، أمرن نفسي على اعتياد فكرة الحرب والتعايش مع يومياتها. لكن كيف أستطيع الكتابة عن الحرب الداخلية والعدوان، يوميات قتل اليمنيين على يد الحوثيين وصالح وقوات التحالف، يوميات الجوع والفرع والخوف والكراهية، دون أن أغرق في الكآبة والبكاء؟ كيف أنفذ بحياد مسالم إلى عين القناص الذي قتل الدكتور نيفين جمال وهيفاء زوقري وصابرين ورفيقي عبدالحليم الأصبحي؟ كيف أنفذ إلى اللحظة الأخيرة في عيون الضحايا الذين باغتهم سقوط الأسقف على رؤوسهم، حينما قصفت قوات التحالف فج عطان، ولم يهل الأبناء حتى لوداع أبيهم.

أنفذ إلى قعر نفسي ولا أجد غير الظلمة، أرفع رأسي ومشاهد القتلى والدماء في كل بيت عدني وتعزني تسقطني في الكآبة مجدداً، لكنك أحياناً تحتاج إلى أن تواجه طرق الموت المحتملة وتخرج إلى الشارع لترى ما تبقى من الخرائب والموت في طرقات المدينة المهجورة وأطلال ذكرياتك مع الأصدقاء في مقهى «كوفي كورنر» وشارع حدة بصنعاء. خرجت أنا ووزجي وقررنا المشي لقياس فداحة الضرر في حركة الحياة، أربعنا هول ما خلقت الحرب، الشوارع خالية، المحال مغلقة، مئات من السيارات في طابور أمام محطة سبأ للمشتقات النفطية. ذكرنا حين بدأت الانفجارات من جديد، أتجهنا إلى سوق «ضمران». فجأة سقط صاروخ على معسكر قريب من السوق، هلع الأهالي وخرجوا راكضين، تركوا ما اشتروه ولاذوا بالفرار، في حين كانت الحرائق تشتعل وتغطي عشرات البيوت، أصوات سيارات الإسعاف تهرول إلى موقع الانفجار، نتجه إلى موقع الانفجار، لكننا لا نستطيع الاقتراب أكثر، مازالت الحرائق مشتعلة، وأعمدة الدخان

عدن، مدينة مفتوحة على الألم

جمال جبران

صحافي وكاتب،
اليمن.

تليق بالكائنات الأنثوية، ويأتي هذا التشبيه من باب الانتقاص بحسب منطق الشمال وثقافة نسبة كبيرة من أهله. بالمقابل يرى أهل عدن لهجة الكائنات القادمة من الشمال لهجة قاسية جلفة تشبه سلوك الشماليين وتشبه قسوة الجبال الوعرة التي تحيط بهم. وهم يقولون «كائنات» فعلاً عندما يصفون الشماليين ويقصدونها، ويأتي هذا من باب الانتقاص أيضاً.

هل هو احتلال؟

على هذا تبدو العلاقة بينهما كما لو أنها قائمة بين طرفين: مُحْتَل وآخر واقع تحت الاحتلال. صيغة التعامل هذه كانت قد طلعت إثر نجاح قوات علي عبد الله صالح في اجتياح الجنوب وهزيمة معسكر الحزب الاشتراكي اليمني في صيف العام ١٩٩٤، لكنّها كانت صيغة خافتة لا يقوى الناس على إظهارها علانية في خطابهم العام. سيطرة صالح على الوضع وقتها كانت واضحة وبقوة مع امتلاك أنصاره لقدرة الفتك بأي صوت نافر ومختلف. على هذا كان يتم إقصاء العدنيين من وظائفهم وإبعاد القادة العسكريين الجنوبيين من مواقعهم الهامة. لكن ومع مرور ذلك الإقصاء في تطرفه وجبروته لم يعد أهل عدن قادرين على كتمان غضبهم الداخلي ليصبح منطوقاً في الشارع ومتشكلاً في بداية العام ١٩٩٧ على هيئة جماعة المبعدين قسرياً عن أعمالهم، وهي الجماعة التي بدأت مشوارها النضالي السلمي وانتهى لصيغة «الحراك الجنوبي» وهو ما جعل عدداً من المتابعين والباحثين العرب يؤكدون أن تلك الجماعة ونشاطها السلمي كانا البذرة الأولى لما تمت تسميته لاحقاً «الربيع العربي».

المُدن لا تكره أحداً لكنّ أهلها يفعلون ذلك. المُدن من أسمنت وتراب لكنّ أهلها من لحم ودم ولا يغفرون الظلم الذي تعرّضت له حياتهم ولا القهر الذي أصابها خصوصاً من فئة جيل الشباب الذين خرجوا إلى الدنيا ولم يروا فيها سوى نظام علي عبد الله صالح وبشاعته التي نجحت في جعل صورة الشمال مرسومة على شكلها في ذاكرة الشباب العدني.

في كل مرة تأتي إلى عدن نرى وقد ارتفعت نسبة الكراهية في قلوب الناس وصارت نظرات العدائية لكل قادم من الشمال واضحة في العيون ولا يمكن إغفالها. لم يعد ممكناً الذهاب في حديث مجاني حول عدن، المدينة المفتوحة المنفتحة والتي لا ترفض أحداً من القادمين. لقد صار هذا الحديث من الماضي وصار في الأرشيف. صار من الذكرى والكلام الذي لا يودّ العدنيون الذهاب لاسترجاعه ولو حتى من باب التباهي بتاريخ مدينة من محبةً وباسمين كانت قد فتحت قلبها للعالم.

أجد نفسي هنا واقفاً في خانة النصيب الجيد بفضل لون بشرتي السمراء التي أمتلكها. لا يجد أهل عدن إشكالية في التعامل مع أصحاب الوجوه التي تشبه وجوههم. كما أن لهجتي بيضاء وأقدر بسهولة الدخول في حوار سهل مع بائع سمك يقع محلّه على الساحل الذهبي دون شعوره أنه يرتكب ذنب الدخول في حديث مع واحد من الأعداء. هكذا صارت النظرة الطالعة من عيون الناس باتجاه الكائنات القادمة من الشمال. يعرفونهم بسهولة عبر لون بشرتهم الواضحة ولهجتهم الضاربة في قسوتها مقارنة بخفة اللهجة العدنية واقترباها من مستوى تجميع الحروف المنطوقة على الألسن. لهذا السبب يعتبرها أهل الشمال لهجة



هكذا تطورت لهجة الخطاب العدنية لتصبح أكثر وضوحاً تجاه كل شمالي وصارت مفردات الاحتلال حاضرة في كثير من المقالات الصحافية، وخصوصاً في الجرائد التي تحمل هوية عدنية وأبرزها «الأيام» التي اضطرت نظام صالح لإثارة الغبار حولها واختراع قضايا أدت في نهاية الأمر إلى إغلاقها. لقد أزعجته نبرة خطابها القائم على واقع الحال العدني الذي يشير بوقوع المدينة تحت احتلال شمالي صريح في حين لم يتوقف صالح نفسه عن سياسته في تكريس طريقة تعامله معهم والإصرار على ذلك بغناء منقطع النظر، أو أنه لم يعتقد إطلاقاً أن لذلك الصبر العدني نهاية وأن لأهل المدينة طاقة على التحمل وقد بدأت في النفاد.

عداوة اللهجات

«برّع برّع يا استعمار. برّع برّع من أرض الأحرار». هذه أغنية ذاع صيتها في أيام الاحتلال البريطاني للجنوب اليمني وهي للمطرب العدني محمد عطروروش. لكنّها مع ازدياد غطرسة صالح صارت أغنية تقال في اتجاه الكائنات القادمة من الشمال. لقد صارت لهجة الناس واضحة ولم يعد هناك من مجال لمواربة أيّ شيء تحت مبرر ضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية، وهو المبرر الذي رأى كثير منهم أنه لم يعد مملوكاً لأيّ منطق وهم يرون إلى رأس النظام (الشمالي) وهو يذهب في إهانة أيّ شيء له علاقة بالوحدة الوطنية التي سعى عبر سياسته العملية على الأرض إلى تفكيكها. لكنّ ما ذنب أهل الشمال في أن تنتقل الإهانات إليهم!

الناطقون بلهجة الطرد هذه والمُحفزة على إطلاق هوية عدنية صرفة لها أن تنفي أي هويات يمنية أخرى، لا يضعون اعتبارات لأيّ مكونات أو ظروف حالية قد جاءت نتيجة لحالات النسب والمصاهرة التي جمعت بين أعداد كبيرة من الجهتين وتكوّنت بسببها عائلات صار أفرادها يقيمون على جغرافيا مقسومة بين الجهتين. لن نقول هنا بتلك العلاقات القديمة التي كانت مثلاً طوال الخمسين سنة الأخيرة أو ما قبل ذلك. لا ينتبه هؤلاء الناطقون بلهجة الطرد تلك إلى حجم التمزق الذي يمكن حصوله في قلب النسيج الاجتماعي المتراكم خلال تلك السنوات والتبعات المؤلمة التي ستصيب الجميع دون استثناء.



«الرؤية داخل

الفوهة» من

ذكريات الإستعمار

البريطاني في عدن

في الجزيرة العربية،

إف.إم هنتر، ١٨٧٧



جيل الوحدة

لكن وحتى نكون قادرين على الإمساك بضرورة الإنصاف ورؤية الصورة من جانبها المقابل، يمكننا القول بحق تلك الجماعات من أهل عدن وهم يفعلون سلوكهم بالنظر للأسباب التي دفعتهم إلى ذلك وإظهار تلك اللهجة العدائية ضد كل شيء وكل فرد قادم من الشمال. فهذا الجيل الذي طلع إلى الحياة بعد إعلان إعادة الوحدة اليمنية في العام ١٩٩٠، وهو الجيل الذي شكّل غالبية من يخرج للتظاهر اليوم ويحتشد في شوارع وساحات عدن (ويقاوم الآن جماعة الحوثي والجيش الموالي للرئيس السابق صالح بالسلاح)، هو الجيل الذي عاش حياة سيئة وقاسية من كل نواحيها واتجاهاتها ويؤمن تماماً أن نظام علي صالح هو سبب كل الخراب الحاصل وفاعله الوحيد.

أنا الصومالي

كنتُ بداخل حافلة نقل عامة وفي حالة من التفكير بشأن الفكرة التي سأنهي بها ورقتي هذه وأنا في طريقي إلى مقر جريدة «الثوري» الناطقة بلسان الحزب الاشتراكي اليمني بصنعاء، وهي الجريدة التي أعمل فيها. لكنّ انتباهي تشتت ناحية صوت خارج من قلب الحافلة وهو يصرخ أنّ جماعات صومالية تقاتل إلى جانب الدواعش في مدينتي حضرموت وعدن. كان الرجل، عندما التفتّ باتجاهه يحمل سلاحاً ويبدو عليه عناء من عاد لثوّه من أرض معركة. وهو ما جاء على لسانه لاحقاً. سألته عن كيفية تأكده من وجود جماعات صومالية تقاتل هناك لأن في هذا الأمر مصدر خطر على حياة العُمّال الصوماليين هنا في صنعاء، وقد يعتدي عليهم أي مستمع لكلامه. لم يجبني المسلّح بكلام بل أمرني بالنزول بلهجة عنيفة وهو يتحسس الكلاشنكوف الذي يحمله. قلت له: أتريد قتلي! قال: وأقتل عشرة صوماليين مثلك. لم أتجاوب معه واكتفيت بالصمت محاولاً تجنّبه قدر الإمكان وحتى وصولي إلى هدفي.

يمكن الحديث من هذا الموقف عن القوة التي لا يزال صالح يمتلكها في يده ويقدر على تحريكها بعيداً عن دائرة السلطة الانتقالية الشرعية. يضاف إلى هؤلاء قوة جماعة الحوثي التي صارت تحارب اليوم مع صالح في الجنوب باسم تحريره من الدواعش والقاعدة. يمكنني شخصياً أن أصدّق أي كلام أو طرح يقال عن اللهجات العدائية الموجهة اليوم ناحية القادمين إليها من الشمال، لكنّ يستحيل عليّ تصديق أن عدن صارت مدينة محتلة من قبل تكفيريين ودواعش ولا بد من الذهاب لمحاربتهم. خلال اليومين الماضيين ومع بداية عدوان التحالف السعودي العربي على اليمن واصلت قوّات صالح وجماعة الحوثي معاركها في عدن، وتشبي الصور التي تصلنا من هناك بكارثة حقيقية على وشك الاكتمال قريباً وفي مختلف نواحي الحياة هناك. لم يكن غريباً والحال هذه أن تجد «عاصفة الحزم» السعودية جماعات جنوبية تؤيدها، وهي لا ترى غيرها وسيلة للتخلّص من اجتياح الحوثي وصالح وقد قام بإعادة تقليب أوراق التاريخ القريبة ليفتحها مجدداً على أوجاع حرب صيف ١٩٩٤ وما تلاها، وما هي اليوم ترى إعادة لأحداثها من جديد.

لقد جاء جرح إضافي ليضع نفسه بداخل خزانة الألم الجنوبية والتي يبدو أنها لن تغلق أبداً.

يمكنني شخصياً أن أصدّق أي كلام أو طرح يقال عن اللهجات العدائية الموجهة اليوم ناحية القادمين إليها من الشمال، لكن يستحيل عليّ تصديق أن عدن صارت مدينة محتلة من قبل تكفيريين ودواعش ولا بد من الذهاب لمحاربتهم.

ولعل هذا قد يذهب بنا إلى مفارقة مثيرة للاستغراب ونحن نقوم باستعادة جملة الخطابات السياسية المنفلتة وغير المنطقية من جهة الرئيس السابق، وكان يقولها بمناسبة وبدونها، وملاحظة حرصه الدائم على تكرار عبارة لم تكن تغيب عن لسانه وهو يقوم بتوجيهها بعد حرب ١٩٩٤ ضد «أعداء الوحدة» الذين يرتدون نظارات سوداء تمنعهم من رؤية المنجزات التي صنعها لليمن. وكان صالح يؤكد أن «جيل الوحدة» هو من سيدافع عن هذه الوحدة وكان يقصد بعبارته الشباب الذين خرجوا إلى الحياة من بعد العام ١٩٩٠. وتكمن المفارقة هنا في أن هذا الجيل هو نفسه من خرج إلى الساحات منتفضاً على نظام صالح نفسه وشارك في إزاحته عن كرسي السلطة ولو بشكل ظاهر، على اعتبار أن هذا الرئيس السابق قدر خلال فترة حكمه على ربط كل شيء في البلد بشخصه وبأدواته التي لم يقدر أحد على تفكيكها من بعده.

من صعدته إلى عدن هاوية الزمن التي لم تدرم

ميساء شجاع الدين

كاتبة وباحثة يمنية.

منتدى الشباب المؤمن التي تأسست عام ١٩٩٠ في رد فعل على التمدد السلفي الآتي من المهاجرين العائدين من السعودية وتأسيس دار الحديث السلفي في قرية دماج بصعده لعام ١٩٧٩.

تحوّلت الفكرة من مجرد محاولة لتدريس مناهج تبسيطية للمذهب الزيدي إلى نشوء جماعة ذات طابع سياسي بسبب الطموح الشخصي لحسين الحوثي ابن العلامة الزيدي المتشدد بدر الدين الحوثي، الذي كان يمنح اعتماده لمناهج منتميات الشباب المؤمن. كان حسين الحوثي قد زار إيران في ثمانينيات القرن الماضي، ثم السودان، ليعود إلى اليمن عام ١٩٩٣ متأثراً بشعارات الثورة الإيرانية وأدبياتها السياسية، وكان يمتلك شخصية كاريزمية مؤثرة وقدرة خطابية متميزة.

بدأ حسين الحوثي بإلقاء خطبه في المساجد، وهي خطب سياسية عن المسلمين الذين تشتتوا وتدهور بهم الحال حتى أصبحوا عرضةً للعدوان الأميركي - الإسرائيلي. تتسم هذه الخطب بالطابع العاطفي وتصوّراتها السياسية السطحية والساذجة، حيث تدعو إلى العودة للماضي وترفض جميع المفاهيم الحديثة بحجة أنها دسائس غربية لافساد المسلمين، مثل الديمقراطية القائمة على فكرة المواطنة التي تساوي بين المسلم واليهودي وقد تدفع بيهودي لسدة الحكم، أو الهجوم على فكرة الهوية الوطنية التي تتباهى بتاريخ ما قبل الإسلام.

اتخذت الجماعة الطابع العسكري عندما انطلقت أولى جولات حروب صعده في حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٤، إثر محاولة قوات الأمن اليمنية إلقاء القبض على حسين الحوثي بحجة قيادة تنظيم مسلح متمرّد على الدولة. أدّت محاولة القبض هذه إلى اشتباكات في

الاشتباكات العسكرية التي شهدتها مدينة عدن بين الحوثيين وقوات صالح من جهة والسكان المحليين من جهة أخرى، وهم ما باتوا يُعرفون بالمقاومة الشعبية المكوّنة من لجان شعبية شكلها الرئيس عبد ربه منصور هادي وسلفيين وإخوان وكذلك شباب عاديين، بينما يقع الحراك الجنوبي في وسط هذا كله، هذه الاشتباكات هي حصيلة إخفاقات سياسية طويلة وشقاق اجتماعي كبير يتعمّق. فطريق المهاجرين القادمين من أقصى شمال اليمن إلى عدن لم تكن مجرد رحلة طويلة جغرافياً فقط، بل طويلة زمنياً أيضاً من القرن السابع الميلادي إلى القرن الحادي والعشرين، من صعده أيقونة العزلة اليمنية إلى عدن أيقونة الحداثة اليمنية. وبين كلتا النقطتين تدفقت الكثير من المياه واندلعت صراعات طويلة توارى فيها مشروع تحديث الدولة اليمنية لصالح جماعات التطرف الديني.

صعده مركز الإمامة

صعده هي معقل الزيدية ومركز الإمامة لمدة تزيد عن ألف عام منذ سكنها الإمام الهادي يحيى بن الحسين عام ٨٩٦. عندما انتهت الحرب الأهلية بعد إعلان النظام الجمهوري وإسقاط الإمامة في العام ١٩٦٩ تم تسليم صعده للنظام الجمهوري الوليد في العام ١٩٦٢ الذي لم يتدخل فيها بتعيين محافظ حتى العام ١٩٧٩ عندما كسر حاجز العزلة ومُدت أول طريق مُسفلّنة بين صعده النائية، والمحاذية للسعودية، والعاصمة صنعاء.

اعتاد اليمنيون تسمية الحوثيين بأهل الكهف في كناية ذات دلالة كثيفة على طبيعة الجماعة وكيفية نشوئها، فمن رحم صعده وجبالها مران وضحيان التي تعد أكثر معاقل الزيدية تشدداً وعزلة ظهرت جماعة الحوثي. ظهرت كحركة إحيائية للمذهب الزيدي مثلة بمخيمات

وبسبب من إرث عزلة طويل ارتبط بالإمامة، انحصر المذهب الزيدي في أقصى شمال اليمن حيث الجبال الجرداء، فقيرة الموارد، الأمر الذي أكسب قبائل هذه المناطق باعاً قتالياً طويلاً، يتغذى بمبدأ «الخروج» المتضمن في المذهب، ولذا ارتبطت الزيدية بالقبائل وبالمناطق الجبلية الفقيرة حيث البيئة تناسب مزاجها القتالي.

والحقيقة أن محاولات تأسيس دولة إمامة زيدية في اليمن مرتبطة بمراحل الفوضى في العصور الوسطى، ثم صارت مرتبطة بمراحل الركود والعزلة بعد نجاح اليمنيين في مقدمتهم القبائل الزيدية، في طرد العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥، ومع تغير خطوط الملاحاة العالمية بسبب اكتشاف رأس الرجاء الصالح دخل اليمن والمنطقة في مرحلة عزلة وركود فقدت فيها المنطقة موقعها التجاري الحيوي.

كذلك لم تنجح دولة الإمامة في تأسيس جيش نظامي طوال فترات حكمها المتقطعة منذ القرن السابع عشر الميلادي، بسبب نظرية الخروج التي دفعت الإمام إلى الاعتماد على القبائل الزيدية في قمع ثورات التمرد ضدها سواء من مناطق اليمن الشافعية أو الزيدية، وهؤلاء من يسمون بعكفة الإمام.

عدن أيقونة التنوع

في أقصى الجنوب البعيد عن جبال صعده النائية تقع عدن، حيث إحدى أكبر حواضر اليمن وأكثرها تنوعاً. عدن التي كانت حاضرة آخر الدول اليمنية قبل العثمانيين، الدولة الطاهرية، وتراجع حضورها كثيراً كميناء يعني مهم منذ ذلك الحين، فحتى تصدير البن كان يجري عن طريق ميناء المخا في الشمال لأنه أقرب إلى مناطق زراعتها.

هكذا احتل البريطانيون عدن العام ١٨٣٩ وعدد سكانها بضعة مئات لا أكثر. وكانت عدن في البداية تتبع إدارة المستعمرات في بومباي بالهند، الأمر الذي يفسر تواجد الكثيرين من ذوي الأصول الهندية يعملون في مناصب إدارية وأمنية داخل المدينة، لكن عدن صهرتهم كما صهرت غيرهم من المكونات العرقية القادمة من خارج اليمن، ومن هؤلاء أبناء القرن الإفريقي وشرق آسيا مع غيرهم من القادمين من داخل اليمن، تحديداً من مدينة تعز بوسط اليمن، حيث كان يحظر دخول مدينة عدن على سكان محيطها البدوي - بالأخص محافظة إب الواقعة شرقي عدن.

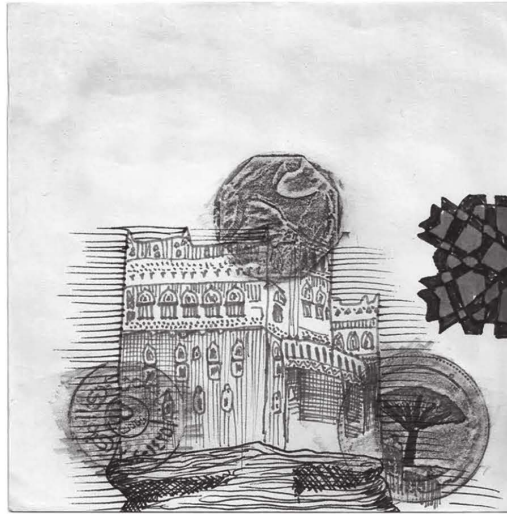
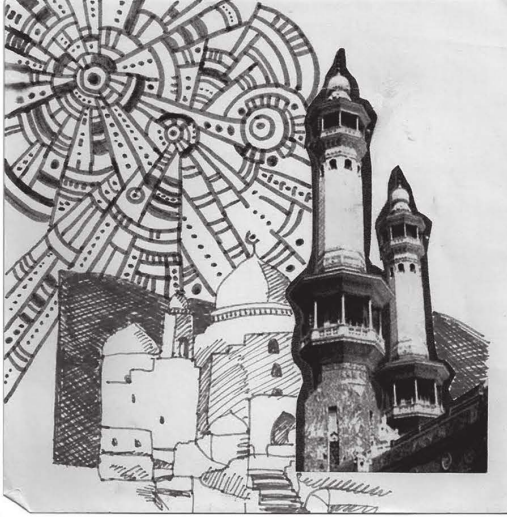
منطقة ذات طابع قبلي - ديني محافظ وبعيدة عن سيطرة الحكومة المركزية، وانتهت الجولة الأولى من القتال في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤ بقتل حسين الحوثي.

استؤنفت جولات القتال سريعاً في آذار/مارس ٢٠٠٥، وبدءاً من الجولة الثالثة من القتال، في شباط/فبراير ٢٠٠٦، تولّى عبد الملك الحوثي قيادة المجموعة، وهو الأخ الأصغر، من غير الأشقاء، لحسين الحوثي. لا يمكن معرفة كيف وقع الاختيار عليه أو لماذا، لكن الواضح أن طبيعة الصراع العسكرية كانت مناسبة للشباب الذي كان في أواخر العشرينيات من العمر حينها، ولم يسبق له الخروج من صعده، وكل حصيلته من التعليم بعض التعليم الديني الذي تلقاه عن والده، بعكس أخيه الذي سبق له السفر والعمل السياسي وتلقى التعليم الحديث. هذا الانتقال من حالة مذهبية إلى حالة سياسية ثم عسكرية، متسق مع المذهب الزيدي، فما يميزه عن باقي المذاهب - والسنية تحديداً - تشريعه للخروج عن الحاكم الظالم، ونصه صريح على مسألة الإمامة وشروطها، لذا كان من البديهي أن تتطور الزيدية، وبالتالي الحوثية، إلى مرحلة التمرد العسكري على الدولة.

حالة العزلة

ليست العزلة التي تمثلها الجماعة عزلة مكانية فقط، بل هي زمنية أيضاً، حيث تنتمي أفكار الجماعة وقياداتها إلى زمن مضى، وهذا يتبدى واضحاً من محاضرات حسين الحوثي التي تنبئ فكرة الإمامة المحصورة بيني هاشم ضمن فكرة الخروج على الحاكم الظالم، ويستمد حينها الإمام شرعيته من التمكن الإلهي أي من خلال انتصار الإمام على الحاكم الظالم.

وقد عانى المذهب الزيدي حالة جمود طويلة ولم يعرف محاولات تجديد تذكر منذ عشرات السنين. وبقيام النظام الجمهوري، أصبحت أفكار المذهب السياسية لا تتناسب مع الزمن. لذا سرعان ما تحولت عملية إحياء المذهب إلى حركة سياسية وعسكرية متمردة على النظام. إذا، هي ليست عملية إحيائية نابعة من تطور ثقافي وديني داخل المذهب، فهذا في الغالب يعكس تطوراً سياسياً واجتماعياً لم تشهده اليمن، بدليل أن العلماء الزيديين الذين أشرفوا على هذه المعاهد كانوا ضمن الأكثر تشدداً مثل الشيخ بدر الدين الحوثي، ويميلون إلى تيار الجارودية داخل المذهب الزيدي الذي يتجه لتكفير المخالفين عموماً.



زادت أهمية عدن بعد افتتاح قناة السويس، ثم صارت تابعة للتاج الملكي في لندن مباشرة عام ١٩٣٢، ومنذ ذلك الحين ازدهرت المدينة اقتصادياً وانتعش ميناؤها وشهدت حراكاً ثقافياً ونقائياً عمالياً كبيراً. كانت عدن بمثابة نافذة على العالم بالنسبة إلى اليمن المعزول شمالاً تحت نظام الإمامة أو جنوباً في محمياته من سلطنات ومشيخات وإمارات. بل إنَّ عدن بموقعها في أقصى جنوب الجزيرة العربية التي لم تتعرض للحدثة الآتية مع الاستعمار الغربي كانت تمثل حالة مختلفة وبالتالي شهدت ظهور أولى المسارح والنقابات والنوادي الرياضية والصحف.

طبيعة تكوين مدينة عدن كهجين من أجناس مختلفة تجمعهم مصالح اقتصادية في منطقة تدار بشكل حديث تحت مظلة القانون الحديث لا القبيلة أو العرف، جعلت من مجتمعها حالة يمنية استثنائية بطبيعة تكوينه الحديثة والمتخلفة من الأطر التقليدية التي تحكم المجتمع اليمني بكل أطيافه ومناطقه.

لم يكن من المستغرب أن تكون مدينة عدن هي الأكثر تطلعاً وحماسة إلى كل النشاط السياسي والاجتماعي الذي شهده اليمن منتصف القرن الماضي للتخلص من الإمامة في الشمال والاستعمار في الجنوب، وشهدت كل التيارات السياسية حضوراً ونشاطاً في عدن من خلال وسائلها الإعلامية ومقاهيها، وكانت المدينة التي تشكل فيها الحراك الوطني باليمن متمحوراً حول قضايا أساسية مثل التحرر من الاستعمار والتخلص من الإمامة وتحقيق الوحدة اليمنية، مستندين إلى إحياء مفاهيم الهوية الوطنية التاريخية اليمنية.

أزمة المدينة اليمنية

طبيعة الكفاح المسلح في الجنوب لمدة أربعة أعوام قبل انسحاب البريطانيين في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧م، وكذلك الحرب الأهلية لمدة سبع سنوات في الشمال بعد الثورة عام ١٩٦٢م، أدت إلى صعود النخبة ذات الخلفية القبلية المسلحة القادمة من الريف. كل شطر من اليمن واجه مشاكله الخاصة. ففي الجنوب، إضافة إلى إرث التخلف في المحميات كان هناك إرث الانقسام الذي تعمق بسبب السياسة البريطانية الحريصة على التلاعب بهذه الورقة حتى بلغ عدد مشيخات الجنوب إلى ٢٣ مشيخة وسلطنتين بحضرموت.

ورثت دولة الجنوب مؤسسات دولة حديثة من الاستعمار البريطاني، وتبنت التوجه اليساري منذ عام ١٩٦٩ بعد عامين من جلاء البريطانيين، لكن إرث الانقسام التاريخي وطبيعة تخلف المكونات الاجتماعية مضافة إلي أخطاء تجربة تطبيق الاشتراكية ومشاكلها، وخصوصاً في تبنيها منظومة أمنية قمعية، هذا كله خلق عدة صراعات في الجنوب أججتها عزلة دولة الجنوب في محيط إقليمي معاد لها، حتى تفجر الوضع كلياً في الحرب الأهلية الدامية عام ١٩٨٦.

القبضة الأمنية في الشطر الشمالي كانت أحد وطأة من مثيلتها في الجنوب. سواء بحكم تبني نظام السوق المفتوحة أو بسبب ضعف الدولة.

في المقابل، عرف الشمال تجربة حكم مختلفة وأكثر تخلفاً: نظاماً جمهورياً حليفاً للسعودية لم يرث أي شكل من أشكال الدولة الحديثة ومؤسساتها، بينما اتخذ النظام طابعاً قبيلاً متزايداً منذ أواخر السبعينيات إثر وصول الرئيس صالح، حين دخل هذا النظام في تحالف قبلي - إسلامي لمواجهة النظام الماركسي جنوبياً. رغم الحرب الأهلية التي أعقبت ثورة الشمال عام ١٩٦٢ ودامت سبع سنوات، لم تكن الانقسامات الاجتماعية بذات الحدة والتشردم التي شهدتها الجنوب. ساعد على ذلك أن القبضة الأمنية في الشطر الشمالي كانت أخف وطأة من مثيلتها في الجنوب، سواء بحكم تبني نظام السوق المفتوحة أو بسبب ضعف الدولة أو لأن الطابع القبلي أعطى النظام القدرات في خلق هامش للمناورة والتسوية مع خصومه.

في كلتا الحالتين كان تراجع مستمر لدور المراكز الحضرية لصالح النخبة الريفية بسبب الطابع العسكري للتغيرات السياسية التي شهدتها اليمن. ومع الثمانينيات بدأت موجة التدين تتصاعد في الشمال بسبب تأثير المعاهد العلمية التي انتشرت في أنحاء البلد وتبنت مناهج سلفية، أو بتأثير من المهاجرين إلى السعودية. وعرف الجنوب حالة مشابهة بعد صدمة حرب ١٩٨٦ في رد فعل على الخيبة من الحزب الاشتراكي. تلاها في التسعينيات قدوم المجاهدين الأفغان ومن ثم تلاشي الإيديولوجيات بهزيمة الحزب الاشتراكي عام ١٩٩٤،

لتهب على الجنوب موجة تبشير سلفي واسعة النطاق. زادت موجات التدين من حدة المزاج الريفي للمراكز الحضرية، خصوصاً أن البلد بدأ يتجه أكثر فأكثر نحو وحدانية السلطة المطلقة بيد علي عبدالله صالح، الأمر الذي جرف الكثير من مساحات العمل السياسي، وصار التدين فسحة للجميع على أمل الخروج من حال الاختناق السياسي والاقتصادي الذي أصاب البلد.

على هذه الخلفية الاجتماعية تصاعد الصراع السياسي على السلطة حتى وصلنا لحظة احتلت فيها قبائل وملشيات قادمة من المناطق القبلية شمال اليمن، مدينة صنعاء عاصمة الدولة اليمنية وأكبر مراكزها الحضرية على الإطلاق ومجتمعها الذي صار يشمل جميع أطراف البلد. وبعدها بقليل، ومع انتقال الرئيس هادي في شباط/فبراير ٢٠١٥ إلى عدن وتسليحه لما صار يعرف باللجان الشعبية، وهي مجاميع قبلية غير منضبطة من إيين، محافظة الرئيس هادي، استطاع هذا الأخير القضاء على الحراك الجنوبي السلمي وتمكين قبائل إيين من السيطرة على مدينة عدن.

ذروة الصدام

في عدن اليوم صدام على عدة مستويات، صدام بين إرث دولة الجنوب وإرث دولة الشمال، صدام إقليمي بالوكالة بين سلفيين وجهاديين من جهة وحوثيين من جهة أخرى، صدام بين عزلة صعدته النائية ونافذة عدن المفتوحة على العالم، صعدته القبلية، وعدن الحضرية.

وضمن هذا الصدام تيارات دينية متطرفة تتغول على أنقاض بنية قبيلة بدأت تتفكك بسبب الصراعات السياسية ورياح التحديث ونزعة الاستهلاك المادي وتلاشي إيديولوجيات لم تعد تمتلك جديداً لزمان متغير بسرعة حتى صارت الأحزاب في اليمن، بما فيها أكبر الأحزاب مثل الإصلاح والاشتراكي، عاجزة ومشلولة بسبب قياداتها المتقادمة في السن والتي تفتقد الخيال والأفق.

هذا الصراع الإقليمي الساخن يشهده اليمن لأنه أرضية خصبة للصراعات بسبب عمق الأزمات جراء تقوؤ منظومة سياسية واجتماعية قديمة دون تشكل أخرى جديدة، لا تزال كل القوى السياسية الحالية، ولاسيما ذات الطابع الديني، تفكر بمنطق إحياء الماضي وليس التطلع نحو المستقبل، هكذا صار اليمن واقعا ضمن صراعات الماضي تشق طريقاً ملتبساً لمستقبل لم تتشكل ملامحه بعد.

التنمية في دول مجلس التعاون نيوليبرالية في خدمة السلطات^١

مرزوق النصف

باحث اقتصادي،
الكويت.

الشعبي من أنظمة دول مجلس التعاون، رغم الوظيفة الأيديولوجية التي تقوم بها رؤى التنمية في إعطاء انطباع بوجود جهود جدية للإصلاح، وبالتالي سحب البساط من تحت المعارضة السياسية.

ومن المهم التأكيد أن هذا النص لا يناقش جميع الرؤى والسياسات التنموية التي أصدرتها حكومات دول مجلس التعاون تاريخياً، إنما يناقش نصوص رؤى التنمية طويلة الأمد الحالية كعينة عن سياسات التنمية في المنطقة.

نظرة عامة على رؤى التنمية في دول مجلس التعاون
يمكن تقسيم رؤى التنمية الأربع التي يتناولها هذا الملف إلى قسمين هما: الرؤى العامة والرؤى المفصلة نسبياً، وهذا تقسيم نسبي يعتمد على خصائص الرؤى التي يصار إلى تحليلها هنا، وقد لا يكون مناسباً لتصنيف كل مشاريع التنمية في العالم. أما الرؤى العامة فهي الرؤى التي تغلب عليها الأفكار المجردة مقابل قلة الأهداف المحددة بالأرقام أو التي يمكن قياسها موضوعياً بمؤشرات محددة سلفاً، وتندرج تحتها رؤيتنا قطر والبحرين. أما الرؤى المفصلة نسبياً فهي التي تحتوي على قدر أكبر من الأهداف التفصيلية أو التي يمكن قياسها موضوعياً بمؤشرات محددة سلفاً، وتشمل رؤيتي أبوظبي والكويت.

أ - رؤية قطر

عند تقديم كل رؤية بشكل عام يمكن البدء بالأقدم من حيث تاريخ الإصدار، وهي «رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠»، والتي صدرت في تموز / يوليو ٢٠٠٨ عن «الأمانة العامة للتخطيط التنموي» التابعة للحكومة القطرية، وهي

يتناول هذا المقال أربع رؤى تنموية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية كنماذج عن جهود التنمية في المنطقة، وتخص الرؤى قطر والبحرين وأبوظبي والكويت، حيث يعرض المقال للملخص لكل رؤية، يليه نقد لها في أربعة محاور هي:

١. المضمون النيوليبرالي

٢. التباين في الاهتمام بالبعد الاقتصادي - الاجتماعي

٣. المشاركة الشعبية في صياغة الرؤى وفي محتواها

٤. رؤى التنمية كمشاريع أيديولوجية

ويتضح أن رؤى التنمية الأربع المشمولة في هذا الفصل تشترك في عدة سمات، منها توقيت الإصدار ما بين تموز / يوليو ٢٠٠٨ وشباط / فبراير ٢٠١٠، والمدة الزمنية للرؤى والمنتهي إما عام ٢٠٣٠ أو عام ٢٠٣٥، كذلك تشترك الرؤى في ضعف المشاركة الشعبية الجدية في صياغتها، مع غياب التنسيق على مستوى دول مجلس التعاون في صياغة الرؤى لضمان تكامل الأهداف والمشاريع وعدم تكرارها، أما من حيث المضمون فتتفق رؤى التنمية في أن الاعتماد الاقتصادي المفرط على النفط والغاز هو الخطر الأساسي الذي يواجه اقتصادات المنطقة، كما تعي ضرورة معالجة الخلل السكاني والخلل في سوق العمل. ومن حيث الحلول، تشترك رؤى التنمية الأربع في طرح النيوليبرالية كحل، بمعنى بناء اقتصاد رأسمالي مع حد أدنى من الضوابط، على أن يُبنى هذا النظام الاقتصادي دون إصلاح سياسي جدي مرافق، حيث يغيب ذكر الديمقراطية إلا ما ندر. كما أن الجانب الاقتصادي - الاجتماعي ينال نصيباً أقل من الاهتمام الذي تحصل عليه الإصلاحات المتعلقة بالنيوليبرالية ومصالح أصحاب الأعمال، وقد يفاقم هذا التجاهل النسبي للحقوق الاقتصادية - الاجتماعية الاستياء

ب - رؤية البحرين

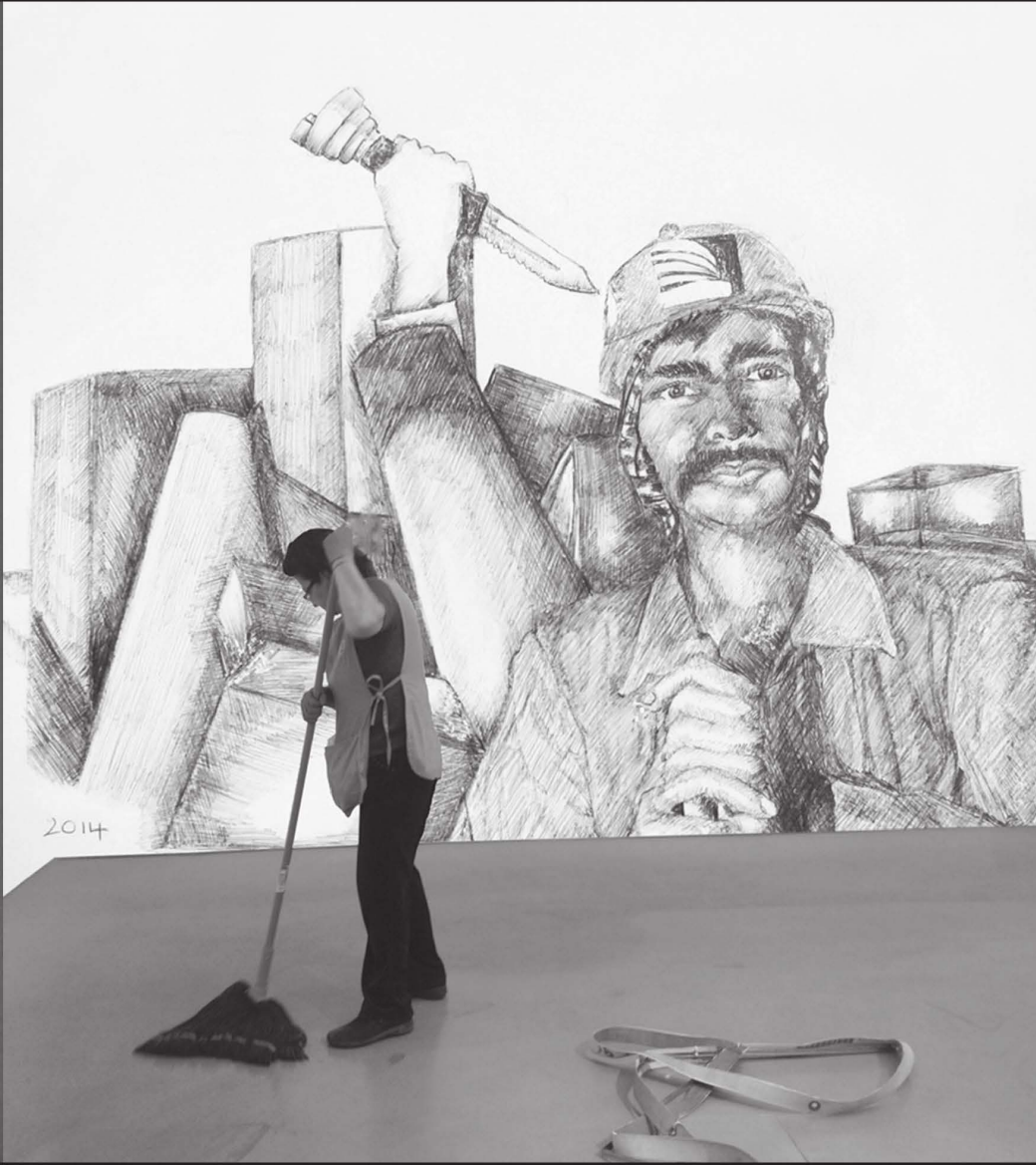
أما بالنسبة إلى ثانية الرؤى فهي رؤية البحرين، وعنوانها الرسمي «رؤيتنا: رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠»^٥، وهي ثاني أقدم الرؤى المناقشة هنا، حيث صدرت في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٨ وتعهّد بالإشراف على متابعتها «مجلس التنمية الاقتصادية» الذي يرأسه ولي العهد سلمان بن حمد آل خليفة^٦. وهي أصغر الرؤى حجماً حيث تقع في ٢٣ صفحة، «ويتمثل الهدف الرئيسي للرؤية في زيادة دخل الأسرة الحقيقي إلى أكثر من الضعف بحلول العام ٢٠٣٠»^٧، فرؤية البحرين إذن ذات هدف اقتصادي - اجتماعي هو زيادة الدخل، وهو هدف ملموس أكثر من هدف الرؤية القطرية مثلاً الذي يحوي جانباً فنياً نسبياً هو تخفيف الاعتماد الاقتصادي على النفط والغاز، ولتحقيق هدفها تقوم رؤية البحرين على ثلاثة مبادئ: أولاً الاستدامة، وتعني الابتعاد عن التنمية الاقتصادية المستندة إلى القطاع العام بزعم أنه قطاع غير مستدام، والاستعاضة عنه بالقطاع الخاص الموصوف بالمبادر والمبتكر، وللاستدامة معنى آخر هو الحفاظ على الثقافة والبيئة، أما ثاني المبادئ فهو التنافسية، ويعني زيادة القدرة على التنافس الاقتصادي مع العالم، وثالثاً يأتي مبدأ العدالة، والتي تشمل مكافحة الفساد والاحتكار، وتعزيز الشفافية، وضمان الحماية القانونية للمستهلك وصاحب العمل والمستثمر الأجنبي، والمساواة بين المواطنين، وتوفير الضمان الاجتماعي لهم.

أما أهم ما تتسم به «رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠»، فهو من حيث الشكل كونها أقصر الرؤى، ومن حيث المضمون فالرؤية تتسم بتركيزها النسبي على الجانب الاقتصادي - الاجتماعي، سواء من حيث الهدف الأساسي المتمثل بمضاعفة الدخل أو بالإشارة المتكررة إلى الحاجة لزيادة الأجور والتوظيف للمواطنين^٨. وتتسم هذه الرؤية بتحديد بعض المؤشرات لقياس النجاح في تحقيق الأهداف، وبعضها مؤشرات اقتصادية مثل نمو الناتج المحلي الإجمالي وحجم تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر، وبعضها مؤشرات عالمية مثل مؤشر مساءلة القطاع العام الصادر عن البنك الدولي^٩، لكن لا تحدد الرؤية أهدافاً رقمية يمكن قياسها، وبالتالي يصعب الحكم بدقة على مدى تحقق الرؤية في الواقع بحلول عام ٢٠٣٠، ما خلا ربما التقدم النسبي أو التراجع قياساً على الوضع في تاريخ

مختصرة نسبياً، حيث تقع في ٢٧ صفحة، والهدف الأساسي من رؤية «قطر الوطنية ٢٠٣٠» هو «تحويل قطر بحلول العام ٢٠٣٠ إلى دولة متقدمة قادرة على تحقيق التنمية المستدامة وعلى تأمين العيش الكريم لشعبها جيلاً بعد جيل»^{١٠}، فهي إذاً رؤية تركز بشكل أساسي على الاقتصاد، وعلى استدامة التنمية دون الاعتماد على مورد طبيعي، هو الغاز في حالة قطر، ولتحقيق هذا الهدف تستند الرؤية إلى أربع ركائز هي: أولاً التنمية البشرية، ويقصد بها تنمية الموارد البشرية عبر تطوير التعليم والرعاية الصحية، وثانياً التنمية الاجتماعية، ويقصد بها الرفاه الاقتصادي - الاجتماعي والاهتمام بالثقافة وتطوير العلاقات الدولية. وثالثاً الركائز التنمية الاقتصادية، ويقصد بها الإدارة السليمة للاقتصاد الكلي والإدارة السليمة لموارد النفط والغاز وتخفيف الاعتماد الاقتصادي عليهما، ورابعاً وأخيراً تأتي التنمية البيئية، ويقصد بها الاستدامة البيئية.

تستخرج من الرؤية فكرة «العدالة البيئية». وهي فكرة فلسفية تتعلق بالعدالة في توزيع المكاسب والمساوي بين الأجيال المختلفة.

ولعل أهم ما تتسم به «رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠» بالمقارنة مع رؤى التنمية الأخرى في هذا المقال هو أنها، من حيث الشكل، ثاني أقصر رؤية بعد رؤية البحرين، ومن حيث الصياغة فهي تشترك مع رؤية البحرين في كونها مشاريع عامة لا تحوي أهدافاً محددة بالأرقام أو يمكن قياسها بمؤشرات محددة سلفاً. وتتسم «رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠» بالوعي بالأعراض الجانبية السلبية التي يمكن أن تصاحب مشاريع التنمية الاقتصادية الضخمة، وتحديدًا التبعات الثقافية والاجتماعية والبيئية، وهو ما توضحه الرؤية عندما تُعَدُّ التحديات الرئيسة التي تواجه التنمية في قطر^{١١}. كذلك تتميز الرؤية باستخدام فكرة متطورة نسبياً هي فكرة «العدالة البيئية»، وهي فكرة فلسفية تتعلق بالعدالة في توزيع المكاسب والمساوي بين الأجيال المختلفة في المجتمع^{١٢}. كذلك تنفرد هذه الرؤية بكونها الوحيدة التي تشير صراحة إلى دور زوجة رئيس الدولة في توجيه التنمية، في هذه الحالة السيدة موزة المسند زوجة أمير قطر السابق حمد بن خليفة آل ثاني.



❖
تفاصيل الصور من
موقع gulflabor.org
الذي يضم أعمالاً
لفنانين عالميين
يعملون لحماية
حقوق عمال البناء
في متاحف جزيرة
السعديات في أبو
ظبي، في الإمارات
العربية المتحدة.



تتسم الرؤية بما يمكن تسميته «التنمية المتكافئة»^{١٣}، والتي تندرج تحت الأولوية الثانية من أولويات التنمية وهي توازن التنمية الإقليمية، ويمكن تعريف «التنمية المتكافئة» بأنها محاولة المساواة بين المناطق الجغرافية المختلفة من حيث مستوى التنمية للتغلب على ثنائية منطقة المركز المتقدمة ومناطق الأطراف المتخلفة والتابعة^{١٤}. وتتسم الرؤية أيضاً بتحديد لها لاقتصادات بعينها كأساس للمقارنة مع اقتصاد أبوظبي، وهي النرويج وإيرلندا ونيوزيلندا، وبدرجة أقل سنغافورة^{١٥}.

د - رؤية الكويت

رابع وآخر الرؤى المستعرضة هنا بشكل عام قبل الانتقال لبعض السمات بالتفصيل هي رؤية الكويت، والتي هي أقرب إلى الخطة الخمسية في الأساس، على خلاف الرؤى الثلاث أعلاه التي تقدم نفسها بوضوح كـ «رؤى». لكن خطة الكويت، والتي تقع في ٨٤ صفحة من إصدار «الأمانة العامة للمجلس الأعلى للتخطيط والتنمية» في شباط /فبراير ٢٠١٠، رغم ذلك تكشف في جزئها الأول عن محتوى «رؤية الدولة: الكويت ٢٠٣٥»^{١٦}. ورؤية الكويت هذه هدفها الأساسي «تحوّل الكويت إلى مركز مالي وتجاري»^{١٧}، وذلك بتحقيق ستة أهداف «استراتيجية»: أولاً زيادة الناتج المحلي الإجمالي ورفع مستوى معيشة المواطن، وثانياً جعل القطاع الخاص يقود التنمية، وثالثاً التنمية البشرية والمجتمعية، ورابعاً إصلاح التركيبة السكانية، وخامساً تحسين كفاءة الإدارة الحكومية، وسادساً تعزيز الهوية العربية والإسلامية^{١٨}.

وإذا أردنا تحديد أهم سمات رؤية الكويت، وبالتبعية خطتها، بالمقارنة مع الرؤى الثلاث الأخرى، يمكن أن نشير إلى أنها الأكثر صراحة في الدعوة إلى تعزيز الديمقراطية والمشاركة الشعبية في السياسة، حيث يدعو النص إلى «تدعيم وترسيخ النظام الديمقراطي القائم على احترام الدستور والالتزام به والعمل على تنمية وتطوير العمل السياسي»^{١٩}. وفي الوقت نفسه تدعو الرؤية بصراحة تفوق غيرها من رؤى التنمية، إلى تعزيز الهوية الإسلامية مع الإشارة للمادة الثانية من دستور الكويت، والتي تنص على أن «دين الدولة الإسلام والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع»^{٢٠}، فيما يبدو أنه تبني لمشروع إسلامي، كما تنفرد رؤية الكويت بتحديد شكل محدد مستهدف للاقتصاد، وهو اقتصاد

إصدار الرؤية عام ٢٠٠٨، كذلك تتسم رؤية البحرين بالمقارنة مع الرؤى الأربع المتناولة في هذا المقال بكونها الأقل تركيزاً على دور المرأة، فلا ترد كلمة «امرأة» أو مرادفاتهما حتى مرة واحدة في النص، وهذا ينسحب على غيرها من مكونات المجتمع المستضعفة، مثل ذوي الاحتياجات الخاصة.

ج - رؤية أبوظبي

يمكن الآن أن نتقل للقسم الثاني من الرؤى الأربع التي نتناولها في هذا البحث، وهي الرؤى المفصلة نسبياً، وتشمل رؤيتي أبوظبي والكويت، ويمكن أن نبدأ برؤية أبوظبي لأنها الأقدم من حيث تاريخ الإصدار، حيث صدرت في تشرين الثاني /نوفمبر ٢٠٠٨ بعنوان «الرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي»، وهي من إعداد ثلاث جهات مرتبطة بالحكومة هي «الأمانة العامة للمجلس التنفيذي» و«دائرة التخطيط والاقتصاد» و«مجلس أبوظبي للتطوير الاقتصادي»، والآخر يضم بالإضافة إلى ممثلي الحكومة أصحاب أعمال من داخل الإمارة وخارجها^{٢١}. وتعتبر هذه الرؤية الأطول والأكثر تفصيلاً ضمن الرؤى المتناولة في هذا البحث، حيث تقع في ١٤٢ صفحة، وهدفها العام «النجاح الاقتصادي»، الذي يستند إلى «أولويتين»: أولاً بناء اقتصاد مستدام، بمعنى التنويع الاقتصادي بعيداً عن النفط وتشجيع القطاع الخاص والاستثمار الأجنبي، وثانيتهما تنمية اقتصادية متوازنة إقليمياً واجتماعياً تعود بالفوائد على الجميع، ويرتبط الالتزام بهاتين الأولويتين على العمل المتواصل في سبعة مجالات هي:

١. بناء بيئة أعمال مفتوحة وفاعلة
٢. تبني سياسة مالية منضبطة
٣. إرساء بيئة فاعلة ومرنة للأسواق المالية والنقدية
٤. زيادة كفاءة سوق العمل
٥. تطوير البنية التحتية
٦. تطوير قوة العمل
٧. تمكين الأسواق المالية من أن تصبح الممول الرئيسي للمشاريع^{٢٢}.

وإضافة إلى اتسام «الرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي» بكونها الأطول والأكثر تفصيلاً من بين رؤى هذا البحث الأربع، فإنها على العكس من رؤية البحرين تشير لموقع المرأة في المجتمع والاقتصاد، مثل ذكر «زيادة مساهمة المرأة في قوة العمل» في موقع متقدم من الملخص التنفيذي وتكرار ذلك عدة مرات^{٢٣}، كذلك

قائم على القطاعين المالي والتجاري، على العكس مثلاً من رؤيتي البحرين وأبوظبي اللتين تتفقان مع الكويت في ضرورة الابتعاد عن الاعتماد الاقتصادي على النفط، لكنهما لا تحدان قطاعاً أو قطاعين فقط لاستبدال القطاع النفطي.

رؤية أبوظبي. تتميز بكونها تخطط لتطبيق بعض الخصائص الفنية للنموذج الليبرالي - السياسة النقدية - على إدارة التضخم النقدي فحسب وليس خفض التضخم.

وبهذا تكتمل الصورة العامة لرؤى التنمية الأربع موضوع هذا المقال، ويمكن الانتقال إلى بعض السمات المحددة للتفصيل في علاقات الرؤى ببعضها.

بعض سمات رؤى التنمية في دول مجلس التعاون أ - المضمون النيوليبرالي

ويُقصد بـ«النيوليبرالية» أو «الليبرالية الجديدة» شكلاً من أشكال الرأسمالية بدأ بالانتشار في الدول الرأسمالية ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين، وأهم صفاته الدعوة إلى الخصخصة ورفع الضوابط عن الأسواق وعن حركة رأس المال عبر الحدود، وكذلك يدعو إلى خفض الضرائب والالتزامات الاجتماعية عن رأس المال وإضعاف الاتحادات العمالية^{٢١}.

ويشكل هذا النموذج من الرأسمالية، والذي يسميه نقاده بالرأسمالية المتطرفة أو المتوحشة، أساساً للرؤية الاقتصادية في جميع الرؤى المتناولة في هذا البحث، فمثلاً تذكر رؤية البحرين، مباشرة بعد قسم «التمهيد» وقبل جدول المحتويات، أن الحكومة إنما ترسم «معالم التنمية» بينما «يتولى القطاع الخاص الرائد عجلة تنميته»^{٢٢}، وتواصل الرؤية شرح قدرات القطاع الخاص الكبيرة في تحقيق التنمية المنشودة بالقول:

«ولا شك أن أفضل الطرق نحو ضمان استدامة ازدهار اقتصادنا هي معالجة [تضخم القطاع العام]، وتطوير نوعية الوظائف والمهن ورفع مستواها في البحرين. ولن يأتي ذلك إلا عن طريق تغيير نموذج النمو الاقتصادي الحالي، وذلك بالتحوّل إلى اقتصاد يحفز القطاع الخاص المبادر»^{٢٣}.

وتدعو أيضاً رؤية البحرين إلى «فتح أسواق البحرين بشكل أوسع من أي وقت مضى»^{٢٤}، وتصريح الرؤية بموقف عام مؤيد للخصخصة «في ضوء التجربة الدولية التي تبين أن الحكومات تستطيع خفض التكاليف بشكل كبير وتحسين نوعية الخدمات الحكومية عبر الاستعانة بمصادر خارجية لتنفيذ بعض العمليات الحكومية غير الأساسية»، ومثل ذلك إشارات أخرى إلى «تقليص حجم الجهاز الحكومي ونفقاته» و«تسريع مشاركة القطاع الخاص في توفير خدمات البنية التحتية»^{٢٥}.

وتدعم الاقتباسات أعلاه الزعم بأن النيوليبرالية تشكل جزءاً مهماً من رؤى التنمية في دول مجلس التعاون، فرؤية البحرين كمثال تزخر بالدعوات إلى الإغلاء من شأن رأس المال (القطاع الخاص) في عملية التنمية، بل أن يصبح هو قائدها، وكذلك الدعوة إلى الاستعانة برأس المال الأجنبي للمشاركة في القيادة، وإضعاف القطاع العام لصالح هيمنة أكبر لرأس المال.

ويمكن إيجاد مرادفات لهذه الدعوات في رؤية أبوظبي، والتي تتميز بكونها تخطط لتطبيق بعض الخصائص الفنية للنموذج الليبرالي، مثل قصر السياسة النقدية على التركيز على إدارة التضخم النقدي فحسب وليس خفض التضخم جنباً إلى جنب مع خفض البطالة وزيادة النمو الاقتصادي، وعلى الرغم من أن استهداف السياسة النقدية لخفض التضخم ليس أمراً سيئاً أو مثيراً للجدل بحد ذاته، إلا أن القصر الكامل للسياسة النقدية على هذا الهدف مع عدم التركيز على النمو الاقتصادي والتوظيف والآثار الجانبية المحتملة للتركيز الحصري على خفض التضخم، ينحو باتجاه النيوليبرالية. ومن جانب السياسة المالية، تقول رؤية أبوظبي بتبني النيوليبرالية الداعية إلى تجنب عجز الموازنة وتجنب السياسة المالية التوسعية تماماً، وكذلك الدعوة إلى تمكين القطاع المالي من مفاصل الاقتصاد عبر الاعتماد عليه لتمويل المشروعات الكبرى في مختلف القطاعات، وأخيراً الدعوة إلى «تحسين كفاءة سوق العمل»، وهي العبارة المفضلة لدعاة النيوليبرالية في مجال الحقوق العمالية، وتعني الاعتماد ما أمكن على قوى العرض والطلب لتحديد الأجور وظروف العمل، وإزالة الضوابط المتعلقة بحقوق العمال^{٢٦}.

وتجدر الإشارة إلى أن رؤية الكويت قد تكون الأكثر تطرفاً في الدفع باتجاه الخصخصة، حيث تقول بخصخصة معظم الخدمات العامة، من البنية التحتية

الاجتماعية، خصوصاً رؤية البحرين^{٣٠}، فإنها لا تفصل في الأهداف وخطوات العمل المتعلقة بالجانب الاقتصادي - الاجتماعي بقدر ما تفصل في جانب تطبيق النيوليبرالية. فلا إشارة مثلاً على الإطلاق حتى إلى لفظة «اتحاد عمالي» أو «نقابة» في أي من الرؤى، على العكس من الإشارات المتكررة إلى «أصحاب الأعمال» و«القطاع الخاص» في متن الرؤى، فضلاً عن الغياب الملحوظ لأي برامج محددة ومفصلة لتوسعة رقعة الحقوق الاقتصادية - الاجتماعية، مثل مشاريع محددة لتطوير أنظمة التأمين الاجتماعي أو التقاعد، ويصعب تبرير هذا الاختلال في ميزان الحقوق الاقتصادية - الاجتماعية للفئات المختلفة في المجتمع. وفي هذا المقام يمكن إدراج الغياب الملحوظ للاهتمام ببعض أضعف الفئات في مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وعلى رأسهم غير المواطنين الذين يشكلون أغلبية السكان وأقفرهم بشكل عام، حيث ينالون أحياناً نصيباً من الذكر في الرؤى لكنه يبدو ذكراً رمزياً، مثلاً عند الحديث عن تطوير مهارات العمالة أو تحسين بعض الخدمات التي قد يستفيد منها السكان^{٣١}.

إن غير المواطنين في جميع الرؤى يمثلون مشكلة يجب تحجيمها، وهو ما يدفع أحياناً إلى خطوات قد تعتبر عنصرية، مثل دعوة خطة الكويت في سياق إصلاح الخدمات الصحية إلى «دراسة فصل الكويتيين عن الوافدين في المستشفيات»^{٣٢}.

هذا التجاهل لأوضاع غير المواطنين يوضح بأن رؤى التنمية الأربع لا تخص سكان الدول، إنما تخص مواطنيها وإن كانوا أقلية كما هي الحال في الدول الثلاث وإمارة أبوظبي، فهي إذن رؤى الأقلية على أساس الجنسية، كما أنها خطط فئوية بمعنى تمثيلها للنخبة في جهاز الدولة والاقتصاد من دون مشاركة الفئات الشعبية في الصياغة.

ج - المشاركة الشعبية في صياغة الرؤى وفي محتواها تفتقر جميع رؤى التنمية الأربع لدور فاعل ومركزي للشعب في صياغتها، فهي على أسوأ تقدير ثمرة عمل أجهزة فنية، سواء حكومية أو خاصة أو دولية، دون مشاركة شعبية فاعلة كما في حالة رؤية أبوظبي^{٣٣}، أو أنها جاءت بمشاركة شعبية يمكن اعتبارها رمزية كما في حالة قطر والبحرين، وفي حالة البحرين تحديداً ورغم وجود برلمان منتخب فإن النقاش العام حول

مروراً بمعظم نشاطات القطاع النفطي وحتى خصخصة المدارس والمستشفيات، إذ تدعو خطة التنمية إلى «إتاحة تنفيذ العديد من مشاريع الكهرباء والماء أمام القطاع الخاص»، و«إشراك القطاع الخاص في أنشطة قطاعي الكهرباء والماء عبر التخصيص التدريجي لمحطات إنتاج الطاقة والمياه ونقلها وتخزينها، وذلك ضمن مشروع التخصيص العام المقترح للدولة»^{٣٤}، و«مشروع التخصيص العام المقترح للدولة» هذا يشمل «التخصيص التدريجي للمدارس الحكومية»، وكذلك إنشاء جامعات مستقلة «يسهم القطاع الخاص بدور أكبر في إدارتها وتشغيلها»^{٣٥}، وفي الصحة «تخصيص إدارات بعض المستشفيات ومراكز الرعاية الصحية الأولية ضمن مشروع التخصيص العام»^{٣٦}.

رغم أن معظم الرؤى تذكر في أكثر من موضع قضايا الرفاه الاجتماعي والعدالة الاجتماعية فإنها لا تفصل في الأهداف وخطوات العمل المتعلقة بالجانب الاقتصادي الاجتماعي بقدر ما تفصل في جانب تطبيق النيوليبرالية.

ويتجاوز مشروع الخصخصة هذا حدوداً لم تستطع حتى كبرى الدول الرأسمالية تجاوزها، فلا تزال مشاريع البنية التحتية والخدمات الأساسية كالعليم والصحة مناطق بعيدة عن الخصخصة الكاملة في تلك الدول، كذلك تخضع العناصر الأخرى المكونة للنيوليبرالية، كرفع الضوابط عن الأسواق وعن حركة رأس المال، لإعادة نظر وتقييم في الدول الرأسمالية الكبرى إثر أزمة ٢٠٠٨ الاقتصادية العالمية المستمرة، وتبقى المفارقة أن جميع هذه الرؤى تتبنى منهج التخطيط والتنظيم المركزي المفصل وطويل الأمد لتحقيق التنمية، في الوقت عينه الذي تدعو إلى تقليص نهج التخطيط والتنظيم ودور الدولة في الاقتصاد، وتسعى لتطبيق النيوليبرالية المعادية للتنظيم الاقتصادي الواعي.

ب - التباين في الاهتمام بالبعد الاقتصادي - الاجتماعي والوجه الآخر لتبني النيوليبرالية من قبل رؤى التنمية هو ضعف التركيز على الحقوق الاقتصادية - الاجتماعية للسكان، فرغم أن معظم الرؤى تذكر في أكثر من موضع قضايا الرفاه الاجتماعي والعدالة

يخدم ذلك المدى الطويل لهذه الرؤى الممتد حتى عام ٢٠٣٥ في بعض الأحيان، مما يعطي الأنظمة نظرياً فسحة من ٢٢ إلى ٢٥ سنة للمناورة والدفاع عن موقعها بدعوى عدم عدالة تقييم نجاح رؤاها التنموية قبل انقضاء أجلها.

ويدعم هذه الوظيفة الأيديولوجية لرؤى التنمية الترويج الإعلامي الضخم لها قبل إصدارها وبعد الإصدار بسنوات، خصوصاً في الدولتين صاحبتَي الهامش الأكبر من الديمقراطية، أي البحرين والكويت، حيث قُدمت رؤى التنمية كمشاريع وطنية تتطلب توحيد الجبهة الداخلية ونيل المعارضة السياسية للسلطة لأن من شأن ذلك عرقلة جهود التنمية، وهو ما حدث على سبيل المثال في الكويت، حيث شاع تعبير «التأزيم» و«المؤزمين» (من كلمة «أزمة») للإشارة حصراً إلى المعارضة السياسية في البرلمان وخارجها، حيث يجري تقديم المعارضة، والتي في جزء منها تدعو إلى مكافحة الفساد وبسط حكم القانون على الجميع وتعزيز الديمقراطية والحريات. هذه الآراء تُقدّم في الإعلام الرسمي والخاص على أنها مواقف «تأزيمية» تخلق أزمات تمنع الحكومة من تحقيق التنمية في الكويت^{٣٦}.

يجري هذا التوظيف الأيديولوجي لرؤى التنمية على الرغم من أنها كما اتضح أعلاه ليست رؤى «وطنية» بالمعنى الدقيق، بمعنى التعامل على قدم المساواة مع جميع فئات المجتمع، أو حتى الانحياز للأغلبية، إنما هي رؤى مصوغة من قبل نخبة جهاز الدولة والاقتصاد، ومحتواها منحاز لرأس المال، واهتمامها ضعيف نسبياً بالمصالح الاقتصادية - الاجتماعية لأغلب السكان، بل هي تستثني أغلب السكان بتركيزها على المواطنين فقط، فهي إذا أقرب إلى كونها رؤى أقلية الأقلية وليست مشروعاً وطنياً بالمعنى الدقيق.

الخلاصة

خلاصة هذا المقال هي أن رؤى التنمية الأربع المشمولة في هذا الفصل تشترك من حيث الشكل في توقيت إصدارها، وفي ضعف المشاركة الشعبية الجدية في صياغتها وأحياناً في إقرارها، وفي ضعف التنسيق على مستوى دول مجلس التعاون في صياغة الرؤى لضمان التكامل لا التكرار، أما من حيث المضمون فإن رؤى التنمية تعي أن الخطر الاقتصادي الذي

رؤية البحرين لم يتوسع إلا بعد الإعلان رسمياً عن تبني الملك لها^{٣٧}، ولعل أفضل الحالات كانت الكويت التي أقر مجلس الأمة فيها خطة التنمية، وإن لم يكن للمجلس اليد الطولى في صياغة الخطة نفسها إنما مجرد التصديق عليها كإطار عام^{٣٨}.

يجري التوظيف الأيديولوجي لرؤى التنمية على الرغم من أنها ليست رؤى «وطنية» بمعنى التعامل على قدم المساواة مع جميع فئات المجتمع.

وينسحب ضعف المشاركة الشعبية في صياغة الرؤى إلى ضعف الدعوات إلى المشاركة السياسية بشكل عام في متن رؤى التنمية، فرغم تفصيل الرؤى نسبياً في أهمية تعزيز دور المواطنين الاقتصادي، لا تحظى الدعوة إلى تعزيز الحريات والمشاركة السياسية بالتفصيل نفسه، في ما يبدو أنه تمييز بين التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية كمشروعين ضعيفي الارتباط ببعضهما، بل إن الرؤى تبدو حريصة عند الحديث عن بعض المشاكل على تقديمها بصورة مشاكل فنية ذات حلول فنية، وليست سياسية أو عائدة لغياب الديمقراطية، فمثلاً ضعف كفاءة القطاع العام وانتشار الفساد حللها في التخصصية ورفع مهارات الموظفين، وربما تعزيز الشفافية وتشدّد الرقابة على المال العام، في تجنب حذر لأي استنتاجات ديمقراطية صريحة قد تنجم عن التفكير في هذه المشاكل ومجابهتها.

رؤى التنمية كمشاريع أيديولوجية

بالنظر للمحتوى النيوليبرالي المنحاز لمصالح رأس المال في رؤى التنمية في دول مجلس التعاون، وبالنظر بالتوازي للاهتمام الضعيف للرؤى ذاتها بالجانب الاقتصادي - الاجتماعي وبالفتات المستضعفة، مع الأخذ بعين الاعتبار ضعف المشاركة الشعبية في صياغة الرؤى والغياب شبه التام لمشاريع الإصلاح السياسي، يجمع هذه الحقائق يصبح من المقبول الزعم بأن إحدى سمات رؤى التنمية لدول مجلس التعاون هي التوظيف الأيديولوجي لخطاب التنمية في سبيل إعطاء أمل للشعوب بإمكانية الإصلاح الاقتصادي.

ينقض الاهتمام الضعيف نسبياً الذي تبديه الرؤى بالجانب الاقتصادي - الاجتماعي للتنمية، وهو ما قد يفاقم الاستياء الشعبي من الأنظمة رغم الوظيفة الأيديولوجية التي تقوم بها رؤى التنمية، ألا وهي إذكاء الأمل بالإصلاح وتهميش أية معارضة سياسية قد تظهر.

تواجهه اقتصادات مجلس التعاون هو الاعتماد الاقتصادي المفرط على النفط والغاز، وضرورة معالجة الخلل السكاني والخلل في سوق العمل، وتشترك في طرح النيوليبرالية كحل، بمعنى بناء اقتصاد رأسمالي مع حد أدنى من الضوابط، كما أن هذا الاقتصاد سيقام دون ديمقراطية جدية في السياسة، وهو ما قد

الهوامش

- ١٨ المصدر نفسه، ص ١٤-١٦.
- ١٩ المصدر نفسه، ص ١٣.
- ٢٠ دستور دولة الكويت، (الكويت: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٢)، الباب الأول، المادة الثانية.
- ٢١ ديفيد هارفي، الليبرالية الجديدة تاريخ مختصر، ترجمة مجاب الإمام (السعودية: العيبكان للنشر، ٢٠٠٨).
- ٢٢ رؤيتنا: رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠، ص ٣.
- ٢٣ المصدر نفسه، ص ٧.
- ٢٤ المصدر نفسه، ص ١٤.
- ٢٥ المصدر نفسه، ص ١٧-١٩.
- ٢٦ الرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي، ص ٥٦-٧٧، ١١٠-١١٠.
- ٢٧ الخطة الإنمائية متوسطة الأجل للسنوات ٢٠١٤/٢٠١٣-٢٠١١-٢٠١٠، ص ٤٩.
- ٢٨ المصدر نفسه، ص ٥٧-٥٨.
- ٢٩ المصدر نفسه، ص ٦٢.
- ٣٠ انظر قسم «رؤية البحرين» أعلاه.
- ٣١ انظر مثلاً رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠، ص ١٤-١٥. ورؤيتنا: رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠، ص ٢٠. والرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي، ص ٧.
- ٣٢ الخطة الإنمائية متوسطة الأجل للسنوات ٢٠١٤/٢٠١٣-٢٠١١-٢٠١٠، ص ٦٢. وانظر «الكويت: هل تؤيد فرض قيود على الخدمات الصحية للوافدين؟»، موقع بي بي سي العربية (٥ حزيران / يونيو ٢٠١٣).
- ٣٣ الرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي، ص ١.
- ٣٤ «الوفاق تلتقي مجلس التنمية الاقتصادية وتبلغه مراثياتها حول رؤية البحرين ٢٠٣٠»، موقع جمعية الوفاق الوطني الإسلامية (٢٧ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٨).
- ٣٥ «مجلس الأمة يقر سوق المال والخطة التنموية»، صحيفة الجريدة (٣ شباط / فبراير ٢٠١٠).
- ٣٦ انظر مثلاً إحدى افتتاحيات جريدة القيس الكويتية الخاصة ذات الميل الليبرالي: «هل نأمل بفسحة للتنمية؟» (٢٥ آذار / مارس ٢٠١٠).
- ١ سبق نشر هذا المقال بصياغة أولى كملف بعنوان «ملف الرؤى الاقتصادية: تقييم رؤى التنمية في دول مجلس التعاون»، في كتاب الثابت والمتحول ٢٠١٤: الخليج ما بين الشقاق المجتمعي وترابط المال والسلطة، الصادر عن مركز الخليج لسياسات التنمية في الكويت والمنشور إلكترونياً بتاريخ ١٥ حزيران / يونيو ٢٠١٤.
- ٢ الأمانة العامة للتخطيط التنموي، رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠ (قطر: الأمانة العامة للتخطيط التنموي، تموز / يوليو ٢٠٠٨)، ص ٢.
- ٣ رؤية قطر الوطنية ٢٠٣٠، ص ٣.
- ٤ المصدر نفسه، ص ٤. وللمزيد حول فكرة «العدالة البينية» انظر: Meyer, Lukas, «Intergenerational Justice». The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Spring 2010 Edition), Edward N. Zalta (ed.)
- ٥ رؤيتنا: رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠ (البحرين: تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٣).
- ٦ «العاقل: رؤية البحرين ٢٠٣٠ ملزمة لكل الدوائر»، صحيفة الوسط، العدد ٢٢٤٠ (٢٤ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٨).
- ٧ رؤيتنا: رؤية مملكة البحرين الاقتصادية حتى عام ٢٠٣٠، ص ٦.
- ٨ المصدر نفسه، ص ٢٠، ١٥، ١٤، ١١، ٦.
- ٩ المصدر نفسه، ص ١٥-١٧.
- ١٠ حكومة أبوظبي، الرؤية الاقتصادية ٢٠٣٠ لإمارة أبوظبي (الإمارات العربية المتحدة: حكومة أبوظبي، تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٨)، ص ٧-٨.
- ١١ المصدر نفسه، ص ١٧-١٩.
- ١٢ المصدر نفسه، ص ٩١، ١٨، ١٠، ٥.
- ١٣ لا تستخدم الرؤية هذا التعبير.
- ١٤ المصدر نفسه، ص ٣٨، ١٧، ٦، ٤٠.
- ١٥ المصدر نفسه، ص ٩-١٠.
- ١٦ الأمانة العامة للمجلس الأعلى للتخطيط والتنمية، الخطة الإنمائية متوسطة الأجل للسنوات ٢٠١٤/٢٠١٣-٢٠١١-٢٠١٠ (الكويت: الأمانة العامة للمجلس الأعلى للتخطيط والتنمية، شباط / فبراير ٢٠١٠)، ص ١٣-١٦.
- ١٧ المصدر نفسه، ص ١٣.

عن شياطين بريئة

زينب سرور

صحافية، لبنان.

تتجرأ قدمي على الحركة، وأنا أتجرأ على استحضاره في ذهني. رويداً رويداً يقترب مني، ويرتفع بوتيرة اقترابه صوت الترومبيت في أذني، يده اليمنى تغازل خدي الأيسر، واليسرى تكتشف أسفل ظهري، أما صوته فيرقص على أنغام الآلة. يهمس شيئاً ملائكياً في أذني، لا أعيه، ينطق شيئاً آخر، لا أفقهه، أكثر رقةً أشدّ وقعاً. يعاود الكرة مرةً ثالثة، أرعش! فرابعة، أنتفض!

الزنا أشدّ من القتل.

لماذا؟

لأنه يفكك المجتمعات.

والقتل يببدها!

جسدانا ملتصقان، لم أشهد في دنياي التصاقاً كهذا من قبل. قدمي اليمنى تعدّل وجهتها وتستقرّ على قدميه. أما يدها فتكتشفان خصلات شعري، خصلةً خصلةً وعقبه لا يرحم.

أتعلمين ما أمنيته؟

ماذا؟

أن أراك من دون غطاء للرأس.

فستانني أصبح ثقيلاً، يهوى السقوط، أحقق أمنيته، بل يحققها هو. صدري جريءٌ بعريه، لا أنقال تبعه، لا هموم تثقله. لا قوانين تحكمه، لا شرائع تقيده. خفيفٌ ثقيل مفعم بالحياة، وحتماً يريد. وكما تكمن الإثارة في التفاصيل تراها تقبع بين ثنايا اللاقانون، الفوضى المنظمة.

يتحرك إلهي في مقلتيه، والشيطان ما زال في الأسفل يختلس النظر. ينقل حبات سبخته بين يميني واليسرى. والشيطان ما زال في الأسفل يختلس النظر. يتلو تسبيحاته همساً ساحراً في أذني. والشيطان ما زال في الأسفل يختلس النظر. تتراقص حبات اللؤلؤ بين شففتين، والشيطان ما زال في الأسفل يختلس النظر. صدري ساحة

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. لم يسبق لي أن شعرتُ من قبل بهذا الكمّ الهائل من السكون، لا أصوات في الخارج، حتماً شيءٌ ذو نفحة «شيطانية» سيحدث. أجلس وحيداً على طرف سريري. تناقضاتٌ كثيرةٌ تجتاحني اللحظة، فجسدي يلامسه فستانٌ أحمر قصير. فستانٌ وقح، يكشف الكثير، يكشف ما لم أتجرأ من قبل على إبرازه. أما أظفاري فقد عرّبتها للتوّ من الطلاء الأحمر، ومع ذلك فقد أصبحت أكثر أنوثةً وجمالاً وزينةً. ما أريده الآن التمديد.

لا تخرجي من المنزل من دون ارتداء جوارب!

حاضر يا أمي.

تبدأ الحكاية كلها من الأسفل، من أصابع قدمي، من أظفارهما. يقولون هنا يستوطن الشيطان، وها أنا ألمسه. ملمسه جميل جداً، لم أكن أعلم أنّ الشيطان على هذا القدر من النعومة والإثارة. ها هي أصابع قدمي اليمنى تكتشف الهنيهة باطن خليلتها، يتسامر الشيطانان، يتهاوسان بأسرار نهار طويل، وحكايات أمكنة لم يختاراً ارتبادهما، بل سيقا نحوها سوقاً، سيقا نحو الجريمة. إذاً الشيطان بريء. أصابع قدمي تقبل بعضها، قبلات خفيفة، لذيدة، محرّمة، وعينا غارقتان في حلم جميل.

مولاي، لقد حلمت البارحة أنّ موجاً جارفاً اقتلع منزلي، وقد رافق الموج صراخٌ وعويلٌ مزعجٌ ومخيف.

أضغاث أحلام، هي من عمل الشياطين، خذي هذه الكتيبة واجعلي منها وسادتك الدائمة. لا تفتحها، أبداً، وإن شاء الله سيختفي عبث الشياطين.

الشيطان القابع في أظفاري يعبث بأحلامي، ما أخطر! قدمي اليسرى لم تعد تكفيها الخليفة. هي الآن تتسلق شيئاً فشيئاً ساقي اليسرى، أشعر بلهيب في القدم، ورغبة جارفة في الساق. صعوداً وهبوطاً

لايقاع الملذات، ومطلق لعنانها. أن أدخل الملكوت يعني أن يغيب التسلسل عن سبيل المنطق. وقبلته الأخيرة على ثديي الأيسر فقدنا آخر رفق من مادية عالمنا وبدأنا التنقل، ككيان أوحده، بين العوالم. والآن نقبع في عالم الوحدة بعد أن كنا في الكثرة منه. أما الخطيئة فغدت إلهية الصفات.

تضمحل لغة الكلام شيئاً فشيئاً بولوجنا العالم الجديد، ويختلط زمان الأفعال بعرضه ببعض بعد أن يصبح لا وجود لعين الزمان. يغيب الآن عن حدود اكتراحي كل ما له ارتباط بما دون العالم المعيش. وأنا أستحضر الكلام في ذهني الآن من دون القدرة على النطق به، أشعر بشيء مستحيل يقترب مني. يضغط الهنبة على أسفل بطني، غشاوة البصر تتزايد، الأصوات المحيطة تستحيل سكونا عذب اللحن، الهواء من حولنا بات ضئيلاً، أما الفؤاد فتسمر مكانه.

لحظتنا الحاسمة تقترب، وعلى إيقاع السكون اخترنا رقصتنا الأخيرة. يشتد سواد عالمنا الأوحده وبياضه. لكن سرعان ما يغيب من حولي وجود أي إشارة لأي ألوان محيطية. سعي جارف يجتاحنا اللحظة، مخيف هو حتى في ذرى اللذات، ونعرف الآن أننا فقدنا إدراكنا لمفهوم التحكم. أريده اللحظة في مكمني. لست أدري ما في فيه وما فيه في، ولا أعني أين نحن الآن. فكما فقدنا لمفهوم التحكم فقدنا معنى الإدراك. أنه اللحظة أناي وأناي أنه، وكلانا نذوب في شيء واحد، فعالمنا الأوحده لم يتخل عتاً بعد.

إبنة الجيران قتلها زوجها.

لماذا؟!

لم يجدها بكرة في ليلة الرّفا!

إبنة الجيران نبذها عالمها، وعالمنا الأوحده ما زال يحتويها. في عالمنا هنا لا فارق بين ذكر وأنثى، فلا وجود لذكر وأنثى. فكلانا اللحظة يعيش الدرجة عينها. الشعور نفسه، اللذة ذاتها، والعرشة نفسها. أشياء لا يحيطها الكلام ولا تدركها العقول. مجدداً، إلهية الصفات.

شيئاً فشيئاً تتلاشى الغشاوة عن عيني، ويخفت برق اللاموصوف الذي عشناه منذ لحظة. شيئاً فشيئاً أجدني أعود إلى عالم أشياء كثيرة، بعد أن كنت في آخر يحكمه الشيء الواحد. وعلى الرغم من كثرة الأشياء من حولي أشعر بالوحدة، بعد أن كنت أشعر بالاكثفاء في عالم لا أشياء كثيرة فيه.

لا تشعرني.

لم أفهم!

غير مهم، فقط لا تشعرني!

قتال فلنشهد انتصارنا معاً! والشيطان ما زال في الأسفل يختلس النظر. عندما استبدلت قبلي بعينه لم يلمني الله، فالأخير يعرف تماماً معنى أن تحب. أما الشيطان فما زال في الأسفل يختلس النظر. بدأ صوت الترومبيت بالارتفاع. أصوات أخرى تخترق المساحة. أصوات ضجيج.

لا يجوز الاستماع إلى تلك الموسيقى.

لماذا؟

لأنها محرّك للشهوات.

أرفع صوت الموسيقى، أقمصها. أمامي بشر على هيئتها، ما أجمالهم، وما أروعها! لا مكان لهم الآن في مخيلتي، وحده في هذه اللحظة، يستوطن كياني.

لم أنتبه أن العري يستوطننا هو الآخر. هنا يستعيد ذاته، يطرح العري عن نفسه جلده الكاذب، ويُعيد إلى نفسه الاعتبار. يطرد صفته المصطنعة كخارج عن الطبيعة البشرية، ويظهر على حقيقته. إلهانا لم يوقف المسامرة، أما الشيطان في الأسفل فما زال يختلس النظر.

أمي تقول أن لا شياطين في أرجل الرجال، فرمز الإثارة أقدم بنات حو، لا بني آدم. لكنها مخطئة! فهي شيطانها يطل برأسه ليسامر شيطاني. يتهامس الشيطانان. يتحابان، قدمي اليمنى تعدل وجهتها وتستقر على قدميه. أما الشيطان فلم يعد يختلس النظر فحسب، بل بات مشاركاً في ما بات غيره يختلس النظر فيه. لم تعد حواسنا الخمس تكفي، لم يعد نظري يتسع لعينه، لم يعد سمعي يعي كلماته، لم يعد ذوقي يستطيع غير جسده، لم تعد قدمي تعيان ماهية قدميه، لم تعد يداي تحيطان جسده، لم تعد أنفاسي تدرك أنفاسه. لم يعد ملمسه مادياً، استحال شيئاً آخر لست أدركه. لم تعد شفثاي تشعران بشفتيه، تحول الشعور تخديراً صعب الوصف، لم يعد صوتي مسموعاً، بات يستجدي نغماته عليها تعيني على عجز.

هنا دريت الإيمان للمرة الأولى. فقط بين يديه، من الذركات عرجت نحو الدرجات. وما بين أسفل خده والعنق انتقلت من شخ الرؤية نحو وضوحها. في تلك المساحة الضيقة وجدت إلهي اللامتناهي. كم كان لامتناهياً في كتب السيرة، محدوداً في وجداني. رغيداً في ذكر المنابر، ضيقاً في كياستي. أما اللحظة، فتتجلى حقيقته المحيئة عمداً أمامي، وأرؤني إلى أبواب الملكوت الواسعة من دون استئذان. بات العري أكثر ممّا أستطيع. عري أجساد، عري نفوس، عري حقائق، عري آلهة، عري شياطين. هنا فقط يذوب التقيض في نقيضه، فلا شرّ متربص خلف السرائر، ولا امرأة للسوء مرتبة وراء البواطن. وحده الخير ضابط

العيب

مريم حمود

ممثلة ومؤلفة
مسرحية، لبنان.

حسنًا، في الحقيقة لا أدري من أين أبدأ!
واحد، اثنان، ثلاثة.

نفس، نفس أطول، نفس، نفس أعمق. زفير.
هل أخبركم عن طفولتي؟ وهل قد يعنيكم هذا! عن
عكار العتيقة، عن رحلة تستغرق ثلاث ساعات ونصف
الساعة على الأقل كل أسبوع كي تطمئن الوالدة!
ولماذا؟
لا.

لن أتحدث عن قوتي الخارقة حين كنت في السابعة،
إذ كنت كلما ركضت أصبحت غير مرئية. وكل غصن
خوخ احتلته بات منبراً للتقديم والتحليل والتفصيل
والتنظير قبل أن يتحوّل إلى قاعدة «جونغار» (بطل
رسوم متحركة للأطفال) والقفز بصرخة واحدة مدوية.
أعترف لكم بأنني في حال من اللاوعي الآن، تماماً
كما أذكر وجهي المرتطم بالأرض بعد القفزة، وجلّ
ما يوقظني أذني اليسرى ونقيقها المتصدّع منذ ثلاثة
عقود من محاولات متعدّدة. محاولات باتت تجارب،
آخرها الكتابة الفاشلة هنا.

كانت أختي الأكبر مني بثلاثة عشر عاماً تحترف
قبادتي. تقودني في كل الاتجاهات، وكانت أذني هي
بوصلتها وغالباً ما كان اليسار وجهتها. حتى باتت
القيادة اليسارية عادة أمارسها بالسر، وأكرّرها حتى
الارتطام بالأرض والتلاشي والتناثر.

أختي أخذت على عاتقها، عفواً، بل أجبرت على أن تأخذ
على عاتقها تربيّتي، وكنت شخصية ميلانكولية، وأمي قاطفة
الزيتون ومنظفة المنازل تغادر دارها - دار القُرطاسيا والياسمين
- لتعود بلقمة عيش وهي تلطم، تلطم سرا والدي المخنفي في
بيروت، العالق في متاهة الحرب الأهلية على أحد الحواجز،
ببذلة العسكرية، يدفن الموتى، يعدّ الموتى، يعود كالموتى.

هل أخبركم عن رحلة التنظيف الذاتي؟ الحمام؟
الاستحمام؟ عن أننا كما ننتظر سخّان الماء أربع ساعات
على الأقل لنستعمل سطلًا واحداً من الماء الساخن،
ونستحم بالكيّلة في الحمام «العربي». الجورة في الأرض
التي غالباً ما نرتعب منها، «فالحاجة فطوم» التي تناوبت
على تربيّتي أيضاً كانت دائماً تقول إن يد الشيطان
ستخرج من الجورة وتسحب مؤخرتي إذا لم أقم
بالبسملة قبل زيارتي الفضيلة هذه!

ربما لأجل ذلك لطالما عشقت الحمام الإفريقي، في
منزلنا، ذا البورسلان اللامع. كان الكرسي الأزرق
عرشي الملكي، وعادتي السرية الثانية. وإذا كانت أُمّي
تمرّ بقربه وتجذني أستعمل صوتي الإذاعي، كانت تظنّ
أن الراديو ما زال شغّالاً، وأنّ لا أحد في الحمام.
أوففففففف.

استطعت أن أجهض الأكل هذه المرة بسلام.
غريبة هي فكرة أن تكون صغيراً وكل ما تريده هو
أن تكبر. أريد أن أكبر، أريد أن أغادر المكان وأعشقه،
لكنه لا يتسع لي. أن تكبر وتذكر أنّ أخاك الأكبر يحب
أختك أكثر منك. وأنّ أباك الحاجّ يفتخر برقصك، لكنّه
يلغي كلّ جبروتك تماماً عندما يشاهد أختك وفي يدها
طفلتها. أختي حققت في حياتها هدفاً أسمى مني، إذاً
ممارسة الجنس قد تجعلني أمشي على خطى السمو هذا!

سأكون سعيداً حسني

كيف لي أن أمارس الجنس بسهولة وقد ارتبط مفهوم
الشهوة والنشوة بالاستغلال والقرآن؟ لكل منّا في صغره
طريق يحبه أكثر من غيره. طريقي ترايبّي، ضيق ويطل
على واد كبير. مزار الولي: كانت متعتي أن أمشي دون
أن أهتم بأي شيء ودون أدنى خوف، والهدف الوصول

لا بدّ أن أكون جميلة! لكنني لا أملك صورة لوجهي قبل بلوغي الست سنوات. إذًا، والداي لم ينجباني بل تبنياني.

مممم...

لا. إنا أشبه عمّتي عليا كثيرًا! لماذا لا أملك صوراً لي! صورتني الوحيدة في المرأة! أجدني أتفقد صورتي طويلاً. صورتني تتحرّك مثلي. تتبختر. تتباهى، إلى أن تخطيئ القراءة الأولى لملاحني وصرت تحت الجلد. لماذا هذا الجلد؟ ماذا يوجد هنا تحته؟ ما هو اللون؟ لماذا اختار الله هذا الأنف لي وهذه العيون وشفاهي؟ ماذا لو غيّرت تركيب وجهي؟ أمسك بشفرة الحلاقة وأحاول أن أشقّ مسام الجلد، فأفاد مجدداً بيسراي وصوت أختي يعلو «يا حمارة شو عم تعملي؟».

هل أنا جميلة؟ انظري قلبي لي! نعم، ربما، ولكن هناك جميلات كثر وأجمل منك بكثير. المهم ألا تكوني رقماً مثل سائر البشر، أن تقدّمي شيئاً، أن تنتجي. عليك أن تفعل شيئاً مميزاً. مميزاً! سأزوج من غني وأنقذ عائلتي من الفقر. سأغرم بغني ومن تحصيل الحاصل أن أساعد العائلة. كلا! سأصبح مشهورة وغنية وأبحث عن زوج لي وأساعد العائلة. إذًا عليّ أن أتمزّن على التمثيل والرقص! هنا تكمن العضلة الكبرى! لا موارد.

جدتي

منذ العام ١٩٩١ وحتى العام ١٩٩٦ على الأقل، كان موعد صف الرقص كل يوم خميس تمام الساعة السابعة مع برنامج «ما يطلبه الرياضيون» على شاشة التلفزيون السوري. أنتظر الفقرة الأولى المخصصة لفئة التزلج على الجليد لألهو بفراغ المنزل من أثاثه وأطير كما يطير كل ثنائي. كان من البديهي لي أن أضع الرجل يده عليّ أرداف المرأة ويحملها من هناك. لم أفكر بالأمر كثيراً. كل هذا سأكتشفه عند الكبر. ولكن لماذا تصرّ أختي على التأكيد أنهم أشقاء! هل يستطيع أخي أن يحملني من هناك؟ يبي! ألا يكون أخي فكرة تبدو أكثر اطمئناناً بالنسبة إليّ! لا يهم. ها هي جواربي المثقوبة والمهترئة عند كل إصبع تشبه ما تلبسه الراقصات المحترفات. بلاط منزلنا يساعد على الانزلاق كجليد الروس. سأدور وأقوم بحركات أكروباكية على طرّاحة جدتي. صحيح أنها توفيت عليها، لكنها الوحيدة المتاحة لي!

إلى دكان أبو علي وفي يدي الخمسون ليرة ولائحة ثابتة محدّدة: شراء حلو الحبل وراس العبد وبطاطا جحا. وأبو علي رجل مسنّ لطالما كرهته ولطالما قرأ القرآن وكان يتحرش بي وبينات الحي - وكان يفضّلني لعينيّ العسلتين - ويواصل قراءة القرآن. عيب!

هي المرة الوحيدة التي صفعنتني فيها أمي، عندما أخبرتها عن العيب. العيب كان اسم عضوي. أخبرتها أنّ أبو علي يزور عيبي. كانت المرة الأولى التي تشدّني فيها أمي من أذني اليسرى وتردّد على مسمعي باليمنى: «لا تقولي لأبيك فهو سيقتله ويُقتل»!

أوففففف! سأحمي أبي إذًا من بندقيته وبذلته، وسأكتم الشيء. أصلاً أنا لم أفهم لماذا كل هذا الغضب! عذراً يا أبي، تأخرت في إنجاب الطفل، فقد كنت في طفولتي أحملك من غضبك فاحمني من أوهامك. ترى هل أنا بهذا الجمال ولذلك اشتعائي الآخر؟ هل أنا أجمل من أخواتي البنات ولذلك كرهني أشقائتي وبنات العم التسع! لا يهم. بقيت غالباً في المنزل وحيدة أصارع أفكارى الواحدة بعد الأخرى.

هي المرة الوحيدة التي صفعنتني فيها أمي. عندما أخبرتها عن العيب. العيب كان اسم عضوي.

أول فكرة صارعتها هي مصدري: جئت نتيجة حبّ أبي وأمي ولست من الملفوفة التي ينقرها الدجاج كلما يجوع! صارعت الحب وصرعته. لماذا تغني ماجدة الرومي وكل الكل الحب، الحب، الحب! ما هو الحب؟ من هو الحب؟ أختي! لماذا لا يغنون عن مواضيع أخرى. بعد شرحها اللطيف عن أنّ الحب قويّ ومهمّ، ويتحكم بالناس، استنتجت أنّ الحبّ شبيه ببيل كلينتون وبالولايات المتحدة الأميركية وسيطرتها علينا. جاءت قصة مونيكا لوينسكي وحطمت لعبة الشطرنج وقتلت كل فرسائي الذين ضاجعتهم بتأملي عن بُعد.

بعد استيعاب الخيبة، وجدّني في حال الاختيار الدائم. أنا مضطرة أن اختار، فאלله لن يعطيني كل شيء. إذًا عليّ أن أختار العمل والشهرة. سأكون سعاد حسني. نعم. لماذا تمثّل؟ إنها صغيرة وأنا هنا صغيرة. صغيرة على الحب؟ هل أنا جميلة؟





يبصق على القربان لا إرادياً قبل أن يناولني إياه. لن أذهب إلى الكنيسة اليوم!

هههههه!

أقسم أن أكثر من سبعة وثلاثين تلميذاً استداروا في الصف، وبصوت واحد كما لو أنهم يكبرون، صرخوا: «إنت مش مسيحية؟ كأنك واحدة منا!». ابتسمت. عندها أدركت أنني صاحبة ذوق خاص في الملابس وأنني جميلة لأنني أبدو مسيحية. ابتسمت لذلك ولمعت عينايا. نفس.

المشهد

اليوم التالي، وبعدما دللت جمالي وشغلت إمبراطورية كبيرة من الثقة والذبذبات حولي، اجتأني منظر غريب. أنا في الباص قرب حقول قمح تطفو على ماء فينعكس ذهب السنابل عليه، وتراقص حول سنديانة عتيقة واحدة، قرب دير قديم، حيث لا يسكن البشر بل الملائكة فقط.

أنظر إلى السنديانة وأرى الله فيها، وأخاف أن أفصح عن ذلك. فكيف أدفع عن نفسي تهمة أنني ممسوسة أو تراودني أفكار شيطانية!

المشهد بطيء جداً في التصوير، وكأنه فيلم مصوّر وأنا ألعب دور المخرجة والمؤلفة فيه. كل هذا يدور في رأسي الذي غادر الجسد القابع في مقدمة باص المدرسة. باص «فولفو» قديم رمادي اللون، محشو بالأطفال المكسبين فوق بعضهم ورائحة الـ«تشييس» سرعان ما تتحوّل إلى رائحة عفن.

لم أستطع أن أحدد ما إن كنت قد أحببت سائق الباص أم كرهته، لكنه كان كثير اللعاب وأسود اللثة، لا شك أنني لم أكن أستلطفه. وهو معروف بانتمائه إلى حزب البعث العراقي! عندما قتل صدام حسين، تحوّل المشهد في المدرسة إلى خصام ومبارزات زجل في صف الفلسفة. منذ ذلك الحين اتضح لي أن البشر يميلون إلى الاختيار بين الأبيض والأسود، النعم واللا، الشر والخير، بين طرف وطرف آخر.

من الطلاب من ذهب إلى الجهاد وأعاد البعث السوري، ومنهم من يحب نهج «أبو عدي» فنعتوا بالكافرين والملحدين.

لنعد إلى رأسي المنفصل عن جسدي، إلى الباص، إلى حقول القمح التي تطفو على ماء ينعكس عليه ذهب السنابل.

جدتي، حبيبتي!

أمنة حمود.

«كيكوكيك» صاح الديك.

ماتت قربي، معي، في الفراش ذاته عن عمر يناهز المئة وأربع سنوات. جدتي مسيحية، أسلم والدها فأسلمت من بعده وارتدت الحجاب.

أكثر من سبعة وثلاثين تلميذاً استداروا
في الصف. وبصوت واحد كما لو أنهم يكبرون.
صرخوا: «إنت مش مسيحية كأنك واحدة منا».

جدتي تكبر جدي بتسع سنين ولطالما اعتقدت أنها ذكية. عانت لعشرين عاماً من مرض الألزهايم، وأنا لم أعرف إليها حقيقة لولا هذا المرض. كانت تأكل الخبز بالحليب آخر تسعة أعوام من حياتها، وعانت، وعانت، فقتلتها بصلاتي وغفوت فغفت معي. غسلتها وكان عمري ١٢ عاماً. بكيت وبكيت. أسفة أنا يا جدتي لكنتي رأيت حينها للمرة الأولى جسداً عارياً. كم يشبه جسدي. بحثت عن ندييها. هل يكون الجسد بعد المئة عام هكذا؟ لا ملامح. ليست أنثى هي ولا ذكر. هي إنسان. فقط إنسان. كانت المرة الأولى التي أعطي فيها حماماً لأحد، أكفّ فيها أحدهم، أودع فيها أحدهم. لا تقلقي يا جدتي. لن أزورك في القبر. لا أعتقد أنك بحاجة لي. ولن أبكي هناك ولن تشتاقي لي. لا. أعتقد أنك ستجدين الصفاء حيث أنت، فتحياتي لك ومودتي.

لطالما سعدت أن لي جذوراً مختلفة الأديان. هاي، أنا لم آت من عائلة مثقفة، فهامة، قارئة. جئت من العدم. ولأنهم علّمونا دوماً أن المسيحيين يعرفون كيف يلبسون أفضل منّا، وأن منازلهم من الخارج أفضل من منازلنا، وشوارعهم أنظف من شوارعنا، أنا غيّرت اسمي الثاني في المدرسة الكرملية، وصرت «مريم جورج حمود» بدلاً من «مريم خضر أحمد علي حمود». لماذا جورج؟ لأن جورج هو خضر حسب النصوص المقدسة، وحسب تعريب الأسماء، مثلما صار يسوع عيسى! ييببببب.

عندما ماتت جدتي حرّمت على نفسي الذهاب إلى الكنيسة. تعبت من الكنيسة، من تناول القربان، ومن رائحة الكاهن عندما يضعه في فمي، ومن فكرة أنه

طفولية هذه الجملة!

متطفلة.

كنت كل يوم أصوّر المشهد وأتخيّل الأحداث التي تجري فيه. وفي يوم من الأيام، أثناء التصوير، شاهدت عدستي رجلاً يلبس الأسود. قميص نايلون أسود وسروالاً أسود وحزاماً يلمع، وحذاء طويلاً، وأنفاً أسود.

المواصفات تطابق صورة المخابرات السورية تماماً، إلا أنّه كان يلعب دور البطولة في الفيلم. تبا! يا للحظ العاثر! أمسك بيده هاتفاً من دون شريط. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الاختراع. يتكلم فيه فيسيل لعاب العم رشيد، سائق الفولفو الرمادي.

يظهر رجل آخر. مطابق للأول، مستنسخ عنه. هي لمعة الحزام ذاتها. هو رجل ثالث. يتكاثرون كالقنطريون في شهر شباط! ويتدفق لعاب العم رشيد!

كان الوضع مربباً. نظرت إليه فأدركت بالغ خوفه. نظر إليّ وقال: إذا لم أعد فسيعيدكم إلى البيت تمام الثانية كالمعتاد قريبي ويدعى وليد. تأكدي من عدد الأطفال ولا تنسي أحداً في المدرسة! لم أفهم كلامه، لكنّ الأسود الأخير كان واقفاً منتصف الطريق. توقفتنا. ترجّل العم. ارتطمت أسنانه بالأرض، قبضوا عليه وأوثقوه بالأصفاد وغادروا.

لم يبك أحد، لم يفهموا شيئاً، أمّا أنا فنظرت إلى السائق الجديد، أفرغت أسلحتي النووية وعينيّ المشعّتين باللايزر عليه، حتى وصلنا المدرسة. استغربت كيف يعفون مدرستنا؟

بصراحة كنت سعيدة. كانت أول مرة أتحمّل فيها مسؤولية ما! سأجلب الأطفال وأعدهم أنا وأوصلهم أنا!

قد أكون أنا الأولى في جيلي التي وصمت بالعار: نزلت إلى بيروت. وتعاطت المنكرات ورقصت في البارات ووشت على ظهرها سنبله.

اختفى سائق الباص لتسع سنوات. كنت قد تناسيته وأدركت أنني لا أحبّه، وكنت قد كبرت أصلاً. عاد إلى الضيعة وتزوج، وأنا غادرت الضيعة بدوري.

منذ ذلك الحين أدركت أنّ فكرة الانتماء فكرة ضيّقة وأنّ حدود الحياة كتلك السنابل. كرهت البعث العراقي والسوري والقومي، وتقرّبت من الشيوعيين، لأنهم يبدوون أجمل ويعرفون كيف يلبسون أحسن! إنهم يتكلمون فقط. كلهم. لا فعل. ليس الآن على الأقل، كما أعرف.

المخابرات، الخواجز، البعث!

أبي كان لديه مفهوم غريب عن «الكزدورة». تنطلق في السيارة المرسيديس الفستقية وندور، وندور وندور. نقضي حاجتنا خلف القصب على الطريق العام، أو قد نستريح هناك من كثرة الدوران، ونتابع. كنت استغرب صور مار شربل في السيارة، وأحبها كثيراً. أصلاً أبي كان يحبّ التوقف أمام تمثال السيّدة العذراء. ينظر إليّ وأنا أسجد في السيارة وأردّد «أبانا الذي في السماوات». اليوم أبي لا يحبّ أن أتزوج من مذهب آخر. لكنني كنت أعشق والدي، وأبكيه كل مرة يضطرّ أن ينحني أمام الحاجز ليمرّ. وكنت أعشقه أكثر عندما يشتري لي الموز.

على الحاجز السوري، من العادي والبدهي أن يصادروا كل شيء. حتى الموز يصادرونه: ٢ كيلو موز بحوزتهم، وأخذوا الموزة التي في يدي أيضاً. تبا لهم، لكنّ أبي يعوّضني عنها.

لا أستطيع أن أكون فوضوية بأفكاري. يجب أن أحّد البحث. يجب أن أختار قصة واحدة وأبدأ منها وتكون هي النواة. يتغذّى منها كل ما حولها ويغذيها.

سأخبركم أنني من آل حمود. من شتّة عكار. أبي وأمي أولاد خالة. كلنا الجدّتين أنجبنا أربعة شبان وأربع بنات، وتبادلنا الأولاد بالزواج. أي إن ابن عمي هو أيضاً ابن خالتي. تزوّج هذا الأخير ابنة خالي أي ابنة عمتي أيضاً، وأنجبا أطفالاً. نعيش قرييين من بعضنا البعض من دون زيارات تذكر. قد أكون أنا الأولى في جيلي التي وُصمت بالعار: نزلت إلى بيروت، وتعاطت المنكرات ورقصت في البارات ووشت على ظهرها سنبله. فوقعّت الكارثة!

لم أتزوج. ومثّ. وسوف أغسل كما غُسلت جدّتي. لكن لن تقبل زوجة الشيخ بغسلي، فالوشم حرام. سأدفن وأنا نجسة. ولن أجد السلام تحت الأرض ولا في السماء. ضحككت وما زلت أضحكك إلى الآن.

قلعةٌ خارجُ السور

لينة عطفة

شاعرة من سورية.

يهذي بنا الجوع . نلتوي على اللغة ونعض الكلام.
خبينا خيبة قرمطية وبكاؤنا بكاءً فاطمي.
نسمع الرابة فنمتدح عائلة الكمان. نشرب العرق
البلدي فنمتدح سلاطات النبيذ.
وحين تخوننا النهايات نلوذ إليك، نبتلس عزلتنا التي
غزلتها بنول الصدى. نرتب الحيل، نجهد خيالنا لنراك
خارج أقدارك.
خبية المطر. خيبة الأرض. خيبة الأنثى التي تلعق
مدائحها النازفة.
لا تذكرنا الأمكنة بك، ولا الورد. ولا ما يُذكر
الناس بأوطانهم.
نذكرك إذ تُطيح نظرة قلوبنا فيخرب عازفٌ بنشازه
سرب الأغنية.
هاشلون على حواف المدن مذشردتنا وانتصبت
بأسمائنا كشاهدة قبر.
جيوب نواطيرك تزرِب ذئاباً وأنت عزلاء إلا من
صدقة خلاص قد لا تأتي.
يشرعون بواباتك للمذبحة كي يُشهرُوا انتصارهم
لك. لا تغفري لهم وأنت ترتقين لحمك المتهتك. لا
تغفري لهم.
ثمّة رعيانٌ زرعوا لهباً في جوف شجرة البطم
وجبال البلعاس وشاعرة تهذي بالنار. حزنك لا يثني
بالفجيعة والمشيئة أعجز من أن تُخل الرهانات. تهريق
المرائي لأنهار لم تحظي بها.
تهريق الأخيلة والخبر والهواجس. أيّ مدينة
أراف بالشعر منك؟ أيّ مدينة تتختر عتباً؟ والعتب إذاً
تختر صار أغنية. والأغنية إذا تخترت صارت حكاية.
والحكاية إذا تخترت صارت أنت. أكتب وأكتب لأجد
اسمك، اسمك الهارب من القصيدة.

إلى سلمية، المدينة التي انطلق منها الفاطميون
والقرامطة. تجمع كل الأضداد من الأهواء السياسية
حتى أنواع التبغ.
اليوم تتكشف فيها الحالة السورية. بقيت على
موقفها الأصيل من الاستبداد فشاركت بالتظاهر
وحازت حصتها من الموت. وآخر ما لقيته مجزرة
مروعة ارتكبتها داعش بحق العزل في قرية المبعوجة
وتوجها النظام بالبراميل المتفجرة بعد أن ترك الأبرياء
يُذبَحون كي يتاجر بدمهم.
لن أخاطبك بعد اليوم. أنت التي جعلت قلبي مثل
خيام البدو لا يكسره الترحل ولا الحنين.
لا هواء يقودني إلى رائحتك. والذكريات التي نثرتها
كفتات الخبز لأجد طريقاً إلى يبابك، لفظت فتنتها
الأخيرة واستحالت رماداً.
أيتها الجاحدة التي تستدرّ عقوقنا، هل رأيت
غلاصمنا المتيّسة ونحن نسيح في جسد غير جسدك؟
هل شعرت بأظفارنا الهشة المغروسة بعظامك؟ هل
سمعت نجيباً ونحن نتوسّد العواصف لنحلم بك؟
أكتب لأثار منك وأعود من ثاري قتيلة وقد
تنازعتني الآفاق حدّ العدم.
الموت يقول إنك الجنة وحين أرفع أستاره أراك
شاحبةً كالمقامرين، توزّعيننا كأوراق اللعب وتتشاءين،
تقاسمين العواصف أسرارها: قلعةٌ خارج السور.
أمرؤك المجانين المبددون في طرقاتك بملابسهم
الموشاة بالزق وأصواتهم التي تهزم اللغة والكتابة،
وشعراؤك يتقلدون حزنك وبشجاعة اليأس يكتبون.
منذ استبدلت كرمّتك العالية بشتلات القطن وأنت
تتمرغن بالعطش، تعقدين هدنة مع الصحراء فتكون
المحاصيل شكلاً من الرمل.

ذوو الإحتياجات الخاصة نحن أيضاً لنا الحق في المدينة!

سيلفانا اللقيس

رئيسة اتحاد المقعدين اللبنانيين.

التعليم والعمل والبيئة المؤهلة وكلفة التجهيز والتعديل للأماكن وأنظمة العمل والتواصل، وبعدما أسسنا مكاتب لتوظيف الأشخاص المعوقين. كذلك عملنا كثيراً مع القطاع الخاص، إلى أن تشكلت هيئات داعمة من أرباب العمل. وبعدما تم تنفيذ عشرات المشاريع النموذجية ساعين نحو مجتمع دامج للجميع، جهدت جمعيتنا وجميعيات الإعاقة الأخرى في تطوير سياسات وطنية دامجة، مستفيدة من دعم المنظمات الدولية.

في المقابل، لم نشهد أي مبادرات رسمية، لا على مستوى تطوير سياسات وطنية، ولا على مستوى تهيئة مؤسسات القطاع العام، ولا على مستوى تعديل المناهج، ولا على مستوى تأهيل البيئة، وطبعاً ليس على مستوى قانون الموازنة العامة، حيث لا تُرصد أموال لتطبيق أحكام القانون. وكأن هذا القانون غير موجود. وإن صدف وخرقنا الممنوعات بتنفيذ بند محدد من خلال مبادرة جمعيات الأشخاص المعوقين، وفي طليعتها «اتحاد المقعدين اللبنانيين»، تجتمع وزارات الدولة لتنقّض وتنقضّ ما فعلنا وتعيدنا إلى الوراء. تماماً كما حصل مع «الكوتا ٣٪» لتوظيف الأشخاص المعوقين في القطاع العام والخاص. كذلك ما هو حاصل في قانون الإعفاء الجمركي، حيث يجري تعديل البند من القانون من أجل إلغاء الحقوق. وكما هي الحال أيضاً مع النقل العام، حيث تم تطوير الميزانية، وبالتالي تطوير بند شراء باصات مجهزة لنقل الجميع بمن فيهم الأشخاص المعوقون تحديداً.

أما عن الأدوات التي تستخدم في مؤسسات القطاع العام، كأوراق التسجيل وامتحانات التوظيف أو للدخول إلى الوظائف العامة، فهي تتضمن أبشع النعوت بحق الأشخاص المعوقين وكراماتهم. وفي الفترة الأخيرة،

ممنوعون من استخدام الطرق والأرصفة. ممنوعون من دخول المرافق العامة والخاصة. ممنوعون من دخول المدارس الرسمية إلا بعد الاسترحام والمذلة. ممنوعون من العمل إلا بعد اجتماع مجلس الوزراء. ممنوعون من الانتخاب والترشح إلا بعد مصادرة أصواتنا مقابل خدمة النقل والمساعدة. ممنوعون من دخول الجامعة الوطنية اللبنانية، ومن تحصيل الشهادات والدراسات العليا. ممنوعون من التنقل بحرية واستقلالية. ممنوعون من التثقف والتعلم. ممنوعون من احتساب حاجاتنا في الخطط الوطنية. ممنوعون من العيش بكرامة واستقلالية داخل مجتمعنا ومع أهلنا. ممنوعون من التواصل، ومن الوصول إلى المعلومات مثل الآخرين. ممنوعون من اجتياز خط الفقر الشديد. ممنوعون من الاندماج والمشاركة.

من أجل إلغاء تلك الممنوعات وأكثر، وُجد ذات يوم القانون ٢٢٠ على ٢٠٠٠، الذي قبل لنا إنه سيفتح لنا الأبواب ويلغي العوائق من أماننا، وسيتم الاعتراف بنا، نحن الأشخاص المعوقين، كمواطنين لبنانيين. كان هذا منذ خمس عشرة سنة. يومذاك وُعدنا بأنه ستنم مخاطبتنا بأسمائنا وبأشخاصنا، وليس على أساس الإعاقة. وتم الإقرار بأن الإعاقة في النظام الاجتماعي وليست في أجسادنا.

وها نحن اليوم، بعد خمس عشرة سنة، نسأل أي مبادرات جدية شهدنا من جانب القطاع العام؟ كل ذلك بعدما وضعنا خبراتنا وطاقاتنا لدعم مؤسسات القطاع العام، والمساهمة في تطبيق بعض أحكام القانون، وبعدما قمنا بالدراسات وأعمال مسح ميدانية، تستطيع الدولة الاستناد إلى نتائجها وتوصياتها لوضع سياساتها في مجال الإعاقة في عدة ميادين، منها



❖
ناشطون من اتحاد
المعاقدين اللبنانيين
يشاركون في
تظاهرة مطلبية
في بيروت (تصوير
ديما شريف)

- ◆ دعم «المؤسسة الوطنية للاستخدام» لتقوم بعملها كما نص عليه القانون.
- ◆ إقرار جسم لإدارة الدمج في كل وزارة، خصوصاً في التربية وفي التعليم المهني والجامعي.
- ◆ معاقبة كل موظف أو مسؤول يخالف تطبيق القانون ٢٠٠٠/٢٢٠.

- ◆ تجهيز مباني القطاع العام لتصبح خالية من العوائق كما أشار القانون، والالتزام بالمعايير الدامجة.
- ◆ تنفيذ ورشة تدريب الزامية لكل المديرين العامين وموظفي الفئة الأولى حول كيفية إدماج الاشخاص المعوقين، على أن يصار إلى التعاون مع جمعيات الأشخاص المعوقين لإعداد البرنامج التدريبي للورش.
- ◆ وضع دفتر شروط بمعايير أمانة ودامجة، لتستخدم في السياسات والبرامج والإدارات والعقود المبرمة مع أي طرف أو شريك أو مؤسسة على المستويين المحلي والوطني.
- ◆ التعاقد مع خبراء من جمعيات الأشخاص المعوقين لتقييم الوزارات، وبالتالي وضع خطط توجيهية لتصبح تلك الوزارات دامجة.

- ◆ الطلب من جميع الوزارات وضع لائحة باحتياجاتها، وما تتطلب من موازنات لتطبيق أحكام القانون، ووضع مؤشرات لقياس النتائج ولضمانة التطبيق السليم، واعتماد آلية رصد دورية لسلامة التطبيق.
- ◆ تكليف وزارتي الثقافة والإعلام بتنظيم ورش عمل من أجل إنتاج مبادئ ومعايير تحمي حقوق الأشخاص المعوقين في الأداء والتخاطب الإعلامي والإعلاني وتشر ثقافة الدمج وتروج لها.
- ◆ المصادقة الفورية على الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة، التي كان لبنان الرسمي قد وقع عليها والتزم بالالتحاق بها منذ سنوات.

- اعلموا أن هذا أقل ما يمكن فعله لإنصاف فئة من مواطنيكم. قوموا بواجباتكم الإدارية واعدلوا.
- لا تتأخروا عن القيام بواجبكم، ففي تأخركم جريمة ترتكب بحقنا كل دقيقة.
- نحن لا نطلب إلا ما هو حق لنا، وليس لكم علينا جميل أو منة.
- نحن جزء لا يتجزأ من المجتمع. ضحينا من أجله، وبعضنا ضحى بالغالي والنفيس من أجل بقائكم في مناصبكم.
- الأول من أيار للجميع، كونوا على قدر المسؤولية.

تجري محاولات لتعديل مرسوم قانون البناء، الذي عملنا على إنتاجه وأقرته الدولة سابقاً، حتى يتم تفرغه من مضمونه. أما عن السلوكيات والأداء، فحدث ولا حرج. والنتيجة إغلاق الفرص والخدمات والحقوق في وجه الأشخاص المعوقين في كل اتجاه، والإقصاء اللامحدود عن كل شيء.

لا. لسناً نبالغ أبداً. فالأمر تجري اليوم وفق مزاج هذا المدير وذاك الوزير، ووفق مستوى تفكيره الشخصي. وبعد مضي جيل كامل قضى عمره معذباً مهمشاً، مشرداً

عليكم الطلب من الوزارات وضع لائحة باحتياجاتها. وما تتطلب من موازنات لتطبيق أحكام القانون. ووضع مؤشرات لقياس النتائج ولضمانة التطبيق السليم. وتكليف وزارتي الثقافة والإعلام تنظيم ورش عمل من أجل إنتاج مبادئ ومعايير تحمي حقوق الأشخاص المعوقين في الأداء والتخاطب الإعلامي.

ومبعداً.. سقط الكثير منا ورحل على طريق النضال قبل أن يرى أي تقدم.

النتيجة اليوم، ارتفاع متزايد لنسبة البطالة في صفوف الأشخاص المعوقين، وحرمان من التعليم لمعظمتنا، وفقر مدقع، وبؤس وعيش على الهامش.

لكن لا، وألف لا. لم نقبل ولن نقبل بسياساتكم المنتهكة لكل الأعراف والمواثيق والدساتير. ولو كان في بلادنا سلطة للقانون، لوضع معظمكم قيد المحاسبة والمساءلة.

لذا، نطالبكم بالتصحيح الفوري والتعويض عن سياسة المماطلة التي ارتكبها معظمكم بحقنا على مرّ الزمان.

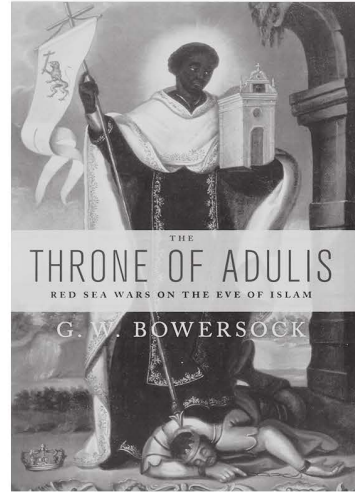
عليكم

- ◆ استحداث فريق عمل وزاري ليضع خطة وطنية لتفعيل «الكوتا ٣٪» في القطاعين العام والخاص، على أن يتم فوراً استيعاب دفعة كبيرة من الأشخاص المعوقين في ملاك الدولة، وفي الوظائف التي تليق بكفاءاتهم وليس وفق عقولكم المحدودة في فهم قدراتنا.
- ◆ إعادة تفعيل نظام الضريبة عند مخالفة القطاع الخاص في توظيف الأشخاص المعوقين.

الصراعات على البحر الأحمر عشية الإسلام

سهيل الزين

حام ومستشار
سابق لدى منظمة
اليونيسكو، متخصص
في القانون الدولي.



G.W. Bowersock

The Throne Of Adulis:

Red Sea Wars On The Eve Of Islam

٢٠٨ صفحة - الطبعة الأولى

٢٠١٣ - Oxford University Press

أو الآية الأخرى التي أنزلها الله
على نبيه العربي تكراراً مع غيرها
من الآيات التوحيدية:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

لمن تنصب العروش والمسلات؟
«أدوليس» الآن ميناء إريتري قديم
ويعتقد، أن أصل الاسم عدوليس
ويعود إلى «عدو لي» أي الماء
الأيض. أطلق عليها الأغريق اسم
ميناء أدوليس القديم الذي كان معبراً
تجارياً غاية في الأهمية في منتصف
القرن الثالث قبل الميلاد وخصوصاً
للحضارات المصرية والفارسية
وحضارة ما قبل أكسوم ثم استمر
بذات الأهمية ما بين القرن الثالث
والقرن السادس بعد الميلاد.

أما العرش الضائع فكان صغير
الحجم، مصنوعاً من المرمر، يستخدمه
ملوك إثيوبيا لعبادة أحد الآلهة قبل
اعتناق المسيحية أو للتعبير عن فرحة
النصر على ملوك اليمن الحِميريين.
كان هذا العرش منتصباً في مدينة
أدوليس الإريترية التي تطل على
البحر الأحمر بالقرب من أسمره
اليوم. ومع أن إريتريا لم تتمكن من

«عرش أدوليس، وحروب البحر
الأحمر عشية الإسلام» كتاب^١
مشوق للمؤرخ الأميركي غلين
بورسوك يغوص في تاريخ المرفأ
الرئيس لمملكة أكسوم (وهي مدينة
في إثيوبيا حالياً التي كانت آنذاك
تسيطر على إريتريا والصومال حتى
بلاد الزنج) ليصوّر الصراعات على
ضفتي البحر الأحمر^٢ قبل مجيء
الإسلام. ومحور الكتاب الحرب التي
دارت بين مملكتين: حمير اليمنية، في
جنوب شبه الجزيرة العربية، وأكسوم
الحبشية المسيحية، وهي حرب دينية
وسياسية وقفت فيها فارس في صف
حمير، فيما استعانت أكسوم ببيزنطة.
وتبين من ذلك أهمية المنطقة منذ
القدم، وعلاقة المتصارعين بملكة
سبأ وملك الحيرة ومصر البيزنطية
ومعالم الفترة التي سبقت انهيار
الإمبراطورية البيزنطية على يد
الفرس قبل نزول الآية القرآنية من
سورة الروم:

غَلَبَتِ الرُّومُ^٢ فِي أَدْنَى
الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ^٣ فِي
بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ
قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ^٤

العثور على العرش أو ترميم آثار مملكة سبأ المتحطمة بسبب حربها مع إثيوبيا في التسعينيات، فقد تمكنت الحبشة - إثيوبيا اليوم - من استرجاع المسلة التي تحدث عنها كتاب بورسوك والمنصوبة في مدينة أكسوم الحبشية عندما حكمها الملك ذاته الذي أراد نصب عرش أدوليس. كانت المسلة التي تعتبر رمزاً لتاريخ مملكة أكسوم وهويتها قد نهبت من إثيوبيا على يد الدكتاتور الإيطالي بينيتو موسوليني ولم تعد من العاصمة الإيطالية إلى أكسوم إلا بعد نزاعات دبلوماسية انتهت بخير سنة ٢٠٠٨. حينها استدرت العودة دموغياً من الفرع لأن الآثار المادية تساعد على استرجاع الهوية الوطنية، دون أن يتوافق ذلك مع الرغبة في إحياء إثيوبيا كمقر لإمبراطورية أفريقية صاعدة وإن كانت النقوش التي علق عليها بورسوك تشير إلى أن النجاشي الحبشي واسمه «كاليب» عابر البحر الأحمر لتدمير المملكة الحمرية المهددة، كان يعتبر نفسه ملك الملوك مثله، في مخيلة شعبه، مثل «شاهنشاه» الفرس.

اعتمد بورسوك على كتاب إغريقي قديم بعنوان «طوبوغرافيا مسيحية» المكتوب عام ٥٥٠ م لتاجر مسيحي من الإسكندرية، اسمه كوسماس إنديكوبوستيس، كان يدون، خلال رحلاته العديدة بين الأعوام ٥٢٠ و ٥٢٥ إلى مدينة أدوليس، النصوص المنقوشة على عرش من الرخام الأبيض، وعمود ضخّم من البازلت منتصب خلفه، وذلك بناءً على طلب ملك الحبشة النجاشي كاليب في العاصمة أكسوم. وكان النجاشي على وشك المضي في هجوم جديد، عرمرم هذه المرة،

ضد مملكة حمير (بعد مجزرة نجران، في ٥٢٣ م) ويهمّه ما كان مكتوباً على العرش من سردٍ لانتصارات ملك حبشيّ سبقه (في بداية القرن الثالث) احتل مملكة حمير، لتظل تحت السيطرة الحبشية حتى ٢٧٠ م. فلم يكتف التاجر المسيحي بنقل النصوص المنقوشة، بل أضاف رسوماً للعرش وخارطة تعيّن موقعه.

وغلين بورسوك هو أول من بحث في هذا النقش وإشكالاته واستحقاقاته التاريخية المتعلقة بذلك، وقد سبقه إلى ذلك السيد بيستون في بحثه سنة ١٩٨٠، إلا أن بورسوك هو أول من أفرد لنقش العرش هذا الدرس التاريخي في كتاب مستقل عن تلك الفترة التي سبقت وأظلت ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي. وهذا ما يؤكده الكاتب السوري حمّود الذي تنبّه إلى أهمية هذا الكتاب وأدلى برأيه على صفحات «نوافذ» لصحيفة «المستقبل» اللبنانية عام ٢٠١٣ قبل أن يكتشف ترجمته إلى الفرنسية عام ٢٠١٤. لكن حمّود يبقى تركيزه على عنوان مقالة «الصراع اليهودي - المسيحي التاريخي من جديد» ويخلص بسرعة إلى القول بأن «بورسوك بالأصل ليس مؤرخاً بالمعنى التاريخي التقني الصرف» وبأنه «ذهب في نهاية الكتاب (في الفصل الأخير منه) حتى ليجادل السيدة باتريشا كرون وجيرالد هاوتينغ بما يخص الإشكالات اللاهوتية لمفردة «الحنيفية» وموحدتي جزيرة العرب قبل الإسلام». ليس هذا رأي بيتر براون، أحد أهم المختصين بتلك الفترة التاريخية من أواخر القرن السادس الميلادي، والذي علق على هذا الأمر

عام ٢٠١٣ في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» مؤكداً «أنّ كتاب عرش أدوليس لبورسوك وكتابه الآخر عن «تنازع الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية» هما، مع كتاب السيدة باتريشا كرون «عن أنبياء الحقبة الزرادشتية»، من أهم الكتب التاريخية التي تناولت مرحلة ما قبل الإسلام من المراكز المتناحرين للسيطرة على العالم الشرقي حينذاك».

إلا أنّ فرادة كتاب بورسوك، بالمقارنة مع كتاب باتريشا كرون، في أنه، بعكسها، ينطلق من الأطراف، أي من اليمن والحبشة، بدل أن ينطلق من المراكز الفارسي والبيزنطي لكي يذهب إلى ما هو أبعد من نقش عرش أدوليس، وليعيد موضوعة السياق التاريخي للصراع الديني المسيحي - اليهودي - الزرداشتي والوثني ويربطه بتاريخ الممالك الصغيرة من الحيرة إلى اليمن والحبشة وحروب البحر الأحمر وعلاقتها مع الصراع الإمبراطوري لكسب الوثنيين إلى ديانات خاضعة للمركزين الساساني والبيزنطي.

مجزرة نجران

كان الرأي الشائع في الدوائر التاريخية العلمية أن المصادر البيزنطية واليونانية لم تتحدث عن تعرّض الأحباش للحجاز، ولا عن سفر الفيل. غير أن المباحث الدقيقة التي يعتمد عليها بورسوك تؤكد عكس ذلك. فقد اعتمد في دراسة لمجزرة نجران على المخطوطات والدراسات البيزنطية مستنداً إلى آخر دراسات المختصين بقراءة النقوش وآثار اللغات القديمة: السبئية، والحبشية، والسريانية

والإغريقية، من مناطق مختلفة في الجزيرة العربية وشرق إفريقيا، بما فيها كتاب بروكوب المؤرخ الروماني المشهور في التاريخ القديم، وإلى مصادر إغريقية (وثيقة شهادة أريثاس) والمصادر السريانية التي دخلت في تصوير الأحداث العيانية في «كتاب الحميريين» السرياني، فضلاً عن دراسات فرنسية صادرة سنة ٢٠١٠ عن «كوليج دو فرانس» ومركز دراساته البيزنطية تحت إشراف كريستان روبان^٣.

وتقدم النصوص البيزنطية التي يعتمد عليها بورسوك اسم الملك الحميري الذي ارتكب المجزرة في نجران على أنه «داميانس» و«دونان» وما يقابله في اللغات الحميرية والأهمرية باسم «ذو نواس» واسمه الصغير المهود «يوسف أسار» أو عازار. وهناك إشارات إلى مذابح أخرى في حضرموت ومأرب و ظفار اليمنية (تمييز لها عن ظفار العُمانية).

وجدير بالذكر أن غلين بورسوك لم يعتمد على المراجع العربية في تحليله لمجزرة ظفار ونجران واكتفى بإشارة سريعة إلى كتاب ابن المهاجر «طريق المستبصر» في قوله إن القرآن الكريم أتى على ذكر ذلك الحدث بعبارة «قتل أهل الأخدود». والنص القرآني موجود فعلاً في سورة البروج:

قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا قَعُودٌ وَهُمْ عَلَى
مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا
أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ [البُرُوج: ٤-٩]

المشهور من كتب التفسير، ولا سيما الطبري، ومن قصص القرآن (كتب ابن كثير والجزء الثاني من مجلده «البداية والنهاية») أن «الأخدود» هو الشق المستطيل في الأرض حيث ارتكبت المجزرة وأودع رماد المحرقة. والتفسير يشار فيه «إلى قصه ذي نواس، وهو آخر ملوك حمير في أرض اليمن وكان قد تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمى نفسه يوسف وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم أخبر أن بنجران شمال اليمن بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى (ع) وحكم الإنجيل، فحملة أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، واختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار فمَنهم من أحرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومثّل بهم كل مثله». وأضاف بعض آخر: إن رجلاً من بني نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل ذو نواس إلى قيصر. «فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكني سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصراني وأطلب منه مساعدتكم. ثم كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التي أريقَت في نجران، فلمّا قرأ النجاشي الرسالة تأثر جداً، وعقد العزم على الانتقام لدماء شهداء نجران. فأرسل كتابه إلى اليمن والتقت بجيش (ذي نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة».

ما يجب ذكره في كل هذه الأخبار، التي دَوّنت بعد عدة قرون من الفتح الإسلامي، هو التطابق بين المصادر التي يعتمد عليها غلين

بورسوك والمصادر العربية على حدثية وقوع المجزرة، بغض النظر عن التفاوت في تحديد عدد القتلى والضحايا ومن أوصل النبا إلى الحيرة. وما هو أهم في الكتاب، أن بورسوك لا ينظر إلى اعتناق عرب اليمن اليهودية على أنه حدث دخيل نتيجة هجرتهم من أورشليم بعد تدمير الهيكل أو اضطهادهم على يد الرومان إثر اعتناق الإمبراطورية البيزنطية للديانة المسيحية، بل يقر بأنه كان لهم وجود في شبه الجزيرة العربية أصلاً. هذا ما كان كمال الصليبي قد ذكره. إلا أن بورسوك لا يعتمد على صليبي في ذلك بل يعود إلى مصادر أخرى تشير إلى أن يهود يثرب كانوا على علاقة بتهويد اليمن وإلى أن وصول المسيحية إلى نجران وظفار اليمنية لم يكن عن طريق الحبشة دائماً، فيذكر دور «فيليمون» من أبناء صور- لبنان - البيزنطية واعتقاله ودعوته العرب إلى المسيحية قبل اعتناق الحبشة لها. لذا يستعمل المؤلف عبارة «العرب اليهود» و«العرب النصارى». لكنه لا يهمل دور الملوك الحميريين أو الأحباش في التقلب بمعتقداتهم، وهذا ما يبيّن أن القوم كانوا أحياناً على دين ملوكهم أو أعيانهم.

حرب حمير والقبائل

وفي التاريخ الإسلامي ما يؤكد إمكانية تلك الصلة بين السلطة السياسية والدين، إذ إن النص القرآني يذكر أن الرسول كان «على دين قومه» قبل الهداية، أي وثنياً، وكان جبريل يعلمه أن يبدأ بدعوة أهله قبل غيرهم «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الشعراء ٢١٤) وفي الحديث: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» وفقاً للتفسير الخلدوني

وثالوثه في فهم العمران السياسي «الملك، العصبية والدعوة».

ضمن هذا المنحى العام يمكن القول إن الحرب التي دارت بين المملكة الحميرية والقبائل الأخرى كانت حرباً أهلية ولا سيما أنَّ علاقات هؤلاء كانت تضرب أيضاً جذورها في الصراعات الدائرة مع مملكة الحيرة الخاضعة للنفوذ الفارسي الزرداشتي أو المجوسي الذي كانت له امتدادات في طقوس وعادات الحميريين أو قبائل اليمن الشمالية. وإلا فما معنى الاجتماع أو المؤتمر الذي يؤكد بورسوك على أهميته سنة ٥٢٤ ميلادي في الرملا أو الرملی - بمملكة الحيرة في العراق الحالي - بين هؤلاء وممثل عن بيزنطة - عبر سفارة لها هناك - وممثل عن الملك الحميري ذو نواس الذي أرسل رسالة يبرز فيها وقوع المجزرة في نجران؟

وينتقد غلين بورسوك صلافة رسالة الملك الحميري إلى نظيره في الحيرة الذي يفاوض بيزنطة لتسليمها عدداً من القادة العسكريين الذين وقعوا في أسره، فيما الواقع هو أن الفرق المسيحية من المناذرة أو الغساسنة كانوا يتعاملون مع الزرداشتيين على أساس عهود تضمن لهم حرية شرائعهم الدينية مقابل دفع الجزية. أما الحميريون فقد كان تحالفهم مع الفرس يتجاوز العلاقة بالدين ويهدف إلى ضمان خط تجارة الحرير والعاج بين بلاد فارس والهند وصولاً إلى أفريقيا.

أما العلاقات بين الروم والممالك الصغرى فكانت محكومة باعتبارات الشرع السائدة حينذاك، إذ يفهم من النقوش أنَّ مفهوم الصليب كان مرتبطاً بمفهوم «السلام المسيحي» البيزنطي، وأنَّ دفع الجزية كان أمراً

معمولاً به في عقود الصلح مع القبائل. والواقع أن الفرس كانوا يتعاملون أيضاً وفق المفهوم ذاته مع ملك الحيرة حامي المسيحيين هناك وحامي اليهود الحميريين في اليمن. لكن أخبار فعلة الملك ذي نواس أخرجت ملك الحيرة، وكان الرد البيزنطي عبر أهل الحبشة بمثابة إعادة صياغة للتحالفات وإن كانت هناك شكوك بيزنطية بشأن أصالة مسيحية الأحباش ويهودية الحميريين. فقد كانت تجارة البحر الأحمر قد تعطلت بفعلة الملك الحميري لأنها كانت تنتهي يومذاك إلى أسواق الروم المسيطرين على مصر وعلى مداخل البحر الأحمر الشمالية في فلسطين، فلحق الضرر الاقتصادي بأسواق الحبشة، وكتب ملك الحبشة إلى ذي نواس محتجاً على سياسته تجاه الرعايا المسيحيين مينا ما ترتب عليها من ضرر بتجارة الحبشة في البحر الأحمر ومهدداً بأنه لن يقف مكتوف اليدين إذا استمرَّ ذو نواس في اتباع سياسة تلحق الضرر بالمصالح الحبشية. وعندما استمر في مواقفه تجاه الروم وتجاه النصاري ممن كانوا باليمن، لم يجد النجاشي بداً من إعلان الحرب عليه.

وبالفعل، قرَّر ملك أكسوم Aksum التي تحولت إلى المسيحية نحو سنة ٣٤٠، قطع البحر الأحمر إلى الضفة الأخرى عند الزاوية الجنوبية - الغربية لجزيرة العرب، تمهيداً لشنِّ حملة عسكرية ضد مملكة حمير الواقعة تحت النفوذ الديني اليهودي والنفوذ السياسي الساساني الفارسي. وهدف الحملة على اليهود الردَّ بقوة على المذبحة التي ارتكبها الملك اليهودي، حليف المملكة الزرادشتية الفارسية، يوسف ذو نواس، بحق المسيحيين في نجران وظفار وغيرهما من المناطق

سنة ٥٢٣ م حينما أباد رهبانهم ودمَّر كنائسهم وأمعن فيهم قتلاً وحرَقاً، فانتقم منه النجاشي ٤ كاليب شرَّ انتقام وأقام مسألة لانتصاره في مأرب، وبني كنائس في صنعاء ونصب مسألة أخرى في أكسوم ونقشاً إضافياً في أدوليس. ولدى الانتصار الحبشي على ملك حمير، طُبِّق أيضاً مفهوم الجزية.

ولأن كان هناك مبالغة في حقيقة نهايه ذي نواس الذي أطاح الملك المسيحي الحميري، وما آل إليه اليمن بعد قتله وتعيين ملك مسيحي جديد على صنعاء ونجران وتهماته وظفار، وفي معرفة هل هم فعلاً هكذا أم أنهم مجرد بعض الحكام الموالين لفارس والحبشة أو من يطلق عليهم العرب لفظاً «قيصر أو كسرى»، فهذه الأخبار البيزنطية التي يذكرها بورسوك والأخبار العربية المفسرة للقصص القرآني تحدد صورة العلاقات الدولية كما كان ينظر لها العرب، ويوضح كيفية ولادة مفهوم «أهل الكتاب» وأهل الذمة والقبول بعقد العهود معهم.

ثم إن هناك أهمية العبرة التاريخية والقانونية، لا سيما أن كتب التفسير تشير إلى أن نصارى نجران وفدوا المدينة، وذلك بعد عرض الإسلام عليهم ومناقشتهم للرسول العربي الذي خيَّرهم بين الجزية والقتال، فرفضوا القتال، ورفضوا أيضاً (صورة الجزية)، ولكنهم قبلوا أن يُفرض عليهم شيئاً من المال كل عام، عُرف بمال الصلح، واشترط عليهم شروطاً أدَّجَ ضمنها يهود نجران. إن العبرة التاريخية تبرز أيضاً بعبارة أخلاقية/سياسية هي في صلب مفهوم نبي العرب والإسلام للعلاقة مع الآخر المختلف واحترام آدمية

كفاب



❖
مسلة أكسوم في
إثيوبيا (الصورة من
مدونة solarey)



الإنسان والإعجاب بثبات المؤمن المسيحي على دينه، مما يسمح بربط تلك العبرة بتأويل قوله تعالى في إحدى آيات سورة البقرة «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» التي لم تنسخ بهذه السورة أو غيرها من آيات سورة التوبة وفقاً لآراء يختلف فيها الراسخون في العلم مع بعض السلفيين الجدد الذين ذهبوا إلى جواز حرق حتى من كان من دينهم كما حصل مع الطيار الأردني على يد حركة الدولة الإسلامية الداعشية.

تعاطف الصراع على العرب

لا شيء بعد الحدث يعود كما كان عليه. فبعد إطاحة الملك ذي نواس، عين النجاشي بالتوافق مع الروم ملكاً مسيحياً على مملكة حمير، اسمه سوميفا ومنهم من يكتبه «سميفع». غير أن خطة للروم كانت أوسع من مجرد هذا التغيير الحميري في اليمن، ذلك أن قيصر الروم جوستنيان كان يسعى إلى قطع الطريق التجارية نهائياً على الفرس عبر دعم ممالك للعرب ليس فقط في اليمن ولكن في باقي شبه الجزيرة العربية والحيرة بالتحاليف مع القبائل الوثنية. (ص ١١٥ وما يليها).

ووفقاً لهذه الرواية، أرسل جوستنيان سفيرين ٥٢٧ م إلى كل من الملك الحميري والنجاشي، فطلب أن يساعد ملك حمير رجلاً بعينه ليصبح ملكاً على قبائل معد بن عدنان هو الأمير والشاعر المعروف في المصادر العربية بامرئ القيس بن حجر. وكان جوستنيان يرى في حساباته الإستراتيجية أن قبائل معد بن عدنان وكندة إن توحدت تحت إمرة رجل واحد فإنها قد تسدد للفرس ضربة موجعة. لم تحظ خطة

جوستنيان بالقبول عند نجاشي الحبشة كاليب ولا عند سميفع ملك اليمن وعملاً وفقاً لمصالحهما. ربما كان طه حسين محقاً في نقد الشعر المنحول والمنسوب إلى شعراء الجاهلية وأشعار أيام العرب، بما في ذلك الشعر المنسوب إلى الشاعر امرئ القيس والذي يروي فيه مضاجعته المدعاة لامرأة القيصر. لكن بروكوب يؤكد أنه لما استيأس جوستنيان من مشايعة سميفع ملك اليمن إلى خطته توحيد قبائل معد بن عدنان وكندة تحت إمرة امرئ القيس حاول أن يحقق ذلك بنفسه وسعى لتنصيب امرئ القيس ملكاً من قبل الروم. وهذا ما يصفه بروسوك حرقياً مستنداً في ذلك إلى المؤرخ بروكوب الذي كتب أيضاً عن تعسف بعض القياصرة بحق شعبهم أيضاً أيام الخلافات اللاهوتية بين الفرق الدينية والتي قامت بتصفية بعضها بعضاً في سورية حيث النسطورية تحاول التأثير على الموقف السياسي للقيصر. وتصديق ذلك في شعر امرئ القيس الذي ينسب إليه وصف رحلته إلى بلاط جوستنيان لتنظيم مراسم عقد اتفاق المناصرة مع الروم لا يخالف العقل حين يقول وينشد:

عليها فتى لم تحمل الأرض
مثله أبرّ بميثاق وأوفى
وأصبرا / ولو شاء كان
الغزو من أرض حمير ولكنه
عمداً إلى الروم أنفرا

بكي صاحبي لما رأى الدرب
دونه وأيقن أننا لاحقان
بقيصرا / فقلت له لا تبك
عينك إنما نحاول ملكاً أو
نموت فنقبرا.

وكذلك الأمر في ما يتعلق بموقف الرسول بشأن الحنيفيين الذين جاء بروسوك على ذكرهم في الفصل الأخير من كتابه، ولا سيما شعر أمية بن أبي الصلت، وهو من الحنفاء الذين ثاروا على عبادة الأصنام وأمنوا بالله الواحد واليوم الآخر، وبعض المؤرخين يربطها بتفسير سورة الأنعام ولا سيما قوله تعالى لنبي الإسلام:

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

ومن أقوال أمية بن أبي الصلت
الآيات الآتية:

ملكك على عرش السماء
مهيمن / لعزته تغنو
الجباه وتسجد

ملكك السماوات الشداد
وأرضها / وليس بشيء
فوقنا يتأود

تسبحه الطير الكوامن في
الخفا / وإذ هي في جو
السماء تصعد

لذا فإن التفسير السلفي الراهن لقوله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون»، لا يمكن أن يطغى على التفسير الأشمل للعلاقات بين الشعر والثقافة والمضمون الديني لهما قبل الإسلام وإن كان النبي الأكرم لا يعول على كل ما يقوله الشعراء أو على مستوى فهمهم السياسي واللاهوتي للأمر

ما فهمه النبي محمد لاحقاً بدعوته التوحيدية المستقلة وعندما أنزل عليه جبريل كلام الله عن آدم:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ
إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

لنعد إلى ما يقوله بورسوك بشأن فشل المفاوضات بين أبرهة وملك الحيرة أو مع الوثنيين العرب الذين غابوا عن ممارسة هذه العلاقات الدبلوماسية، ولذا بقيت العلاقة أمتن بين المملكة الحميرية والأحباش، ولا سيما أن المملكتين كانتا على صلة رحم مع بقايا السبئية منذ دور مملكة سبأ وعلاقتها مع سليمان الحكيم، وحسب ما فهمت من تحليل بورسوك الموجز، فإن العلاقة الغامضة حينذاك بين اليهود والمملكة الحميرية من جهة، وبين المسيحية والحبيشة وبيزنطة من جهة أخرى، كانت دائماً قائمة على تفسير علاقة رحم بين نسل أهل الحبيشة من ذرية ملكة سبأ بعد «تغريز» سليمان الحكيم بها - حسب كتاب الملوك بالمهرية - وبين اعتبار أهل اليمن أنفسهم ورثة ملكة سبأ أيضاً، وفقاً للقصص الذي يبدو أقرب إلى القصص القرآني في سورة النمل التي ورد فيها كيف تلقت بلقيس الرسالة التي ألغها الهدهد وذكرت الشورى كمنهج حكم معمول به لدى غير المسلمين وإن كانوا قد غدوا في ما بعد من الموحدون وعبدة «الرحمن الرحيم».

الحميري سميغ سنة ٥٣٠ م ويعتمد على نقوش مأرب السبئية وعلى صحة الوقائع المتعلقة بمفاوضاته مع ملك الحيرة لإقامة حلف مستقل عن النجاشي الحبشي كما يدق بصحة إنعقاد مؤتمر مأرب الدولي مع ممثلين من الروم والفرس وسفراء الحيرة والحبيشة ما عدا الوثنيين العرب سنة ٥٤٧ وعمله لإصلاح سد مأرب وبصحة حروبه مع النجاشي كاليب الذي لم يستسهل انقلاب أبرهة عليه. ولكن أبرهة الأشرم كان يحاول وراثة الدعوى المسيحية ويزيد من محاولاته الدبلوماسية مع الحبيشة والروم والفرس ليوطد ملكه. ولذا كان يستقبل لديه سفيرين شبه دائمين للفرس والروم ويتراسل مع النسطوريين الذين لم يكونوا دائماً على اتفاق مع المسيحية البيزنطية كما يذكر بورسوك. ففي الفترة البيزنطية كان دعاة النسطورية يتعاملون أيضاً مع الفرس وينطلقون في طلب الفرس حمايتهم من الروم بشرط نشرهم في الشرق لعقيدة «مختلفة عن عقيدة القيصر الروماني» وإلا فلن يحضك الرعايا المسيحيون أبداً «حق ولاتهم» كما يذكر جورج قرم مثلاً في كتابه المرجعي «تعدد الأديان وأنظمة الحكم» (دار النهار، بيروت، ١٩٧٩).

وكان كل اختلاف ديني يتحول إلى اختلاف سياسي لأن إدخال المقدس إلى السياسة كان أمراً إمبراطورياً ويمثل مثلاً أعلى في الصبوة إلى طمأنينة تنشل الإنسان ومجتمعه من وضعه كملك ساقط. كان الانتماء إذاً إلى جماعة دينية نبوية معيار ارتفاع الإنسان إلى الإنسانية وتجاوزاً للبربرية. وهذا

الدينية. وعلى كل، معظم أخبار السيرة النبوية تثبت أن الرسول العربي كان، عبر القصص القرآني، يبحث عما يوحد حينذاك أكثر مما يفرق. والدليل على ذلك هو أهمية من عرفوا لاحقاً باتباع ملّة إبراهيم - أي الحنفيين^٦ - وفقاً للقصص القرآني والحديث الجيد الإسناد إلى الرسول مثلما جاء في موقفه من خطبة قس بن ساعدة النصراني في سوق عكاظ التي قال فيها:

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت، يا معشر إباد أين الآباء والأجداد وأين ثمود وعاد وأين الفراعنة الشداد أين من بنى وشيد وزخرف ونجد وغره المال والولد أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول منكم أجالاً وأبعد منكم آمالاً طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاولة فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس والد ولا مولود».

ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر/
ورأيت قومي نحوها تمضي
الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إلي ولا
من الباقيين غابر/ أيقنت
أني لا محالة حيث صار
القوم صائر

بين أبرهة وملك الحيرة غير أن بورسوك يدق في حديثه الوقائع التاريخية المتعلقة بطروف انقلاب أبرهة الأشرم على الملك

غزوة الفيل وولادة الرسول
وما يلتمح إليه بورسوك عن احترام
الأحباش لتاريخ مملكة سبأ اليمنية
لا يتناقض مع القصص القرآني حين
يلقي الهدهد برسالته إلى بلقيس،
ملكة سبأ:

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي
أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ
{٢٩} إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ {٣٠} أَلَا تَعْلَمُونَ
عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ
{٣١} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
أَفَتُونِي فِي أَمْرِي مَا
كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونَ {٣٢} قَالُوا
نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو
بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَاقْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ
{٣٣} قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ
إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا آذِلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {٣٤}

وفي حين يعود القصص
القرآني إلى صلة الرحم الإبراهيمية
والى سيرة اليمن السبئية، يحاول
بورسوك، عبر مصادره اليونانية
والبيزنطية، أن يعقلن الحدث
الأسطوري الحبشي وصلة رحمه
مع المسيحية الإمبراطورية عبر
ذات العلاقة مع سليمان الحكيم.
ويستخدم الأسلوب ذاته أيضاً
عندما يسبر المخيلة اليمنية الحبشية
بشأن عام الفيل وغزوة أبرهة باتجاه
مناطق النفوذ الفارسية وفي قلب
الجزيرة العربية ضد قبائل معاد.

فهو يذكر بانتصار أبرهة في سعيه
إلى الاستقلال باليمن وبغزوته ضد
حلفاء الفرس، وأيضاً بغزوته باتجاه
الحجاز ومكة التي يخمن وقوعها
سنة ٥٥٢ م وفقاً للآثار المؤرخة
بالتاريخ الحميري والتي عثر عليها
علماء الآثار في اليمن، ولا سيما
تعليقات المؤرخ البلجيكي الهولندي
جاك ريكمان المتخصص في ذلك.
وهناك لفظ تاريخي بهذا الشأن.

وهنا يتعرض بورسوك إلى
تضارب التاريخ بمعناه التقويمي
البيزنطي مع المصادر العربية المتعلقة
بواقعة عام الفيل التي يربطها
المؤرخون العرب بتاريخ ميلاد
الرسول سنة ٥٧٠ م. هناك بعض
المؤرخين العرب مثل البغوي الذي
يقول: «إن سفر الفيل حدث قبل ميلاد
الرسول بنحو أربعين سنة وأن خلفاء
أبرهة حكموا اليمن ٣١ سنة». لكن
ذلك لا يطابق حتى ما يقوله بورسوك
لأنه لا يعتقد بأن سفر الفيل وقع
سنة ٥٣٠ م أو ٥٤٠ م. ذلك أن المؤرخ
البيزنطي بروكوب، الذي يعتمد عليه
بورسوك، نشر تاريخه سنة ٥٥٥ م بعد
ذكره لمعارك أبرهة في الحجاز. ويروي
أن غزوة الحجاز وقعت بعد فشل
مفاوضات سنة ٥٤٧ م. ومن يطلع
على كتاب البداية والنهاية لابن كثير
الذي يعتمد على تقويم ذي القرنين -
أي التاريخ اليوناني - لا يستطيع أن
يحسم في مجرى الوقائع وإن كان
سردها يتوافق مع أيام صعود أبرهة
ثم سقوط خلفه على يد سيف بن
ذي يزن الذي حكت حوله أساطير
شخصية وملحمية استوعبها التراث
الشعبي العربي والإسلامي، إذ تعلن
سيرته بشارة ولادة النبي لجده ابن
عبد المطلب عندما طالب ذلك الزعيم
القرشي الهاشمي بإبله.

لا يتعرض الكتاب إلى ذلك.
يشير بورسوك فقط إلى الآية ١٠٥
من سورة الفيل التي يفهم من
مفسريها أن تهديد أبرهة الأشرم
للكعبة بغزوته نحو الحجاز قد وقع
في عام ولادة النبي محمد - صلعم
- أي بعد ما كتبه بروكوب عن غزوة
الحجاز، ويحاول أن يتفهم مغزاها
الديني والسياسي أكثر من عقلنة
الحدث نفسه وتأريخه:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ
يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ
مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

وهنا يتعامل بورسوك مع
الأساطير على نحو رائع في فهم
تأثيرها على المخيلات الاجتماعية
للشعبيين، فيشير إلى وصف رحلة
سفير جوستينيان إلى النجاشي
في أكسوم وكيف كان ذلك السفير
يرى فيلة الحبشة المروضة بعد
اصطيادها في بلاد الزنج تسير في
القوافل، وكيف استقبله النجاشي
مكشوف الصدر، وهو على عرش
منصوب على ظهر أربعة فيلة.
ويذكر بورسوك أيضاً نقوشاً بهذا
الشأن ورسماً استوحى منها لوصف
استقبال ماركو بولو لاحقاً في بلاد
الهند والسند. (انظر الصورة)
وهذا جدير بالبحث الدقيق
لدرس التأريخ وفقاً للتقويم الحميري
ومقابلته بالبيزنطي واليوناني لأن
المتفق عليه هو صحة وجود حملة
استهدفت الكعبة دون أن تكون نتائج

البحث الأثري في الرسوم الحميرية اليمنية قاطعة في وقوعها في التاريخ الميلادي نفسه للنبي الذي تنسب إليه المعجزة فور ولادته في حين إنه يكفيه معجزة التنزيل لنبوته ولعظمة الكتاب المرسل بواسطة جبريل الذي لم يحدد يوماً معيناً لذلك الحدث في النص القرآني. لذا من الشطط التوقف عند ذلك الأمر كنقطة خلافية لاهوتية أكثر من كونها حديثة، إلا إذا كان الهدف إبراز الأحباش كأعداء أبنين للعرب. وإلا فلماذا أرسل النبي العربي - بعد هبوط الوحي عليه - في أوائل القرن السابع الميلادي فرقة من الصحابة إلى ما سماه «ملك الحبشة المتسامح والعدل» ودعاهم إلى عبور البحر الأحمر - ومنهم جعفر بن عبد المطلب والخليفة عثمان - في أول هجرة إلى الحبشة قبل هجرته إلى المدينة إذا كان النجاشي الحبشي عدواً أبدياً؟

تحويل معاني المقدس القديم

في القسم الأخير من كتابه، يتعرض بورسوك إلى هذه النقطة دون أن يدخل في تفاصيل المصادر العربية التي لم يكتب عنها أكثر مما كتبه جواد علي في مفصله عن تاريخ ما قبل الإسلام. فجّل ما يرمي إليه بورسوك هو أن يظهر أن الدعوة المحمدية قد قامت لأنها عاصرت كل الصراعات الأيديولوجية واللاهوتية دون قطيعة نظرية مع الموحدين وأهل الرحمن، مع أنها تجاوزت التصلب الفكري الذي جعل اليهودية والمسيحية أديان ممالك ضخمة قادرة على فرض فكرها المهيمن عبر مؤسسات إمبراطورية تريد القبض على هذه الأرض التي لم يخلفها الله لأمة واحدة من خلقه كما في قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

لكن النقاش الذي فتحه بورسوك بذكاء عن الفرق بين الوثنيين العرب وبعض المشركين هو أيضاً لفت نظر موضوعي ومعاصر إلى أهمية إعادة قراءة القصص القرآني على نحو أنطروبولوجي وبناءً على العلوم الحديثة لمقارنة الأديان ولا سيما في ما يتعلق بنقطة مهمة في فكر التوحيد المحمدي للقبائل الوثنية العربية هي كيفية حفظ المقدس القديم - الكعبة الإبراهيمية الأصل - وتحويل معناها إلى مقدس جديد إسلامي ينحدر من ملة إبراهيم الذي رفض التضحية بابنه.

كتب المستشرقون الكثير عن الأصنام، وحاول بعضهم تشويه معنى عدم تدمير الكعبة للخلوص بغياء إلى بقائها لعبادة القمر للتشكيك في توحيدية الإسلام، في حين أنّ ما سبق يقدّم تفسيراً أكثر مقاربة لمعنى التحوّل اللاهوتي الذي أبجّزه النبي دون قطيعة مع سيرة الأنبياء السابقين عليه. وهذا ما وجدته أيضاً في تفاسير القصص القرآني عن بقاء الحجر الأسود، أهمية بقائه لا تتوقف فقط على نسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم ليس كأول بيت على الأرض، بل «كأول بيت وضع فيه البركة»، لصلته مع المقدس الإلهي الأول (إنزال آدم إلى الأرض) كخليفة

لها وعليها بالرغم من احتجاج بعض الملائكة. فالقصص القرآني وأخبار المفسرين، بمن فيهم ابن كثير، تنسب وصول الحجر الأسود إلى الأرض من مادة الجنة نفسها أوصلها جبريل يوم كان إبراهيم يبني الكعبة. وجاء في الحديث المنقول والمُسند إلى النبي العربي، أن الحجر الأسود كان «أشدّ بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا بني آدم» وأن «آدم هو أول من قبّله»، بل إن كتاب «أمالي» لابن دريد يقول «إن آدم أهبط ومعه الحجر الأسود»، ولذا كان النبي العربي يقبّله. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كان يُقبّل الحجر الأسود ويقول: «إني ولولا أني رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبّلتك».

لذا لا مقام لدعاة الثورة الإسلامية الدائمة التي تدّعي أنّ النبي كان قاطعاً مع كل شيء في مجتمعه، وهو المجتمع الجاهلي. وهذه الملاحظة تتعلق أيضاً بالأعياد وبعض الطقوس الأخرى، ودرب الفيل الذي لا يزال يطلق على مكان مجاور لمكة. وحتى عندما حاول البعض بعد هزيمة حزيران التذكير بثورة القرامطة المنشقة عن الشيعة الإثني عشرية والإسماعيلية والفاطمية لا عتناق «قدسية جديدة» ثورية، فقد نسوا أن القرامطة فشلوا في تبرير سرقة الحجر الأسود ٩٥١م واضطروا إلى إرجاعه ليظل رمزاً لوحدة لاهوتية لا سياسية، إذ إن القدسية لا يمكن أن تحتكر لأي فرقة إلا على غلالة من دم في حرب أهلية نهاهم النبي العربي عنها عندما احتكم إليه أهل قريش في أمر إعادة تثبيت هذا الحجر قبل الإسلام. لكنّ

من المهم ذكر ما كتبه ابن كثير في أحداث ٣١٧ هـ - ٩٥١ م - نقلاً عن أبو طاهر القرمطي عندما أمر بأن يقلع الحجر الأسود: «جاءه رجل فضربه بمثقل في يده وقال: أين الطير الأبابل؟ أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود وأخذه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة حتى ردّوه» جليماً لا تخلل فيه.^٧

جاهلية الاسطورة و«جاهلية» التاريخ
ربما كان بورسوك يريد في عودته الى تلك الفترة أن يفهم أكثر ما حل بفكر الإمبراطورية البيزنطية وعلاقاتها الدولية آنذاك بعدما تبادلت الانتصارات والهزائم مع الفرس. ففكرة الانحطاط همّ ثقيل للباحث في التاريخ. لكن كتاب بورسوك هو أيضاً بداية لطرح أسئلة معلقة ليس فقط بشأن سقوط إمبراطوريتين فارسية ورومية بعد انتصار الدعوة، وإنما عن علاقة هذا السقوط بما آلت إليه الخلافة الإسلامية منذ اتساع الشرخ الديمقراطي الموروث قبل وبعد الفتنة الكبرى التي لا يجيد ورثتها وأبنائها إلا رغبتهم في استعادة العهد التأسيسي الأول على جثة الممالك والدول التي لا تزال تتهاوى وتتآكل على يد من ادّعوا بفرقهم المتناحرة حيازة مفتاح باب التأسيس الأول. ولما كان الفكر الإسلامي السلفي يعتبر أن انحطاط الأمة يعود إلى عودتنا إلى جاهلية أبدية لا تستقيم إلا بالعودة إلى الإسلام الأول، فرمما يكون ما يدعوننا إليه بورسوك هو أن نذهب إلى التساؤل: كيف يمكن أن تظهر حضارة غنية وشمولية بكل أنظمتها من ماض جاهل؟

عندما يكتب غلين بورسوك، أستاذ جامعتي برينستون وهارفرد، ضمن تخصصه وحرصه على أنسنة العلوم التاريخية والدينية والقانونية، فإنه يثير كثيراً من الغبار، العالق في عقولنا ونمط تفكيرنا. فقد تربّينا على أن «الجاهلية» لفظة مذمومة جاءت كلها في معرض ذم عادات العرب وسلوكهم السابق على الإسلام كالعجهية والغطرسة والعصبية القبلية والثأر والوثنية والسّفه وانتشار العداوات وسفك الدماء، وهذا ما فيه جزء فقط من أجزاء الحقيقة الاجتماعية والسياسية التي أصلح بعضها للإسلام، دون أن يكون ذلك الإسلام قطيعة مطلقة مع المجتمع الحاضر أو مع العالم المحيط به.

ووفق هذا المنطق الأحادي الذي لا يكثرث إلا إلى مراجعه واحتكارها للحقيقة المطلقة، فإن معظم الكتاب العرب اعتبروا الجاهلية مرحلة موحشة تافهة، ضالة مضللة، أو هي، بكلمة، جاهلية جهلاء. فعزلوها تاريخياً، أي عملوا على «تنسيقها» من وعي المرحلة التي بدأت بنشوء الإسلام. كانت رحلتي مع غلين بورسوك فرصة لاكتشاف أن عصر الجاهلية كان عصراً غنياً بتنوّع لغاته الحضارية وبيدور الشّرع المؤسسة لما أصبح في ما بعد فقهاً أو قوانين دولية للعلاقات بين الأمم. وكان أيضاً فرصة إعمال العقل في فهم تحولات التاريخ وآثاره أو أطلاله التي تفصح عن غنى مناسك العرب وحدة النقاشات الفقهية واللاهوتية في مجتمعات مدن الجاهلية المتنوعة ثقافة وسياسة وديناً وطوائف عربية مختلطة، فضلاً عن مستوى الثقافة العربية الشفهية والأسطورية ذات المعنى العميق لفهم

المختلة الاجتماعية العربية. يضاف إلى ذلك دور التجارة المزدهر آنذاك وأهمية طرقها ومعابرها في خلق نزاعات «ترتدي» الطابع الديني لاعتبارات سياسية واقتصادية تفرض على أطرافها أن يبقى السلام أفقاً عقلانياً للحروب، إلا الحروب الأهلية منها التي تنبّه نبي العرب والمسلمين لها وخطورتها وعالجها بعقوبة وإلهام خصه الله بهما وختم به سيرة كل الأنبياء.

إلا أن السؤال الذي راودني أيضاً هو أنه إذا سافر سلفي مع كتاب المؤرخ الأميركي إلى ما بين سنة ٥٢٣ - ٥٧٠ م فهل يستطيع أن يعود إلّا ومعه الجاهلة كلها ليسقطها على كل محطات التاريخ، وهي كثيرة، كي يعود للإسلام كما كان يوم أرسله الله إلى نبيه العربي؟ هل يمكنه أن يستعيد التعامل مع تراثه الثقافي في هذه الفترة ويعود من رحلة الاستعادة هذه سالماً دون أن يشهر سيفه ويحطّم كل الأصنام كما فعل الطالبان في أفغانستان بتمثال بوذا أو غيرهم من مسلمي مالي ونيجيريا والصومال؟ يبدو أنه قضي الأمر مع التطور الداعشي وغير الداعشي لأنّ الجاهلية التي يتحدّث عنها سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» وفي تأويله لقوله تعالى:

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

وما يكرره بعده أيمن الظواهري في كتابه «فرسان تحت راية النبي»، أو أبو بكر البغدادي ومرجعه في كتاب داعش^٨ «إدارة التوحش، أخطر مرحلة ستمر بها الأمة»

ليست جاهلية تاريخية وإنما هي حالة أبدية وسرمدية تتكرر مهما تغير التاريخ وتغيرت علاقات الأمم وتطورت أديانها ومعتقداتها ودولها إذا ضاعت حالة الجاهلية ضاع الإسلام. إنَّ صنمية هذا النعت لأيِّ مجتمع معاصر بالجاهلية وتجميد الاجتهاد إلا في توسيع مفهوم المشركين والمفسدين في الأرض، وتفصيل طقسنة الموت في حروب أهلية متكررة الديمومة هما منهج الخروج من الواقع والقطيعة معه ومع الاجتماع والعلم والعالم والانكفاء، إلى مجتمع مغلق، يستبدُّ به علماء أخرجوا أنفسهم من دائرة حكم البشر للبشر نيابة عن كل الخلفاء و«ورثة» الأنبياء، والأئمة والصحابة الغاربيين لتوسيع دائرة قدسية أقوالهم وعصمتها. ولهذا عاد أنصار داعش من رحلتهم إلى الجاهلية الأولى ليقدموا طوعاً على ارتكاب مجازر أشبه بمجزرة بجران، مع العزم على الاستمرار بها سبباً وقتلاً للمسلمين أنفسهم ولأهل الموصل حتى الرقة، من المسيحيين والمشركيين وغيرهم من الشيع التي ذكرها الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» حتى يبقى وجه ربهم ويقام حكم الله على أرض خاوية من أهلها إلا الذين خروا صاغرين لهم. إنها حرب البسوس مع قدسية مجددة:

أنت البسوس التي أفنت بناقتها بكرةً وتغلب حتى أقفر البلد. اعتدنا كثيراً في الكتابات اليسارية استعارة تعليق ماركس الشهير على هيجل «إن التاريخ يعيد نفسه مرتين، لكنه يحدث في الأولى كمأساة وفي الثانية كمهزلة». لكن نسينا قوله أيضاً أن التاريخ لا

يصنع شيئاً بحد ذاته حين لا يتعلم الإنسان منه شيئاً ويستعند في إعادة إنتاج عبوديته وسيره إلى مثواه الأخير كممثل مسرحي في نظام اجتماعي قد مات أبطاله الحقيقيون. وما أضاف الداعشيون إلى ذلك إلا تلك الحلقة المفرغة التي تدور على نفسها تكراراً للمآسي والمهازل حتى تنقطع سرعة دفعها بإضاعة طاقتها وبأسها في ما بينها. إنَّ ما تميّز به التجربة الروحية المذهبية هو هذا الثابت فيها: القطيعة، وتحديداً ما يطلق عليه ميشال دو سرتو اسم القطيعة المؤسّسة. إلا أنَّ القطيعة المؤسّسة في التجربة الدنيوية المذهبية إذا بلغت طورها الكوميدي والمأساوي الأخير تنقلب إلى قطيعة سياسية مع العالم لا تؤسّس لأيِّ شيء سوى دمارها الذاتيِّ ممّا، ينقلها بالضرورة إلى دائرة المقدّس الموهوم أملاً لحامله أن يغفر الله ذنوبه الإجرامية باسم خالقه. فحامل هذه القداسة المذهبية قد يعتقد صادقاً أنَّ تجاربه الأرضية المجهضة ما هي إلا صورة لوجه الإله الغاضب في العالم لخطيئته الجاهلية الأولى وتكرارها في الفتن الكبرى والصغرى على مر التاريخ. وغضب الله هذا يشير إليه بورسوك عرضاً وباختصار عندما يتحدث عن تشكك البيزنطيين في أصالة مسيحية الأحباش، أو ما تشير إليه باتريشيا كرون عن الأنبياء الزرداشتيين وعلاقتهم بالانتفاضة الفلاحية على عهد الساسانيين. إنه غضب الله المتكرر وضرورة الردّ عليه بالرجوع إلى أصل لم يستقم إلا في حروب منهكة لكلا الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. ربما استحالة تكرار النفس النبوي

الزرداشتي والمسيحي وتحولهما إلى أديان إمبراطورية تتحكم بممالك يهودية حميرية وأخرى حبشية هو ما يفسر جو الجمود اللاهوتي الذي حطمه الإسلام دون أن تكون قطيعة مع التراث الإبراهيمي كله.

القطيعة المعرفية المضادة

استحالة هذا التكرار على الطريقة المسيحية أو اليهودية أو الزرداشية أو الإسلامية هو ما لم يفهمه العقل السلفي الذي لا يقوم إلا على النقل والعود الأبدى إلى أصل الدولة الأولى التي غدت إمبراطورية بدورها بعد الفتوحات الإسلامية.. وهذا ما يلخص أزمة المسلم السلفي في هذا الزمان الذي انتهت فيه الإمبراطورية الإسلامية حتى قبل غزو المغول لبغداد.

فالسلفي إنسان «متأزم». وقد جاء في اللسان أن «المتأزم -- هو - المتألم لأزمة الزمان» المتمثلة في العيش ضمن أنظمة أنتجت الخوف والرعب والتعذيب وسخرت أفكار الحداثة لغايات تنافيه، ليلقي بتبعة العنف الأصلي على الآخر الجاهلي من أهل البدع. فكل الحكام المعاصرين من ملوك وعسكريين انقلابيين أو مدنيين الذين يستوردون شرعة الدساتير الحديثة أو شرعة حقوق الإنسان الفردية والجماعية هم فراعنة أو مجوس أو قيصر أو كسرى أو طاغوت قديم قدم هذا العالم السفيل السافل والفاجر.

إنَّ القراءة اللاتاريخية للتراث والقطيعة مع كل الفكر والتراث المادي وغير المادي الذي سبق الإسلام وتلاه، ومع ما فات السلطنة العثمانية ودول ما بعد الاستقلال الوطني من تطوّر للعلوم الأنطروبولوجية

السياسة والاجتماع والدين في آنٍ معاً
كما كان العرب يندون بناتهم خوفاً من
العار والسبي.

**والبحر متسع وخاو لا
غناء سوى الهدير / وما
يبين سوى شراع رنحته
العاصفات وما يطير**

لعلّ السفر في تاريخ ما قبل
الإسلام مع بورسوك يساعد على
معرفة أن أبطال الزمن التأسيسي الأول
كانوا أكثر انفتاحاً على العالم وفهماً
لصعود وانحلال الحضارات وشروط
بناء الدول وإحلال السلام الأهلي،
دون ذلك التأزم وإنكار اختلاف
الواقع الحالي عمّا سبقه من العصور
الجاهلية وغير الجاهلية. لكنه أيضاً
قد يزيد حدة انفصام الشخصيات
الجماعية المنقسمة على نفسها لكثرة
محطاتها التاريخية المتأزمة وتعدد
أمراء المؤمنين المتضارين.

على نحو تاريخي، لا مناص من
الدوران في الحلقات المفرغة المذهبية
والسلفية التطهيرية لبعضها البعض
ولآخرين الكفرة.

إنّ النبي العربي كان أول من مارس
هذه القطيعة المعرفية مع الإيديولوجيات
المهيمنة حينذاك دون أن ينكر إنسانية
الآخرين وأهمية لاهوتهم وأفكارهم
والطوباوية. وتكمن ميزة القرآن
وفرادته في استرجاعه لقصاص الأنبياء
ولعلاقة ورثة آدم بالخلافة على الأرض،
وأنه يستعصى على الاختزال إلى رأي
واحد أو إلى مذهب وحيد، على عكس
ما تعامل معه أصحاب الفكر السلفي
من العلماء الذين لن يتوقفوا حتى
يكرهوا جميع الفرق المعارضة لهم
على احترام صنمية تفسيرهم للنص
القرآني وتغليبهم النقل على العقل
ورمي كل التاريخ العربي إلى بحر
أحمر من دماء العرب والمسلمين وغير
المسلمين في عبثية وعدمية تنهّد معنى

والفلسفية والاجتماعية والنفسية
وغيرها، يستلزمان قطيعة معرفية،
مضادة هذه المرّة، مع مجموعة من
المفاهيم والمقولات وطرائق التفكير
النحوية والفقهية والتوحيدية
المختزلة بالتقليد والنقل بلا عقل.

لا يعني ذلك قذف التراث
الإسلامي إلى سلة المهملات التاريخية
وإنما التعامل معه كتراث تاريخي
حكّمته اعتبارات سياسية واجتماعية
غير متكررة في معناها وتاريخها
وانقاساماتها وانتصاراتها أو هزائمها.
فالقطيعة التي دعا إليها مفكرون أمثال
أبو زيد والجبّاري ومحمد أركون ليست
القطيعة مع التراث بل القطيعة مع نوع
من العلاقة مع التراث، القطيعة التي
تحوّلنا من كائنات تراثية تكرارية
إلى كائنات لها تراث قادرة على أن
تهضمه دون إنكار إنسانية الآخرين.
وطالما بقي مكان السلطة منفصلاً عن
مكان المعرفة الإنسانية وقراءة التراث

الهوامش

٥ جرى بين المفسرين ومؤرخي لإخبار نقاش مطول بخصوص الإجابة عن
المعنى بهذا القول وهناك روايات أشبه بتغريبة بني هلال وأحاديث الرواة بغية
الوعظ وتفصيل المارك والأسماء وانتحار الملك الحميري في البحر أوقته في
مبارزة فروسية على يد فرسان النجاشي الملك كاليب. «إذ أمر النجاشي عليهم
رجلاً من الحبشة يقال له أرياط، ومعه في جنده أبرهة الأشتر، فركب أرياط
البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس، وسار إليه ذو نواس في حمير، ومن
أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو
نواس ما نزل به ويقومه، وبجّه فرسه في البحر، ثم ضربه فدخل فيه، فخاض به
ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمرة، فأدخله فيها فكان آخر العهد به».

٦ ويعتبر الشاعر سويد بن عامر المصطلقي من الحنفين أيضاً لقوله:
لا تأمن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني / فكل ذي صاحب
يوما يفارقه وكل زاد أبقيته فان

٧ لا يتسع المجال لأبعد مما سبق في سبر التحولات القدسية لما قبل الإسلام
وما بعده ولا سيما أنه صدر حديثاً كتاب عزيز العظمة يدرس ظهور الإسلام
حسب المصادر العربية
The Emergence of Islam in Late Antiquity: Allah and His People، وهو
جدير بالمتابعة.

٨ في هذا الكتاب، يقسم المنظر القاعدي أبو بكر ناجي التاريخ إلى ثلاث مراحل
كما يراها أهل «الدولة الإسلامية» اليوم: مرحلة شوكة النكابة والإنهاء،
مرحلة إدارة التوحش حيث ستكون بدائل جاهلية جديدة، ثم مرحلة شوكة
التمكين وإقامة الدولة.

١ G.W. Bowersock, *The Throne Of Adulis, Red Sea Wars On The Eve Of Islam*,
Oxford University Press, Oxford، ٢٠١٣.

٢ ذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم أن العربية تسمى
البحر الأحمر «بحر القلزم»، بعكس اليونان الذين أطلقوا على البحر الأحمر
تسمية «مار اريتريوس» ومنه اشتق اسم اريتريا التي كانت تحت حكم مملكة
سبأ ثم مملكة أكسوم الحبشية المسيحية. إلا أنه يقال أن كلمة «أدام» العبرية
تعني الأحمر وهو البحر الذي طرحت فيه أم موسى سلة موسى لما خافت عليه
من فرعون. وقد عبر بنو إسرائيل البحر الأحمر برفقة نبي الله موسى كما ورد
في القرآن:

(فَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)
(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا)

٣ Beaucamp, Briquel-Chatonnet et C. Robin
Le Massacre De Najran: Regards Croisés Sur Les Sources
«مجزرة نجران: نظرات متقاطعة إلى المصادر» ٢٠١٠

٤ وقد وجدت في شعر عدي بن زيد العبادي في العصر الجاهلي ما يتعلق بما
يرويه بورسوك من نسبة ذلك الحدث إلى ملك أكسوم النجاشي كاليب (وعدي
معاصر فقد عاش في القرن السادس الميلادي) فقال يبكي صنعاء بعد غزو
الحبشة ودخول مدن اليمن:
سأقت إليها يد الأقدار جند بني الأحرار فرسانها مراكبها / يوم يتادون آل بربر
وآل يكسوم لا يغلبن هاربها

طوما بيكتي ديناميات اللامساواة

طوما بيكتي

اقتصادي فرنسي
وأستاذ جامعي،

من مؤلفاته
«اقتصاد التفاوتات»

(٢٠٠٤)

و«رأس المال في القرن
الحادي والعشرين»

(٢٠١٣).

١ «الحقبة الجميلة»
هي الفترة من
تاريخ أوروبا
المتدة بين العام
١٨٧١ والحرب
العالمية الأولى
العام التي ساد
فيها السلام
والنفاؤل وتكاثر
المكتشفات
العلمية والتطور
التكنولوجي
وإزدهار الآداب
والفنون.

٢ «السنوات الثلاثون
المجيدة» هي
السنوات بين
١٩٤٥ و١٩٧٦
التي شهدت
خلالها أوروبا فترة
نمو اقتصادي مطرد.

حاولت أن أفعل ذلك من دون التغاضي عن تواريخ
الثروة الوطنية - على سبيل المثال، الدور الذي يؤديه
رأس المال الناتج من تجارة العبيد في الولايات المتحدة،
ونموذج راينلاند في ألمانيا، أو حجم الدين الوطني
البريطاني في القرن التاسع عشر، مما زاد الثروات
الخاصة من خلال إنتاج أصحاب ربوع مالية بالإضافة
إلى أصحاب الربوع العقارية (ملاك الأراضي) أصلاً.
كان الوضع مختلفاً في فرنسا، لأنّ الدين الوطني قد
سُدّد مرات عدّة، كما أدّى التأميم دوراً مركزياً في
اقتصاديات البلاد. وبذلك، تملك كل دولة خصوصياتها
وتاريخها الثقافي الخاص. وتعتمد الردود الوطنية على
اللامساواة على نظرة الدولة إلى نفسها في علاقتها
بالأطراف الأخرى.

على سبيل المثال، بررت الولايات المتحدة في معظم
الأحيان اللامساواة المحلية بالإشارة إلى اللامساواة
السائدة في أوروبا. فكانت النظرة إلى أوروبا أنها أرض
امتيازات، مما أفضى إلى قيام الأميركيين بفرض ضريبة
مصادرة على المداخل العليا في مطلع القرن العشرين
لتجنّب التشبّه بأوروبا القديمة، التي كانوا يعتبرون أنّ
اللامساواة تسود فيها بشدّة. وعلى الطرف النقيض
من ذلك تماماً، أدان الأميركيون سيادة الروح التشاركية
ونزعة المساواة السائدة في أوروبا، وهو الحال في
العقود الحديثة. وهكذا ترى أن كل بلد ينظر إلى نموده
الاقتصادي الخاص على أنه الأكثر عدلاً في جوهره من
سواه من البلدان.

لا يعبر تركيزي على قوانين عالميّة معيّنة، مثل
العلاقة بين معدّل النمو وعوائد رؤوس الأموال، عن أي
إيمان بالحميّة الاقتصادية المطلقة - بل على العكس،
لكن لا يمكن تجاهل أوجه الشبه، في القرن العشرين،

◆ يضمّ كتابك الجديد بعنوان «رأس المال في القرن
الحادي والعشرين»، نتائج برنامج أبحاث مذهل جداً،
يعتمد على منهج مقارن طويل الأمد^١. وتبدو النتائج
التي حققتها دول مختلفة على مستوى توزيع الثروة
متطابقة بشكل ملحوظ، ما يشكل تحدياً لنظريات
«التقارب» كما للمفهوم الذي يفيد بأنّ مستويات
اللامساواة تميل إلى التراجع مع الوقت. كيف تفسّر
الغياب النسبي للخصوصيات الوطنيّة - وإلى أي مدى
تساهم هذه النتائج الطويلة الأمد في توقّع المستقبل؟

■ يرسم كتاب «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»
إطاراً تفسيريّاً عاماً للبيانات التي جمعها فريق كامل
من الباحثين. ويختلف هذا الكتاب كثيراً عن الكتاب
الذي ألّفته في العام ٢٠٠١ عن المداخل العليا في
فرنسا، حيث إنّّه ينظر إلى ٢٤ دولة تقريباً عوضاً
عن دولة واحدة فقط، ويغطي فترة تمتدّ على قرون عدّة
ويدرس الثروة من حيث الأصول والمداخل^٢. والمهم
في ما يتعلق بالأصول هو أنّ البيانات المتاحة تسمح لنا
بإلقاء نظرة أطول على الفوارق في الثروة. لم تُستحدث
الضريبة على الدخل في معظم الدول الغربية إلا في
مطلع القرن العشرين. بناءً عليه، لا يمكننا أن نعود إلى
الوراء بما يكفي لوضع الحربين العالميتين في المنظور
الصحيح. ويتيح لنا تحويل الاهتمام من الدخل إلى
الأصول، بما في ذلك الثروة الموروثة، تحويل النموذج
الاستقصائي وتعميق الإطار الزمني بالعودة إلى الثورة
الصناعيّة، ودراسة الديناميات المطبّقة في القرن التاسع
عشر. كان هذا التوسيع في نطاق البحث ليبدو مستحيلًا
من دون مساعدة زملائي.

أما بالنسبة إلى أوجه الشبه بين الدول، فينبغي
استخلاصها من البيانات وترسيخها في التحليل.

المال، وبالتالي ثمة ميلٌ إلى تنامي اللامساواة عوضاً عن تراجعها. كانت هذه هي الحال على مدى فتراتٍ طويلة من التاريخ البشري، إلا في القرن العشرين.

تستند فرضية «التقارب»، التي تقول إنَّ اللامساواة ستراجع تلقائياً مع تطوُّر الرأسمالية، إلى أسس نظرية وتطبيقية هشة. وهي تركز بشكل كبير على فرضية صاغها سيمون كوزنيتس في خمسينيات القرن الماضي. لاحظ هذا الأخير تضالَّو التفاوت في الدخل في الولايات المتحدة بين عامي ١٩١٠ و ١٩٤٠، وقد رغب الاقتصاديون في تصديق هذه النتائج المتفائلة وحولوها إلى قانون. والواقع أنَّ هذا التراجع في اللامساواة يُعزى بشكل كبير إلى الحربين العالميتين، لكنَّ الناس اقتصروا بأنَّ هناك آلية نظرية عالمية معيَّنة أنتجت ميلاً نحو الانسجام. وثمة عاملٌ آخر يتمثل في وجود دراسات تاريخية قليلة جداً عن اللامساواة، ويعزى ذلك جزئياً إلى الفصل المنهجي بين التاريخ والاقتصاد.

سعت إلى تقديم نظرة متوازنة عن الديناميات السارية المفعول. ومما لا شك فيه أنَّ هناك بعض قوى الدافعة باتجاه «التقارب»، وأبرزها انتشار المعرفة، حالياً، تعتبر مستويات نصيب الفرد من الإنتاج متشابهة جداً بين الدول الرأسمالية المتقدمة - أوروبا، والولايات المتحدة، واليابان. ويقدر متوسط الدخل الفردي بـ ٣٠ ألف يورو تقريباً في هذه الدول جميعها. الاختلافات ضئيلة، على الرغم من تباينات واسعة في النماذج الاجتماعية الوطنية ومعدلات الضريبة الإلزامية. ويحتمل أن تستمر عملية «التقارب» هذه وأن تشمل بعض الدول النامية أيضاً، لكن، إذا نظرنا إلى ديناميات الثروة، ثمة ضغوطات كبيرة تدفع نحو «التقارب»، داخل البلدان كما على المستوى العالمي. في عالم من النمو الاقتصادي الضعيف، فإنَّ تفوُّق عائدات رأس المال على معدلات النمو، يتزايد الميل إلى تنامي اللامساواة المتوارثة في الثروة.

◆ هل الصدمات الخارجية وحدها، كالحروب، هي التي تستطيع أن تحدَّ من هذا التراكم؟

■ من شأن النمو أن يعوِّض عن عملية التركيز في [الثروات]. إلا أنَّ النمو الضعيف لا يستطيع التعويض عن ذلك كثيراً. كان ماركس والليبراليون الجدد على خطأ بشأن النمو، فماركس تجاهله، فيما يعتقد الليبراليون الجدد أنَّه الحل للمشاكل جميعها. يعزو ماركس النمو إلى تراكم رأس المال وحسب، دونما زيادة مستقلة في

تشاركت الدول الأوروبية في تجربة حربين عالميتين. وقد تطوَّرت ديناميات اللامساواة في مسارات متشابهة في هذه الدول جميعها؛ تحت الفوارق بسرعة خلال «الحقبة الجميلة»^١، مع تركيز منقطع النظير للثروة، ثم تراجعت تدريجياً بعد عام ١٩١٤ بسبب التغيرات الاجتماعية الناجمة عن الحرب وتصفية الاستعمار وقيام دولة الرفاه. لكن منذ ثمانينيات القرن الماضي، تصاعدت ديناميات اللامساواة من جديد. اختبرت الدول دماراً مادياً بدرجات متفاوتة بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ ثم بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥، لكن في النهاية، كانت للصدمات السياسية وأعباء الإنفاق في زمن الحرب تأثيرات ماثلة على اقتصادياتها. وهذا ما حدث بالفعل في المملكة المتحدة، على سبيل المثال، التي عانت دماراً أقل من فرنسا أو ألمانيا، لكنها مع ذلك خرجت من الحرب العالمية الثانية وقد تقلصت ثرواتها الخاصة إلى حدٍّ كبير. وخلال حقبة «السنوات الثلاثين المجيدة»^٢، أدى هذا التراجع في مستويات الثروات الخاصة إلى وهم بأننا دخلنا مرحلة جديدة من الرأسمالية - نوعاً من الرأسمالية من دون رأس مال، أو أقله من دون رأسماليين. لكنَّ الرأسمالية لم تُستبدل بأي نظام بنوي بديل. عوضاً عن ذلك، كانت تلك بشكل أساسي مرحلة انتقالية من إعادة الإعمار للرأسمالية. تمت استعادة الثروات وإن بشكل تدريجي. واليوم فقط، في مطلع القرن الحادي والعشرين، نجد المستويات نفسها من الثروة كما كانت في السنوات التي مهَّدت للحرب العالمية الأولى: حيث تبلغ ستة أضعاف الدخل الوطني السنوي تقريباً، مقابل أكثر بقليل من ضعفي الدخل الوطني في خمسينيات القرن الماضي.

تستند فرضية «التقارب». التي تقول إن اللامساواة ستراجع تلقائياً مع تطور الرأسمالية. إلى أسس نظرية وتطبيقية هشة.

لا شك في أنَّ الفروقات الوطنية لا تزال قائمة. على سبيل المثال، في ألمانيا كان معدل تثمير رأس المال أدنى منه في فرنسا لأنَّه، من بين أشياء أخرى، في نموذج راينلاند يتقاسم المساهمون مع الموظفين ملكية الشركات. لكن رغم ذلك، تبقى ميول عامة مشتركة - لاسيما أنَّ معدلات النمو أدنى من العوائد على رأس

الإنتاجية. ويتمثل التناقض المنطقي في الرأسمالية الذي حدّده ماركس في أنّ نسبة رأس المال إلى الدخل ترتفع إلى ما لا نهاية، فلا بد بالتالي من أن تنخفض عائدات رأس المال في نهاية المطاف إلى الصفر. من هنا أن النظام الرأسمالي غير مستقر في جوهره وهو يفضي بطبيعة الحال إلى الثورة. غير أن تجربة القرن العشرين تظهر أنّ هذا النهج قائم جداً على الصعيد الاقتصادي (وآلي جداً في خلاصاته السياسية).

إن ارتفاع العوائد على رأس المال بالنسبة إلى معدل النمو لا يمت بصلة إلى الاحتكار ولا يمكن أن يحل بالمزيد من المنافسة.

إن الإنتاجية المتزايدة والنمو السكاني أديا إلى توازن معادلة ماركس وتجنّب الميل التراجعي للعائدات. لكن لا يمكن بلوغ نقطة التوازن إلا على مستوى مرتفع جداً من التراكم ومن تركّز الثروة، وذلك لا يتناسب مع القيم الديمقراطية. فلا شيء في النظرية الاقتصادية يضمن القبول بمستوى الفروقات عند نقطة التوازن، كذلك لا شيء يضمن وجود آليات تلقائية لتحقيق الاستقرار من شأنها تحقيق توازن مستدام.

فضلاً عن ذلك، ادّعى البعض أنّ معدّل العوائد على رأس المال سيتراجع «بشكل طبيعي» إلى مستوى معدل النمو. بيد أنّه ما من دليل تاريخي على ذلك. خلال معظم حقبة التاريخ البشري كان معدل النمو صفرًا، لكن ذلك لم يمنع وجود عوائد على الأصول - وعادة يراوح العائد على إيجار الأرض بين ٤ و ٥ بالمئة. وبالفعل كان ذلك القاعدة التي قام عليها النظام الاجتماعي، إذ إنّه مكّن مجموعة من الأشخاص، هي الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأراضي، من أن تعيش من هذه الإيرادات. والواقع أنّ معدل العائد على الأصول كان دائماً أعلى على المدى الطويل من معدل النمو. لا يطرح ذلك أي مشاكل منطقية، بيد أنّه يطرح السؤال عما إذا كان إنتاج اللامساواة وتعزيزها، اللذين يتولّدان عن هذا المعدّل، مقبولاً، في إطار ديمقراطي.

شاع الاعتقاد في القرن العشرين بأنّ قوى العقلانية سوف تؤدي إلى القضاء على الربيع الاقتصادي، أي على

الفائض في الإيرادات الذي يمكن تحصيله بفضل الموقع المميز. يتبيّن ذلك من خلال تطوّر اللغة. اليوم يرتبط «الربيع» بانتظام به «الاحتكار». ولدى سؤال ماريو دراغي، رئيس البنك المركزي الأوروبي، عما ينبغي القيام به لإنقاذ أوروبا، يجيب بأنّه لا بد من مكافحة السعي وراء الربيع، ويعني بذلك فتح القطاعات المحمية، كقطاع سيارات الأجرة والصيدليات مثلاً، أمام المنافسة، وكأنّ المنافسة وحدها من شأنها القضاء على الربيع الاقتصادي.

إنّ ارتفاع العوائد على رأس المال بالنسبة إلى معدل النمو لا يمت بصلة إلى الاحتكار ولا يمكن أن يحل بالمزيد من المنافسة. بل على العكس تماماً، كلما كان سوق رأس المال أنقى وأكثر تنافسية، اتسعت الفجوة بين العائد على رأس المال ومعدل النمو. وتتمثل الحصلة النهائية في الفصل بين المالك والمدير. بهذا المعنى، فإن الهدف من عقلانية السوق ذاته يسير في الاتجاه المعاكس من مبدأ الكفاءة. كذلك فالهدف من مؤسسات السوق ليس هو تحقيق العدالة الاجتماعية، ولا ترسيخ القيم الديمقراطية، فنظام الأسعار لا يعرف الحدود ولا الأخلاق. وعلى الرغم من أنّه لا يمكن الاستغناء عن السوق، ثمة أدوار لا يمكن للسوق أن تؤديها، فيلزمها مؤسسات مخصصة.

غالباً ما ساد الاقتناع بأنّ القوى الطبيعية للمنافسة والنمو قادرة على تبديل مواقع الأفراد تلقائياً وباستمرار. لكن في تجربة القرن العشرين، كانت الحروب أساساً هي التي دمرت الماضي وسوّته بالأرض وأعادت توزيع الأوراق مجدداً. إنّ المنافسة لن تضمن بذاتها الانسجام الاجتماعي والديمقراطي.

◆ يعيد كتاب «رأس المال في القرن الحادي والعشرين» التأكيد على أهمية التاريخ الاقتصادي، ما يستلزم التفاعل مع العلوم الاجتماعية الأخرى. كيف يمكن للأبحاث أن تحرّر نفسها من هيمنة النظرية الاقتصادية التي تستند إلى الرياضيات لإحداث هذا التحوّل؟

■ أعدّ نفسي عالماً اجتماعياً بقدر ما أنا عالم اقتصاد. عندما تدرس مسائل مثل توزيع الثروة، تكون الحدود مرنة ومن الضروري دمج المقاربات. بعدما أنهيت شهادة الدكتوراه في دار المعلمين العليا، أمضيت مطلع تسعينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة، في التدريس في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وأماكن أخرى، وكان يفاجئني كثيراً الرضا الذاتي لدى الاقتصاديين في الجامعات هناك. كانوا مقتنعين بأنّ أساليبهم علمية أكثر بكثير من أساليب زملائهم في ما يسمى بالعلوم

«المرنة» مثل علم الاجتماع، والتاريخ والأنثروبولوجيا. لكن «علمهم» كان غالباً إيديولوجياً جداً.

منذ سقوط جدار برلين، أدى الاقتصاديون دوراً رئيساً في إضفاء الطابع المثالي على السوق، في الولايات المتحدة كما في سائر العالم. وعلى الرغم من خلفيتي العلمية، كنت أنجذب دوماً إلى التاريخ. ومنذ البداية حاولت أن أجمع بيانات عن التطور التاريخي لتوزيع الثروة، لأنّ البيانات المتوافرة كانت قليلة. وبخلاف ما تسمعونه أحياناً، البيانات التاريخية متوافرة، وما عليكم إلا أن تخصصوا الوقت لجمعها، من خلال الذهاب إلى أرشيف وزارة المالية أو سجلات الوصايا مثلاً. لست ضدّ النظريات، إنما ينبغي استخدامها باعتدال: يمكن تفسير الكثير من الوقائع من خلال كمّ قليل من النظريات. لكن في معظم الأحيان يفعل الاقتصاديون العكس. يستخدمون سيلاً من النظريات، ويتوهمون أنهم يتبعون النهج العلمي، على الرغم من أنّ أساسها الواقعي قد يكون هشاً للغاية.

يستخدم الاقتصاديون سيلاً من النظريات، ويتوهمون أنهم يتبعون النهج العلمي.

◆ في مواقع عدّة، تستعين بالأعمال الأدبية للتعبير عن الطبيعة المتغيرة للامساواة. في أعمال بالزك وأوستن، تُذكر بشكل منهجي ممتلكات الشخصيات ومداخيها، كان القراء في ذلك الوقت يعرفون ما يعنيه ذلك. في الأدب المعاصر، ضاع هذا المقياس: هناك تقديرٌ ضئيل للوضع الاقتصادي للشخصيات. هل اكتسبت حالات اللامساواة نوعاً من الخفاء المعرفي، ما جعلها مقبولة اجتماعياً أكثر من السابق؟

■ كتابي هو إلى حد كبير وليد الخوف من أنّ البنى الاجتماعية أخذت في التغيّر تدريجياً، بشكل لا يمكن العودة عنه، دون أن ننتبه لذلك. فالديناميات لا تتجلى بسرعة، وثمة خطرٌ حقيقي يتمثل في أن نستيقظ يوماً ما لنجد مجتمعاً من اللامساواة أفدح من مجتمع القرن التاسع عشر، إذ إنّ سيمزج عشوائية اللامساواة الموروثة مع خطاب عن الجدارة يحتمل «الخاصرين» مسؤولية وضعهم – بحجة تدني إنتاجيتهم، على سبيل

المثال. ثم إنّ تمثيل حالات اللامساواة هذه في الأدب قد يتدنى بفعل اختفاء المعايير النقدية، بين أسباب أخرى. في القرن التاسع عشر، الذي لم يعرف التضخم، كانت تلك الحالات راسخة كالنقش في الحجر، بحيث يفهم كل قارئ على الفور المقصود من المبالغ المالية المذكورة في أعمال بالزك وأوستن. بيد أنّ النمو والتضخم الكبيرين في القرن العشرين محيا هذه المعايير. تتقدم الأرقام بسرعة حتى إنّنا قد نواجه اليوم صعوبة في الربط بين أجر من تسعينيات القرن الماضي ومستوى معيشة معيّنة أو قوة شرائية معيّنة.

إن الإيمان الجماعي بالتقدّم ويرفع مستويات المعيشة، يعني رفض تخيل عالم حديث تنتشر فيه اللامساواة بقدر ما كانت عليه في القرن التاسع عشر. طبعاً لم نبلغ تلك المرحلة بعد، ولا أريد أن أقع في شرك الكارثية. لكن ذلك قد يحدث، بتوافر ظروف معيّنة. هناك عمى إرادي عن منطق الديناميات المعاصرة. على سبيل المثال، يرفض مكتب الإحصاء الوطني نشر أسماء أصحاب المداخل العليا – وهم لا يتجاوزون عادة واحداً من عشرة بالمئة من السكان، وتلك سياسة رسمية حجّتها عدم «إثارة النزعات الشعبوية» والحسد. وبحسب هذا المنطق، من الممكن إظهار تقرير يعود إلى عام ١٧٨٨ يفيد بأنّ كل شيء كان على ما يرام، ما دامت الأرستقراطية لا تشكل أكثر من واحد أو اثنين في المئة من الشعب. لكن في بلد كفرنسا أو بريطانيا، لا تزال نسبة الواحد في المئة توازي ٥٠٠ أو ٦٠٠ ألف شخص، وهي توازي الثلاثة ملايين في الولايات المتحدة. وهذا العدد الكبير من الناس يشغل مساحة كبيرة، وهو يدير نظاماً اجتماعياً بمجمله. ليس الهدف من ذلك إثارة الحسد – إذ إنّ الفوارق الاجتماعية لا تطرح أي مشاكل إذا كانت مفيدة للجميع كما توضح المادة الأولى من إعلان حقوق الإنسان والمواطن لعام ١٧٨٩ («الفوارق الاجتماعية مجازة بشرط مساهمتها في الفائدة المشتركة حصراً»). لكن ينبغي تنظيمها عندما تبدأ بالتعارض مع المصلحة العامة.

عندما يفشل الباحثون والمؤسسات العامة في وصف حالات اللامساواة القائمة من خلال مصطلحات دقيقة، يعني ذلك التنازل الحقيقي عن المسؤولية، ما يترك المجال مفتوحاً أمام ترتيب الثروات لمجلات مثل «فوربس»، أو لـ «تقارير الثروة الكونية»، وهو ترتيبٌ صادرٌ عن





تتقاعد. يوفر هذا الوهم نظرة مطمئنة إلى اللامساواة في الثروة، إذ إنه يلمح أنَّ الجميع سيبدأ فقيراً ثم ينتهي غنياً على التوالي، وهو أمرٌ منطقي بما فيه الكفاية. لكنّه يشكّل جزءاً صغيراً جداً من تراكم الثروة وتركيزها؛ في الواقع، اللامساواة في الثروة كبيرة ضمن الأجيال كما هي في ما بين الأجيال. بمعنى آخر، لم تحلّ حرب الأجيال محل الحرب الطبقيّة. ويتمثل أحد أسباب ذلك في البعد التراكمي لتركيز الثروة؛ فحيثما يظهر تراكم وتوارث في الثروة، يتسارع التركيز.

لإعطاء مثال ملموس عن ذلك، من الأسهل الإخبار -- وبذلك تكديس الثروة -- عندما تكون قد ورثت شقة وليس عليك أن تدفع الإيجار. قد تُضاف إلى ذلك أنظمة التقاعد المحددة الاستحقاقات، بمعنى أنها تساعد في الحفاظ على الثروة المتراكمة، إذ إنّ الناس لا يحتاجون إلى إنفاق أموالهم في فترة التقاعد.

أما الوهم الثاني فهو نظرية «رأس المال البشري» وهي تستند إلى فكرة تقول إنه مع التقدّم التكنولوجي، قد تتقدم المهارات البشريّة على العامل، والمباني، والآلات الصناعيّة وما إلى ذلك، وستزداد الحاجة إلى الخبرة الفردية وتقلّ الحاجة إلى رأس المال غير البشري -- العقارات، والمواد، والأصول الماليّة. وبحسب هذه الفرضيّة، سيحلّ المديرون محل مالكي الأسهم في الشركات. حسناً، لم يحدث ذلك. تقدّمت المهارات، وتقدم أيضاً رأس المال غير البشري، والعلاقة بين الاثنين لم تتغير كثيراً. حتى إنّ المرء يستطيع تخيل اقتصاد ألي في القرن الحادي والعشرين تراجع فيه مساهمة رأس المال البشري في الدخل القومي. لا يعني ذلك أنّ حدوث الأسوأ محتمّ، بل أنّ السوق تفتقر إلى آلية للتصحيح الذاتي. نحن بحاجة إلى إقامة مؤسسات قادرة على أداء دور تصحيحي. وإنني أحاجج في أن فرض ضريبة تصاعديّة على الرأسمال الخاصّة قد يشكّل مثل تلك الآلية.

◆ أنت تسلّط الضوء على دور النظام الضريبي في القسم الأخير من كتاب «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»، الذي تناقش فيه سيناريوهات عدّة للهروب من فخ الديون، بما في ذلك قضاء الديون، والتضخم، والتخلف عن السداد. من المؤكّد أنّ الدين هو أحد العوامل التي ترعى استمرارية الثروات الضخمة، بما أنّه ينشئ أصحاب ربوع ماليّة. لماذا تؤيّد الضريبة كحل؟ ■ ما أنادي به ليس أي ضريبة قديمة وحسب، إنّما

البنوك الكبرى التي تتلبّس دور «منتجي المعرفة». بيد أنّ الأساس المنهجي لبياناتها يبقى غامضاً، والنتائج إيديولوجيّة إلى حد كبير، تشكّل نشيداً في مديح زيادة الأعمال والثروات المستحقة بجدارة. فضلاً عن ذلك، يمثّل مجرد التركيز على «أغنى خمسمئة شخص» وسيلة لعدم تسييس مسألة اللامساواة. فهذا العدد صغير جداً لدرجة أنّه يصبح تافهاً. يبدو كأنّه يكشف حالة اللامساواة القصوى، فيما هو تصوّر في الواقع صورة ملطّفة عنها. ينبغي استيعاب حالات اللامساواة بأسلوب أكثر شمولاً.

يُمثّل مجرد التركيز على «أغنى خمسمئة شخص» وسيلة لعدم تسييس مسألة اللامساواة. فهـذا العدد صغير جداً لدرجة أنه يصبح تافهاً. يبدو كأنّه يكشف حالة اللامساواة القصوى.

إذا أخذنا الثروات التي تزيد عن عشرة مليارات يورو، على سبيل المثال، بدلاً عن الثروات التي تزيد عن المليار يورو، فهي تشكّل حصّة كبيرة جداً من إجمالي الثروة. نحن بحاجة إلى الأدوات المناسبة لتجسيد اللامساواة. وقد مثّل التحرك الأميركي تحت شعار «نحن الـ ٩٩ بالمئة» وسيلة مناسبة للقيام بذلك. فالتركيز على الواحد في المئة الأكثر ثراءً يفسح في المجال أمام القيام بمقارنة بين المجتمعات المختلفة التي قد تبدو غير قابلة للمقارنة في حالات أخرى. قد يبدو التحدّث عن «المديرين التنفيذيين لكبرى الشركات» أو «الرّيعيين» أكثر دقة، لكن هذه المصطلحات محدّدة تاريخياً.

◆ يجري تصوير حالات اللامساواة المعاصرة في بعض الأحيان على أنّها «حرب أجيال»، يُحرّم فيها الجيل الشاب من إرثه الاجتماعي، الذي تبدد على مواليد جيل طفرة الولادات ما بعد الحرب. ما رأيك بذلك؟

■ نشأ عن حقبة «السنّوات الثلاثين المجيدة» وهمان عظيمان بشأن اللامساواة. الأول هو مقارنة «حرب الأجيال» التي تقضي بأنّه، مع ارتفاع متوسط العمر المتوقع، تصير الأصول هي طريقة تحويل الدخل من مرحلة العمل إلى مرحلة التقاعد. وهكذا فأنت تكون فقيراً في شبابك، لكنك تراكم مدخولاً تنفقه عندما

التي تتخطى معدلات النمو. وأنت تتوقع أن تكون معدلات النمو المستقبلي ١ إلى ٢ في المئة للاقتصادات المتقدمة و٤ إلى ٥ في المئة للاقتصادات الناشئة من الآن حتى عام ٢٠٣٠، مع تباطؤ النمو العالمي إلى ١,٥ في المئة بحلول عام ٢٠٥٠. هذا التوقع يستند إلى مفهوم ميكانيكي، نوعاً ما، للمجاعة والتقارب. ما هو ردك على وجهة النظر البديلة التي لا تركز على التقارب بحد ذاته إنما على الديناميات الرأسمالية: الطاقة الفائضة المنهجية في مجال التصنيع، وبالتالي انخفاض معدلات الربح، ما يسبب انخفاضاً في الأجور وتحول الاستثمارات إلى المنتجات المالية، مع الحفاظ على الطلب الضعيف من خلال الاكتفاء بتوليد الائتمانات الهائلة وحسب؟

■ أحاول أن أبني استنتاجاتي بشأن معدلات النمو المستقبلية على تحليل التطورات السابقة، الناجمة عن ديناميات الرأسمالية والمنافسة. والجدير بالذكر أن معدلات النمو المنخفضة ليست نتاج التقارب وحسب، بل والأهم من ذلك، أنها نتاج نهاية النمو السكاني، وهذا ما يزيد احتمال نشوء فجوة كبيرة دائمة بين معدل العائد على رأس المال ومعدل نمو الاقتصاد في المستقبل. وثمة اختلاف مهم واحد بين استنتاجات ماركس واستنتاجاتي، ألا وهو أن ماركس وثق بأنهيار معدل الربح، ما يوفر بطريقة ما حلاً إقتصادياً لمشكلة التطور طويل الأمد للنظام الرأسمالي. لا أعتقد أن هناك حلاً ممثلاً. واستناداً إلى الأدلة التاريخية والمنطق النظري، أستخلص أن معدل نمو العائد - الذي يشكل معدل الربح أحد عناصره - قد يبقى على نحو دائم أعلى من معدل النمو، كما كان عليه حتى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

◆ هل يمكنك أن تخبرنا المزيد عن البيانات التجريبية التي تعتمد عليها لدعم المطالبة بمعدل عائد تاريخي - يُفهم بأنه يشمل الربوع، إلخ، فضلاً عن الأرباح - يُقدر بخمسة في المئة؟

■ يستند القسم الأولان من الكتاب، اللذان يتناولان ديناميات نسبة رأس المال إلى الدخل، بشكل أساسي إلى حسابات وطنية تاريخية. وتستند هذه الأخيرة بدورها إلى مجموعة كبيرة ومتنوعة من المصادر، بما في ذلك إحصاءات الثروة - قيمة الأراضي، وقيمة العقارات، ورسملة سوق الأسهم - إلى جانب حسابات الشركات، ومجموعة الإيجارات، وما إلى ذلك. ويحتوي

ضريبة تصاعدية على رأس المال، وهي مناسبة أكثر من الضريبة على الدخل بالنسبة إلى «الرأسمالية الإرثية» للقرن الحادي والعشرين - وذلك لا يعني أنه ينبغي إلغاء الضريبة على الدخل، فالضريبة على رأس المال الخاص ضرورية لمكافحة اللامساواة المتزايدة، لكنها ستكون أداة مفيدة أيضاً لحل أزمات الدين العام، مع مساهمات من كل شخص حسب ثروته. سيكون ذلك الحل المثالي، الذي يصعب تحقيقه إنما لا غنى عنه. في قلب كل ثورة ديمقراطية عظمى. في الماضي كان هناك ثورة ضريبية، وسينطبق ذلك على المستقبل أيضاً.

التضخم هو ضريبة على رأسمال الفقراء، فهو يخفض قيمة الأصول الصغيرة - الأرصدة الفردية في البنوك - فيما تبقى الأسهم والعقارات محمية. هذا ليس الحل المناسب، لكنه الأسهل. وثمة احتمال آخر هو فرض عقوبة لفترة طويلة، كما فعلت المملكة المتحدة في القرن التاسع عشر لتسديد ديونها. لكن ذلك قد يستغرق عقوداً، وفي المحصلة ينفق مبلغ أكبر كفايدة على الدين مقارنة بالاستثمار في مجال التعليم. بطرق كثيرة، يعتبر دين الحكومة مشكلة زائفة: فهو بمثابة قرض أخذناه من أنفسنا. على مستوى الثروة الخاصة، لم تكن أوروبا يوماً غنية جداً. الدول هي الفقيرة، وبالتالي فإن المشكلة هي مشكلة توزيع. وقد غاب هذا الواقع البسيط عن الأذهان. تملك أوروبا ميزات كبيرة: نموذجها الاجتماعي، ومستواها المعيشي الموروث، وهما يشكلان ٢٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. وهي تملك فوق ذلك المساحة الجغرافية الكافية لإدارة الرأسمالية بشكل فعال، لكنها لا تفكر في ما هو أبعد من مستقبلها المنظور.

◆ أيدت الحزب الاشتراكي في الانتخابات الفرنسية لعام ٢٠١٢ وأسديت نصائح بشأن السياسات المالية لإعادة التوزيع التي ينبغي أن تتبعها فرنسا. هل فوجئت بتبني حكومة هولاند المطالب الرئيسية لاتحاد أصحاب العمل عوضاً عن ذلك؟

■ لم أفاجأ تماماً. ذلك أن هولاند قد انتخب بشكل أساسي لأن جمهور الناخبين أراد التخلص من سلفه، وهو بالتأكيد أمر رائع. لكن حقيقة، لم يكن لديه أي برنامج سياسي يتبعه.

◆ تقدّم عرضاً مقتنعاً على المدى الطويل لحالات اللامساواة المنبثقة عن معدلات العائد على رأس المال

كما إلى الاستجابات السياسية التي تلت ذلك. وقد أدت تغيرات سياسية جذرية - كبروز نظام الضريبة التصاعدية، والضمان الاجتماعي، والعمالة المنظمة، وما إلى ذلك - دوراً هاماً في ذلك. وتتمثل وجهة نظري ببساطة في أن هذه التغيرات، بما في ذلك طبعاً الثورة البلشفية والتهديد المترتب عنها في الشرق، كانت إلى حد كبير نتاج الصدمات التي سببتها الحربان والكساد الكبير. قبل عام ١٩١٤، لم يكن هناك أي ميل طبيعي نحو التخفيف من اللامساواة. كان النظام السياسي ديمقراطياً على الصعيد الرسمي، لكنه لم يكن يتجاوب بالفعل مع المستوى المرتفع والمتزايد من تركيز الثروات. وكان التخفيف من اللامساواة خلال القرن العشرين إلى حد كبير نتاج الاضطرابات السياسية العنيفة، وبدرجة أقل نتاج الديمقراطية الانتخابية السلمية. وأعتقد أن ذلك يساعد على تفسير هشاشة التوافق الذي بُنيت عليه بعض المؤسسات الديمقراطية المبكرة، وسبب تعرضها لهجوم عنيف منذ سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته. كذلك ساهم سقوط الشيوعية قرباً العام ١٩٩٠ بوضوح في ظهور إيمان لا محدود برأسمالية الاقتصاد الحر في تسعينيات القرن الماضي ومطلع القرن الحادي والعشرين.

◆ تشكك في ما إذا كانت مستويات اللامساواة المستدامة التي تتوقعها للفترة الباقية من القرن الحادي والعشرين ستكون منسجمة مع القيم الديمقراطية. ألا تضفي الطابع المثالي على القيم الديمقراطية، التي أشرفت بهدوء على تنامي خلال العقود الأربعة الماضية؟ مع تراجع الإقبال على صناديق الاقتراع والتقارب من حيث البرامج بين أحزاب يمين الوسط وأحزاب يسار الوسط، يكفي دعم ٢٧ في المئة من الناخبين لانتخاب حكومة موالية للسوق، كما شهدنا في اليونان. ما السبب الذي يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الترتيب لن يصمد إلى ما بعد القرن الحادي والعشرين؟

■ لست متفائلاً بشكل خاص بالمستقبل. غير أن الدروس المستمدة من الماضي تشير إلى أن اضطرابات عنيفة غالباً ما تؤدي دوراً رئيساً فيه، وأن المؤسسات الديمقراطية الرسمية لا تتجاوب غالباً مع تزايد اللامساواة، بسبب خضوعها لسلطة النخب المالية بنوع خاص. لكنني أود أن أصدق أن بإمكاننا أن نتعلم من الكوارث الماضية وأن نبتكر أساليب أكثر سلمية واستدامة لتنظيم الديناميات الرأسمالية.

ملحق الكتاب المتوافر على الإنترنت لائحة كاملة بالمصادر الأساسية التي استندت إليها، فضلاً عن ملفات البيانات ذات الصلة، وبخاصة بصيغة «Excel» أو «Stata»^٣.

◆ قمت أيضاً بعمل رائد على صعيد البيانات الضريبية. في حين يتخطى ذلك بوضوح الاعتماد على مسوحات الأسر المعيشية لدراسة حالات اللامساواة في الثروة والدخل، ألا تزال هناك مشكلة مع التهرب الضريبي من قبل الشركات الكبيرة؟ وعلى نحو مشابه، هل أنت واثق من أن بياناتك تحسّد بنحو كامل تراكم الثروة في الشراكات في مجال الأعمال، مثال تريليونات الدولارات التي تديرها شركة «بلاك روك»؟ عندما تُقسّم حقوق الملكية بطرق معقدة كهذه، هل من الممكن تفادي الاستخفاف أو المبالغة في تقدير تأثيرها على توزيع الثروة؟

■ يعزى السبب الأساسي في حاجتنا إلى الشفافية المالية - سجل شامل للأصول المالية، فضلاً عن ضريبة تقدمية شاملة على رأس المال - بالتحديد إلى حاجتنا إلى معرفة أكثر ديمقراطية لمن يملك ماذا. هناك شكوك كبيرة اليوم حول المستوى المحدد لتركيز الثروة، ويساعد ذلك على إضعاف إمكانية نشوء جدال ديمقراطي وواف بشأن الصيغة الضريبية والمعدل الضريبي المناسبين. استناداً إلى البيانات المنقوصة التي جمعتها، أعتقد أننا بحاجة إلى ضريبة تقدمية جداً على رأس المال بغية التحكم بديناميات تركيز الثروة العالمية. لكن أولاً وقبل كل شيء، أعتقد أننا بحاجة إلى المزيد من الشفافية المالية بغية إنتاج حقائق مقبولة عموماً.

◆ تنسب التخفيف غير المسبوق في التفاوت بين المداخل بين عامي ١٩١٤ و١٩٧٥ بشكل أساسي إلى صدمات الحربين العالميتين وإلى الاستجابات السياسية التي تلت ذلك. لا تضيف حجّتك ثقلاً كبيراً إلى القوة غير المسبوق أيضاً للعمالة المنظمة خلال هذه الفترة، في الأحزاب العمالية الجماهيرية والنقابات العمالية، ولا تأتي على التهديد الذي تطرحه الشيوعية في الشرق، باعتبارها أدوات ضغط على رأس المال لتقديم تنازلات في الغرب. ما هو الدور الذي أداه إضعاف موقف القوى العاملة في زيادة اللامساواة منذ ثمانينيات القرن الماضي؟

■ يعزى التخفيف من التفاوت في المداخل بين عامي ١٩١٤ و١٩٧٥ إلى صدمات الحربين العالميتين

بيكيتي: اتفاق على الخلاصة وخلاف على الحلول

دايفيد هارفي

أستاذ في جامعة
مدينة نيويورك،
آخر كتبه
«قراءة رأس المال»
و«١٧ تناقضاً ونهاية
الرأسمالية».

ألف طوما بيكيتي كتاباً بعنوان «رأس المال» أثار ضجة كبيرة. يدعو المؤلف إلى تطبيق الضريبة التصاعدية وإلى فرض ضريبة كونية على الثروة بما هما السبيل الوحيد لمواجهة التيار المتجه إلى نشوء شكل إرثي من الرأسمالية يتسم بما يسميه لامساواة «رهيبة» في الثروة والدخل. وهو يوثق أيضاً بتفصيل نثق يصعب دحضه تفاقم اللامساواة في مجالي الثروة والدخل خلال القرنين الماضيين مع تشديد على الثروة خصوصاً. وهو يدمر الرأي الشائع بأن رأسمالية السوق الحرة توزع الثروة [توزيعاً عادلاً] وأنها السد المنيع للدفاع عن الحريات والحقوق الفردية. ويبرهن بيكيتي كيف أن رأسمالية السوق الحرة، في غياب تدخلات إعادة توزيعية رئيسة تتولاها الدولة تنتج أوليغارشيات معادية للديمقراطية. وهذا ما أثار غضب الليبراليين وحفيظة جريدة الـ«وال ستريت جورنال».

هل هو بديل عن ماركس؟

جرى تقديم هذا الكتاب غالباً بما هو بديل في القرن الواحد والعشرين لعمل كارل ماركس بالعنوان نفسه الصادر في القرن التاسع عشر. الحال أن بيكيتي ينكر أن يكون قد نوى ذلك، وحسناً يفعل، لأن كتابه ليس عن رأس المال على الإطلاق. فهو لا يعلمنا لماذا حصل الانهيار سنة ٢٠٠٨ أو لماذا يستغرق معظم الناس وقتاً طويلاً للإفلات من العبء المزدوج للبطالة المزمنة والخسارة ملايين المنازل عن طريق حبس الرهن. ولا هو يساعدنا على فهم لماذا تباطأ النمو الاقتصادي إلى هذا الحد في الولايات المتحدة الأميركية بالمقارنة مع الصين، ولماذا أوروبا حبيسة سياسة تقشف واقتصاديات ركود.

ما يبينه بيكيتي فعلاً - ويجب أن نكون مدينين له ولزملائه لذلك - هو أن رأس المال أجه خلال تاريخه لإنتاج مستويات متعاطمة من اللامساواة. وهذا لا يشكل نبأ جديداً للعديد منا. ثم إن تلك هي الخلاصة النظرية التي توصل إليها ماركس تماماً في الجزء الأول من روايته عن «رأس المال». يغفل بيكيتي عن ذكر ذلك، ولا عجب ما دام في مواجهة اتهامات الصحافة اليمينية بأنه ماركسي متنكر، أنكر أنه قرأ «رأس المال» لماركس. جمع بيكيتي حشداً من البيانات لدعم حججه. وبيانه عن الفوارق بين الدخل والثروة مقنع ومفيد. وهو يدافع بتبصر عن الضريبة على الإرث والضريبة التصاعدية والضريبة على الثروة الإجمالية إن أمكن، بما هي علاجات لتزايد تركز الثروة والسلطة، مع أنه شبه مؤكد أنها ليست قابلة للتطبيق سياسياً في معظمها.

ولكن لماذا يتولد هذا الاتجاه إلى تفاقم اللامساواة مع الوقت؟ بناءً على بياناته (المجتملة ببعض الإشارات الأدبية الأنيقة إلى جين أوستن وبلزاك) يستخلص قانوناً حسابياً لتفسير ما جرى: يعود تراكم الثروة المتزايد من قبل الواحد بالمئة الشهير (وهو مصطلح شاع بفضل حركة «احتل») إلى سبب بسيط هو أن عائد رأس المال «ع» يميل دوماً إلى أن يزيد عن معدل نمو الدخل «ن». وهذا حسب بيكيتي كان ولا يزال وسوف يبقى دوماً «التناقض المركزي» لرأس المال.

كسر قوة الطبقة العاملة

غير أن منظومة إحصائية من هذا النوع بالكاد تشكل تفسيراً وافياً، فضلاً عن تحويلها عن قدرتها على التحول إلى قانون. لذا فالسؤال هو: أية قوى تنتج مثل هذا التناقض وتحافظ عليه؟ هذا ما لا يعلمنا به

الطلب مسؤول عن الركود الكبير في الثلاثينيات، وهذا ما أوحى بالسياسات الكينزية التوسعية بُعيد الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى تقليص الفوارق بين المداخليل (وإن تكن لم يكن لها كبير تأثير على تقليص الفوارق بين الثروات) وسط نمو يحفز طلب قوي. ومع ذلك فإن هذا الحل ارتكز على تمكين نسبي للطبقة العاملة وعلى بناء «الدولة الاجتماعية» (والتعبير لبيكتي) التي جرى تمويلها بواسطة الضريبة التصاعدية. يكتب بيكتي قائلاً «في نهاية المطاف، على امتداد فترة ١٩٣٢ - ١٩٨٠، أي خلال قرابة نصف قرن، وصلت ضريبة الدخل الفيدرالية في الولايات المتحدة إلى معدل يبلغ ٨١ بالمائة». ومع ذلك هذه النسبة لم تؤدّ إلى أي خفض في النمو (وهي برهان إضافي يقدمه بيكتي في دحض المعتقدات اليمينية).

في نهاية الستينيات، اتضح لكثير من الرأسماليين أنهم يحتاجون إلى تدبّر أمر ما بصدد قوة الطبقة العاملة المفرطة. من هنا كان إزّال كينز عن عرشه في معبد الاقتصاديين المحترمين، والانتقال إلى التفكير المتمحور حول العرض عند ميلتون فريدمان، ومن هنا كانت الحملة الصليبية التي شنتها من أجل تثبيت معدلات الضريبة إن لم يكن خفضها، وتفكيك الدولة الاجتماعية وبالتالي فرض الانضباط على قوى العمل. بعد العام ١٩٨٠ بدأت معدلات الضريبة بالانخفاض، وإذ الأرباح على رأس المال - وهو مصدر الدخل الأساسي لكبار الأثرياء - تعرّض لمعدلات ضريبة أكثر انخفاضاً في الولايات المتحدة الأمريكية، ما أدّى إلى دفع تدفق الثروة نحو أعلى واحد بالمائة من السكان. لكن أثر ذلك في النمو كان تافهاً، كما يبرهن بيكتي.

هكذا فإن «الأثر التسريبي» لأرباح الأغنياء إلى سائر فئات المجتمع (وهي مقولة أخرى يمينية أثيرة) لم يحصل. وما من شيء من كل هذا تحكمه قوانين حساسية. كان الأمر كله يتعلق بالسياسة.

بعدها دارت العجلة دورة كاملة وصار السؤال الأكثر إلحاحاً: أين هو الطلب؟ وهو سؤال يتجاهله بيكتي بانتظام. تفادت التسعينيات السؤال بتوسّع كبير في التسليف، بما فيه تحويل مال الرهونات إلى أسواق للرهنات العقارية، لكنّ فقاعة الأصول التي نتجت من ذلك كان لا بد لها أن تنفجر، وهو ما حصل في عامي ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨. فأسقطت شركة «الإخوة ليهمان» ومعها كل نظام التسليف. مهما يكن من أمر، تعافت

بيكتي. القانون هو القانون. وهذا كل ما في الأمر. فلو عاد الأمر إلى ماركس لعزا وجود مثل هذا القانون طبعاً إلى اختلال التوازن بين رأس المال والعمل. وهو تفسير لا يزال مجدياً.

ذلك أنّ التراجع المنتظم لحصة العمل من الدخل الأهلي بُعيد السبعينيات يعود إلى تناقص القوة السياسية والاقتصادية للعمل فيما رأس المال يحشد التكنولوجيات، ويستولد البطالة، ويصدّر الصناعات [إلى خارج أوروبا وأميركا] ويعتمد السياسات المعادية للعمال (مثل سياسات مارغريت ثاتشر ورونالد ريغان) لسحق كل معارضة.

وكما اعترف ألان باد، المستشار الاقتصادي لمارغريت ثاتشر، في لحظة تخلّ، فإن السياسات المضادة للتضخم في ثمانينيات القرن الماضي «كانت وسيلة فعّالة لزيادة معدلات البطالة، وزيادة معدلات البطالة كانت وسيلة مرغوبة جداً لإضعاف قوة الطبقات العاملة. وما هندسناه هنا، وفق مصطلحات ماركسية، إنّ هو إلا افتعال أزمة للرأسمالية أعادت إنتاج جيش عمل احتياطيّ مكن الرأسماليين من أن يجنوا أرباحاً أعلى منذ ذلك الحين».

كان الفارق في الأجور بين عمال متوسطين ورؤساء مجالس إدارة الشركات يبلغ حوالي ٣٠/١ في السبعينيات. وهو الآن يزيد عن ١٠٠/١. وهو في حالة شركة «ماكدونالدز» يقارب ١٢٠٠/١.

فقد كان الفارق في الأجور بين عمال متوسطين ورؤساء مجالس إدارة الشركات يبلغ حوالي ٣٠/١ في السبعينيات. وهو الآن يزيد عن ١٠٠/١، وهو في حالة شركات «ماكدونالدز» يقارب ١٢٠٠/١.

لكن في الجزء الثاني من كتاب «رأس مال» - الذي لم يقرأه بيكتي وهو يصرف النظر عنه بمرح - يشير ماركس إلى أن ميل رأس المال إلى خفض الأجور يصل إلى وضع يضيق فيه طاقة السوق على استقبال منتجات رأس المال. اكتشف هنري فورد هذه المعضلة منذ فترة طويلة فقرر دفع أجر يبلغ خمسة دولارات ليوم عمل من ثماني ساعات من أجل تعزيز الطلب على الاستهلاك حسب قوله. ويعتقد كثيرون أن ضعف

LES LIVRES DU



NOUVEAU MONDE

Thomas Piketty
Le capital
au xxi^e siècle

Thomas
PIKETTY

Seuil

معدلات الربح وزاد تركز الثروة الفردية بسرعة فائقة بعد العام ٢٠٠٩ فيما كل القطاعات الاقتصادية وسائر البشر يعيشون ظروفاً صعبة.

ثمة الكثير مما هو ثمين في جداول البيانات التي وفرها بيكتي وفوارق والميول الأوليغارشية مصدع جديا.

وها إن معدلات أرباح الشركات أكثر ارتفاعاً مما كانت عليه في كل تاريخ الولايات المتحدة. تجلس الشركات على كميات ضخمة من النقد رافضة إنفاقها لأن ظروف السوق ليست متينة. وإن صياغة بيكتي للقانون الحسابي تحجب أكثر مما تكشف السياسات الطبقية التي تنطوي عليها. فكما لاحظ وارن بافيت (ثالث أغنى رجل في العالم) «المؤكد أن ثمة حرباً طبقية، وإنها طبقتي، طبقة الأغنياء، التي تخوض تلك الحرب ونحن الرابحون». وأحد الإجراءات المفتاحية لانتصارهم هو نمو الفوارق في الثروة والدخل بين الواحد بالمتة الأعلى من السكان وسائر السكان.

رأس المال مسار

وعلى الرغم من ذلك، توجد صعوبة مركزية في محاكاة بيكتي. إنها تركز على تعريف خاطئ لرأس المال. إن رأس المال مسار وليس شيئاً. إنه مسار تداول يستخدم في المال لإنتاج المزيد من المال غالباً، وليس حصراً من خلال استغلال قوة العمل.

أما بيكتي فيعرف رأس المال بما هو مخزون لمجموع الأصول التي يملكها الأفراد، والشركات والحكومات القابلة للتبادل في السوق بغض النظر عما إذا كانت هذه الأصول قيد الاستخدام أو لا. وهذا يشمل الأرض، والعقارات، وحقوق الملكية الفكرية كما الأعمال الفنية ومجموعات المجوهرات التي أملكها. إن كيفية تقدير قيمة هذه الأشياء مشكلة تقنية لا إجماع على كيفية حلها. فمن أجل احتساب دقيق لمعدل العائد «ع» لا بد لنا من طريقة ما لتقييم رأس المال الأصلي.

مع الأسف ليس من طريقة لتقييمه بمعزل عن قيمة السلع والخدمات المستخدمة لإنتاجه أو عن سعره في

السوق. إن مجمل الفكر الاقتصادي النيو كلاسيكي (وهو أساس تفكير بيكتي) قائم على هذه الحلقة المفرغة (تفسير الماء بعد الجهد بالماء).

إن معدل العائد على رأس المال يعتمد بنحو حاسم على معدل النمو لأن رأس المال لا يمكن تقديره بما قد أنتج بغض النظر عما دخل في عملية الإنتاج. إن قيمته تتأثر على نحو كبير بظروف المضاربة والتي يمكن تحريفها بواسطة «الخبور اللاعقلاني» الذي عيّنه (الاقتصادي الأميركي) غرينسبان بما هو السمة المميزة لأسواق سندات الخزينة والإسكان. فإذا حسبنا الإسكان والمضاربة العقارية - فضلاً عن قيمة المجموعات الفنية التي يملكها أصحاب صناديق الاستثمار - من تعريف رأس المال (والحجة الداعية إلى إدخالها ضعيفة بعض الشيء) فإن تفسير بيكتي لتفاقم الفوارق في الثروة والدخل يسقط فوراً وينقلب رأساً على عقب، مع أن توصيفه لحالة الفوارق الماضية والحاضرة يظل قائماً.

المال، الأرض، العقارات والمؤسسات والتجهيزات التي لا تستخدم على نحو منتج ليست من رأس المال بشيء. وإذا كان معدل العائد على رأس المال المستخدم مرتفعاً فإن ذلك عائد إلى أن قسماً من رأس المال هذا قد انسحب من التداول أو هو قد أعلن الإضراب عملياً. إن اقتصار إمداد رأس المال على الاستثمارات الجديدة (وهي الظاهرة التي نشهدها حالياً) من شأنه تأمين معدلات عالية من العائد على ذلك الجزء من رأس المال قيد التداول.

إن افتعال ندرة مصطنعة لا يقتصر على ما تفعله شركات النفط لتأمين معدلات عوائد مرتفعة؛ إنه ما يلجأ إليه كل أنواع رأس المال عندما يتاح لها ذلك. وهذه هي الأرضية: ميل نمو العائد على رأس المال (مهما يكن تعريفه وطريقة قياسه) لكي يزيد دوماً عن معدل نمو الدخل. هكذا يضمن رأس المال إعادة إنتاجه، مهما تكن الظروف مزعجة لسائر البشر. وهكذا تعيش الطبقة الرأسمالية.

ثمة الكثير مما هو ثمين في جداول البيانات التي وفرها بيكتي. لكن تفسيره لارتفاع الفوارق والميول الأوليغارشية مصدع جدياً.

أما مقترحاته بصدد تصحيح الفوارق فهي ساذجة إن لم نقل إنها طوباوية. والمؤكد أنه لم ينتج نموذجاً عملياً لطريقة تشغيل رأس المال في القرن الحادي والعشرين. لهذا الغرض لا نزال بحاجة إلى ماركس أو إلى قرينه المعاصر.

حول «الماركسية التاريخية» نقاش مع سمير أمين

سلامة كيلة

كاتب فلسطيني.

الذي يشير إلى نوع من المغالاة المجردة والتبسيط لفكره، كما يظهر في النقاط الأربع سالفة الذكر، حيث «الماركسية المبسطة» «تكاد تهتم فقط بصراع الطبقات في تفسيرها للتاريخ».

بهذا يكون لينين هو مؤسس «الماركسية التاريخية» أو «الماركسية المبسطة» وما يحكمها هو «صراع الطبقات». من يدقق في النقاط الثلاث الأولى يعتقد بأن سمير أمين يتحدث عن تروتسكي وليس عن لينين، خصوصاً أنه يشير في مكان آخر إلى فكرة لينين حول «الثورة الدائمة»^٢، ليظهر كم أن الاختلاط يخترق ما يقوله. وليظهر كم أنه يتجاهل الصراع الذي جرى بداية القرن العشرين، وعلى أثر ثورة سنة ١٩٠٥ في روسيا حول طبيعة الثورة ودور الماركسية. وبالتالي يتجاهل أن الصورة التي يعطيها لـ «الماركسية التاريخية» تتناقض جذرياً مع «الماركسية الرائجة»، التي تعممت بالضغط منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، وليس قبل ذلك، والتي شكلت استمراراً لـ «ماركسية الأممية الثانية»، وليست بأي حال من الأحوال استمراراً للينينية، رغم أنها تطلت بها، وسمت الماركسية «الماركسية اللينينية».

في «موضوعات نيسان» التي طرح لينين فيها ضرورة الاستيلاء على السلطة وإقامة «دكتاتورية البروليتاريا» يؤكد أن الأمر لا يتعلق بـ «تطبيق» الاشتراكية. وفي الذكرى الرابعة لثورة أكتوبر، يشير إلى تحقيق «المهمات الديمقراطية» وليس الاشتراكية. هذا المنظور اللينيني انبنى على فهم للواقع الروسي، حيث لم تكن الثورة الديمقراطية قد تحققت، والأغلبية الفلاحية تفرض سيقاً يكون الهدف فيه هو تحقيق المهمات الديمقراطية. لهذا رفض منطق تروتسكي الذي دعا سنة ١٩٠٥ إلى «دكتاتورية البروليتاريا»

يبدو أن منظورات د. سمير أمين للعالم الراهن تنبني على فهم لا يختلف عن الماركسية الرائجة في الأخير، رغم أنه يبدو من رفضها مشيراً إليها بتعبير «الماركسية التاريخية». فهو ينطلق من أنها تتمحور «حول قضية الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية»^١، ليصل إلى تقسيم العالم إلى أميركا و«أنتي أميركا» (anti-America)، حيث يتشكل العالم الجديد من الصراع بينهما.

لينين و«الماركسية التاريخية»

هذا التمحور لـ «الماركسية التاريخية» حول الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية يرتبط بـ «إنجاز الثورة وبناء الاشتراكية»، ويؤكد أمين أن «هذه النظرية» تبلورت «انطلاقاً من لينين»، ويلخصها في أربع نقاط، هي الآتية: ١. لا بد من أن يؤدي صعود الصراع الطبقي الأساسي (الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا) إلى الثورة الاشتراكية على صعيد عالمي.

٢. ينطلق التحرك نحو الثورة ذات البعد العالمي من تلك البلدان (مثل روسيا ثم الصين) التي تمثل «الحلقات الضعيفة» في المنظومة العالمية، وذلك لأسباب يجب اكتشافها وتوضيحها.

٣. يمكن بناء الاشتراكية في تلك البلدان، بالرغم من تخلفها الموروث من تاريخ التوسع الرأسمالي على صعيد عالمي.

٤. يتجلى الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية في التضاد والمنافسة بين النظامين، أي نظام الدول الاشتراكية من جانب، ونظام الدول التي ظلت أسيرة الرأسمالية من الجانب الآخر.

ويؤكد سمير أن فكر ماركس «لا يتلخص في هذا المنهج» الذي ساد «الماركسية التاريخية»، الأمر

- ١ سمير أمين، «روسيا في المنظومة العالمية»، موقع الحوار المثمن.
- ٢ سمير أمين، الخروج من أزمة الرأسمالية أو الخروج من الرأسمالية المازومة، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ٧٩.

ولهذا لم يطرح لينين «بناء الاشتراكية» في هذه البلدان «بالرغم من تخلفها الموروث من تاريخ التوسع الرأسمالي على صعيد عالمي»، بل انطلاقاً من تخلفها الموروث، اعتبر أن المهمات الديمقراطية تقتضي تصنيعاً وكهرية روسيين وإدخال الثقافة الأوروبية لها. وهو الأمر الذي جعله يطرح مفهوم «رأسمالية الدولة»، حيث تلعب الدولة دوراً جوهرياً في البناء والتحديث، بغض النظر عن التقييم الممكن الآن لهذه الخطوة.

لقد كان همّ تجاوز التخلف هو الذي يحكم رؤية لينين وليس تحقيق الاشتراكية التي كان يرى أنها وهمية في مجتمع مخلف. ولا شك في أن كل ما كتب في السنوات التالية لثورة أكتوبر يشير إلى ذلك بالتحديد، وهو الأمر الذي جعله يطرح «الخطّة الاقتصادية الجديدة» التي تدعو الرأسمال الأجنبي إلى أن يستثمر في روسيا. أما «الماركسية التاريخية» التي تبلورت في الاتحاد السوفياتي في ظل السير في تحقيق الاشتراكية بعد إلغاء الملكية الخاصة، فقد عمّمت «نظرية المراحل الخمس»، و«حتمية الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية»، وبالتالي وضعت الحركة الشيوعية في سياق وحيد هو دعم «التطور الرأسمالي»، وحتمية انتصار الرأسمالية، تحت شعار «تحقيق مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية»، أو في ما بعد شعار «استكمال مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية»، التي تُعرف في كل الأحوال بطابعها البرجوازي. وبهذا تجاهلت تماماً الطابع الاستقطابي للعالم الذي صاغته الرأسمالية، وظلت تفكر في سياق تطوري «تقليدي» يكرر مسار أوروبا. وهذا أساس جوهري في فشلها، لأنها راهنت على مشروع وهمي، هو المشروع البرجوازي، بينما مسار التاريخ كان يسير في واد آخر.

الآن، هذا العالم المستقطب هو الذي فرض أن تكون الثورة «من تلك البلدان (مثل روسيا ثم الصين) التي تمثل - الحلقات الضعيفة - في المنظومة العالمية». وهذا هو تحليل لينين وماو والشيوعيين الفيتناميين والكوبيين، وهو الذي فرض انتصار الثورات فيها، عكس الحركة الشيوعية التي كانت تعتنق «الماركسية التاريخية» التي ظلت تنتظر «غودو»، تنتظر البرجوازية التي ستنجز ثورتها لكي يكون ممكناً طرح هدف تحقيق الاشتراكية. هل في ذلك خطأ؟ إن اعتبار هذه الفكرة خاطئة يعني التخلي عن الفكرة الأساسية التي ينطلق منها د. سمير أمين حول الطابع الاستقطابي للعالم. هذا الطابع الذي منع

والاشتراكية، كما رفض منطق المناشفة الذي ينطلق من تحقيق هيمنة البرجوازية. وهنا، من جهة لأن البنية المجتمعية «الإقطاعية» تفترض الانتقال إلى الحدّثة قبل الاشتراكية، ومن جهة أخرى لأن الطبقة العاملة قليلة العدد وضعيفة.

العالم المستقطب هو الذي فرض أن تكون الثورة من بلدان مثل روسيا ثم الصين التي تمثل الحلقة الضعيفة في المنظومة العالمية.

لهذا حين يشير د. سمير إلى أن الاشتراكية كانت الهدف لدى لينين يكون قد ارتكب مغالطة شديدة الوضوح. وأيضاً حين يعتبر أن «الماركسية التاريخية» قد انطلقت من أن صراع البرجوازية والبروليتاريا سوف يؤدي إلى الثورة الاشتراكية، يكون كذلك قد ارتكب مغالطة أشد وضوحاً، لأن «الماركسية التاريخية» التي تمثّلت في ما سمّاه الياس مرقص «الماركسية السوفياتية»، كرّرت هدف الأُمّية الثانية التي دعت إلى إعطاء البرجوازية كل الوقت من أجل أن تتطور وتنتصر. ولا شك في أن فكرة «أن يؤدي صعود الصراع الطبقي الأساسي (الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا) إلى الثورة الاشتراكية على صعيد عالمي» هي فكرة تروتسكي وليس لينين ولا «الماركسية التاريخية»، اللذين كانا ضدها. وهذا ما يشير لينين إليه في كتابه «خطتنا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية»، حيث ينتقد المناشفة أساساً، لكنه ينتقد فكرة تروتسكي في السياق. بالتالي يظهر هنا الخلط بين لينين وتروتسكي، ولكن كذلك بين «الماركسية التاريخية» وتروتسكي. فالخلاف مع «الماركسية التاريخية» ليس في أنها تطرح فكرة تروتسكي، ولا فكرة لينين، بل تطرح فكرة المناشفة والأُمّية الثانية، الذين كانوا يعتقدون بأن التطور التاريخي لا زال يفرض فسخ المجال لتطور الرأسمالية لا لتجاوزها نحو الاشتراكية. وخلافها مع لينين ينطلق من أن الأخير توصل إلى أن البرجوازية موصولة الرحم مع الإقطاع، لهذا فهي عاجزة عن تحقيق ثورتها، وهو الأمر الذي جعل تحقيق المهمات الديمقراطية ملقى على عاتق الماركسية والطبقة العاملة والفلاحين الفقراء بالتحالف مع الفلاحين المتوسطين والبرجوازية الصغيرة المدنية.



إمكانية الثورة، وليس الثورة الاشتراكية فقط، في المراكز الإمبريالية، تحديداً نتيجة «الريع الإمبريالي»، لكنه فتح إمكانية الثورة في الأطراف، التي هي ليست اشتراكية، لكنها كذلك ليست برجوازية. وبهذا تتجسد فكرة لينين هنا بالضبط.

سمير اعتبر أن الإمبريالية الأميركية هي «العدو الرئيسي» ومن هذا المنظور يعود إلى مسألة «الاستقلال» عنها كأساس لتحديد القوى «الثورية» التي ستحقق الانتقال الطويل إلى الاشتراكية وهذا ما يظهر في تحليله لوضع روسيا.

يتوضح، بالتالي، أن د. سمير لا يناقش هنا «الماركسية التاريخية» بل يناقش تروتسكي، لكن عبر لينين من جهة و«الماركسية التاريخية» من جهة أخرى. فكلاهما طرح ما هو مختلف مع تروتسكي، والثورة الاشتراكية العالمية. ولا شك في أن خلط لينين مع «الماركسية التاريخية» يشكل «حبل إنقاذ» لهذه الأخيرة التي هي في النزاع الأخير. كذلك يشوّه منظور لينين الصحيح، ويعيد تشويش آفاق التطور في الأطراف، وفي العالم، وهو ما يظهر من الفكرة التي يطرحها د. سمير حول «الانتقال الطويل إلى الاشتراكية»^٣، وهو الأمر الذي سيناقش تالياً.

ما بقي من النقاط الأربع هو «الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية»، «التضاد والمنافسة بين النظامين». لا شك في أن هذا «قانون» «الماركسية التاريخية» الذي كان يوجّه نشاطها، ويحدّد صراعاتها على الصعيد العالمي. فهذه هي «سمة العصر» التي تحكم بالتالي كل تناقضاته. سنوضح ابتداءً أن هذا «القانون» لم يتبلور زمن لينين بل في سنوات بعد الحرب العالمية الثانية، بينما طرح لينين التحالف مع «حركة شعوب الشرق التحررية». وهنا ليس لينين معنياً بهذه النقطة التي حكمت السنوات الأخيرة من عصر ستالين واستمرت حتى بعد طرح شعار «التعايش السلمي».

ولا شك في أن «سمة العصر» هذه توحى بأن الثورة الاشتراكية هي السياسة التي حكمت «الماركسية التاريخية»، لكنها في الواقع لم تكن كذلك، لأن السياسة العملية التي طرحتها الحركة الشيوعية تمثلت كما أشرنا سابقاً في «استكمال مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية» البرجوازية الطابع، وهو المبدأ الذي يحكم

بقاياها إلى الآن، بمرحلة انقطاع عاشتها وهي تعتقد بأن «حركات التحرر الوطني» التي انتصرت بعد الحرب الثانية سائرة نحو الاشتراكية، أو هي اشتراكية، إذ ترسخت في هذه المرحلة فكرة أن «سمة العصر هي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية»، لكن خارج ذلك كانت تبدو كتحديد بمرحلة الصراع بين الإمبريالية الأميركية والاتحاد السوفياتي، وحيث يجري الاصطفاف خلف «الرفيق الأكبر» في هذا الصراع العالمي، وبالتالي في سياق مناقض للسياسة العملية التي تقوم على دعم التطور الرأسمالي. وهو الأمر الذي أنتج فكرة البرجوازية الوطنية، التي تسعى إلى «الاستقلال» عن المراكز الرأسمالية، وتحقيق التطور المحلي. ولهذا جرى «تلخيص» سمة العصر هذه في اعتبار أن الإمبريالية الأميركية هي «العدو الرئيسي»، والانطلاق من أن التناقض الأساسي هو معها، وتحديد أن «قوى الثورة العالمية» هي البلدان الاشتراكية (وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي) والطبقة العاملة في البلدان الغربية وحركات التحرر الوطني التي تسعى إلى الاستقلال.

ولسوف نلمس تالياً كيف أن د. سمير قد وصل إلى النتيجة ذاتها، بالتحديد في اعتبار أن الإمبريالية الأميركية (أو الثلاث، كما يكرّر دائماً المحكوم بالسيطرة الأميركية، والمكون من كل من أميركا وأوروبا واليابان) هو «العدو الرئيسي»، ومن ثم (وبعد انهيار الاشتراكية)، ومن هذا المنظور يعود إلى مسألة «الاستقلال» عنها كأساس لتحديد القوى «الثورية» التي ستحقق الانتقال الطويل إلى الاشتراكية.

هذا ما يظهر في تحليله لوضع روسيا، روسيا بوتين بالتحديد، حيث تظهر المراهنة على «الوطنية» التي تفرض الاستقلال، وبالتالي مواجهة الإمبريالية الأميركية، كما ظهر في الملف السوري، وفي إيران وأوكرانيا كما يشير^٤.

روسيا في المنظومة العالمية^٥

هنا سنلمس أن د. سمير ينطلق، كذلك، من الصراع العالمي، ومن منظور محورية الإمبريالية الأميركية، وبالتالي «وطنية»، و«استقلالية»، و«تحررية» الدول التي «تتصارع» معها. وربما كانت الوطنية والاستقلالية سمتين حتى للرأسمالية ذاتها، حيث ينشأ التنافس بين الرأسماليات على هذا الأساس. لكن هل يوضع ذلك في سياق مشروع تحرري، أو يصبح جزءاً من الطريق الطويل إلى الاشتراكية؟

- ٣ المصدر ذاته، ص ٨٩٨، ١١٢.
- ٤ سمير أمين، روسيا في المنظومة العالمية، سبق ذكره.
- ٥ جميع الاستشهادات المشار إليها بين قوسين هي من: سمير أمين، روسيا في المنظومة العالمية، سبق ذكره.



يقول د. سمير «ثم بعد مضي سنوات ظهرت مرة أخرى إشارات تدل على أن بعض أقسام الطبقة السياسية الحاكمة (ولا بد من التمييز بين هذه الطبقة المسؤولة عن إدارة السياسة وبين الطبقة الحاكمة في المجال الاقتصادي، بالرغم من التحالف الذي يربطهما معاً) أصبحت تدرك مدى الكارثة. ويبدو أن بوتين ينتمي إلى هذه المجموعة واستغل الفرصة للعودة في سلم السلطة»، ليشير إلى أنها توجهت توجهاً جديداً في ثلاثة مجالات، إثنان منها يتعلقان بالسياسة الخارجية والموقف من «العرب»، لكن ما يهمنا هنا، أنه يؤكد الآن أن الأمر لا يتعلق ببوتين وحده بل بـ«مجموعة من الطبقة السياسية الحاكمة»، التي «أدركت مدى الكارثة»، ولهذا قررت سياسة جديدة.

الطبقي والسياسي

نلمس هنا أن الأشخاص الذين يديرون الدولة باتوا يشكلون طبقة، «طبقة سياسية» كما يسميها د. سمير، رغم أنه يشير إلى «تحالفها» مع «الطبقة الحاكمة في المجال الاقتصادي»، وهو بالتالي «تحالف» مع الطبقة الاقتصادية. في الماركسية تعتبر الدولة أداة الطبقة المسيطرة، وهذا تعريف علمي، ليس من السهل دحضه. بالتالي فإن «الإدارة السياسية» للدولة هي أداة الطبقة المسيطرة. كيف إذاً يمكن أن تنطلق من أن هناك طبقتين، واحدة اقتصادية تحكم الاقتصاد وأخرى سياسية تحكم الدولة؟ وتعبير «تحالف» هنا غير علمي، حيث إن قوة «الطبقة السياسية» في الدولة نابعة من تمثيلها للطبقة الاقتصادية المسيطرة. لهذا ليس من الممكن فصل بوتين عن الطبقة المسيطرة في الاقتصاد، ولا اعتبار أنه يعبر في سياساته عن «الطبقة السياسية» عن السياسات التي من المفترض أن تتناقض مع الطبقة الاقتصادية لكونها طبقة، كما وصفها، كمبرادورية.

هل الدولة فوق الاقتصاد؟ وأليست السياسة هي التعبير المكثف عن الاقتصاد؟ هذه أفكار ماركسية، لكن هل وضع روسيا يشير إلى رؤى جديدة في هذا المجال النظري؟ سنحلل هذا الأمر، لكن قبل ذلك لا بد من أن نستوفي النقاش حول «الطبقتين»، السياسية والاقتصادية. إن تحرير المستوى السياسي من قاعه الاقتصادي يعني أن هيغل قد عاد للوقوف على رأسه بعد أن أوقفه ماركس على قدميه، إذ إن «أهم مكتشف» حققه ماركس هو التأكيد أن البنية الاقتصادية وما يقوم عليها من طبقات هي الأساس لفهم الدولة والفكر في كل التاريخ. لهذا

هذا ما يقوله د. سمير بالضبط وهو يناقش وضع روسيا في المنظومة العالمية، وهو هنا ينطلق من التعارض الحاصل مع الإمبريالية الأميركية بالأساس، وليس من التكوين الطبقي الروسي، ومن طبيعة الرأسمالية المسيطرة، التي ترسم سياسة الدولة. يشير د. سمير إلى أنه «يبدو أن بوتين قد بدأ يدرك مدى التدمير الذي أصاب الاقتصاد الروسي» في المرحلة التي تلت انهيار الاتحاد السوفياتي، والتي يوصفها بأنها وضعت روسيا في «وضعية تخومية»، حيث إن البرجوازية الروسية (وبرجوازيات الجمهوريات المستقلة) «قبلت أن تتحول إلى برجوازيات كومبرادورية». وبالتالي بات «يعتمد نظام السلطة على طبقة - وسطى - جديدة نشأت مع التحول الكمبرادوري». لكنه يكمل بأن هناك «إشارات توحى بأن بوتين بدأ يدرك خطورة الموقف»، ليصل إلى معنى الإدراك الذي يشير إليه، «يبدو أن بوتين قد أدرك أن الغرب لا يزال عدواً لروسيا»، ويعتمد في ذلك على «مواقفه الجريئة التي اتخذها في مواجهة الأزمات الدولية الأخيرة (سورية، إيران، أوكرانيا)»، وأنه «أدرك أن الإمبريالية لم تزل تمثل الخطر الرئيسي على صعيد عالمي».

إن تحرير المستوى السياسي من قاعه الاقتصادي هو الذي يعنى أن هيغل قد عاد للوقوف على رأسه بعد أن أوقفه ماركس على قدميه.

يشير هنا إلى «الشعور الوطني»، إذ إنه يمتدح تعبئة الشعور «الوطني» في الخطاب السوفياتي، الذي «وجد صدى ملحوظاً لأنه قام على حقائق - العداء للإمبريالية». لهذا بات «الشعور بالوطنية الروسية يقوم بدور إيجابي» اليوم «في ظروف صعود عداء الغرب لروسيا». بالتالي فإن «المراهنة» على بوتين نابعة من هذا التوصيف لحالة «العداء المتبادل» بينه وبين «الغرب». الأمر الذي يشير إلى أنه يسعى إلى إقامة «رأسمالية دولة مستقلة» هو هذا. طيب، ما علاقة ذلك بتكوين الطبقة الكمبرادورية المسيطرة، التي كان قد أشار إليها؟ أليست السلطة السياسية هي التعبير عن مصالح الطبقة المسيطرة؟ هنا نضع يدنا على إشكالية التحليل الذي يغلب السياسي على الطبقي، ويتمحور حول «العداء للإمبريالية»، التي هي فقط الإمبريالية الأميركية (أو الثلاث المسيطر عليه من قبل الإمبريالية الأميركية).

٦ إنجلز، «مقدمة البيان الشيوعي»، ماركس - إنجلز، البيان الشيوعي، سلسلة كراسات ماركسية (١)، روافد للنشر والتوزيع، طبعة أولى، ٢٠١٤، ص ٨٦.

فإنَّ الفكَّ بين هذا وذاك، واعتبار أنَّ لكل سياقَه الخاص «رغم التحالف»، يعني العودة إلى منظور مثالي ينطلق من السياسي، من الدولة والملك أو الرئيس، كمحدّد للتطور، للاقتصاد والمجتمع.

باتت روسيا دولاً معادية للإمبريالية» لأنها اختلفت مع الإمبرياليّة الأميركية في سورية وإيران وأوكرانيا. ولأنها تمتلك «ميلاً استقلالياً».

ولا شك في أنَّ هذا هو المنظور الذي حكم «الماركسية التاريخية»، والذي يظهر هنا جلياً. الانطلاق من السياسة كمحدّد. هذا باختصار هو إرث «الماركسية التاريخية»، والذي يتجلى هنا بوضوح شديد، حيث التفسير انطلاقاً من السياسات، وربط الصيرورة بالأشخاص. وهو المنظور الذي يدرس الصراعات العالمية انطلاقاً من المستوى السياسي، من مستوى طبيعة العلاقات بين الدول. ويحدّد الطبقة الطبقية للنظم تأسيساً على ذلك وليس تأسيساً على طبيعة البنية الطبقية «المحلية» (أو القومية). لهذا باتت روسيا دولة «معادية للإمبريالية» لأنها اختلفت مع الإمبريالية الأميركية في سورية وإيران وأوكرانيا، ولأنها تمتلك «ميلاً استقلالياً». وهذا بالضبط ما يجعل بوتين و«الطبقة السياسية» (أو جزءاً من الطبقة السياسية كما يشير د. سمير) مختلفين عن الطبقة الكمبرادورية المسيطرة، هو تأليف تركيبي يعتمد على «إدراك أنَّ الغرب لا يزال عدوّاً لروسيا»، الإدراك هنا هو المحدّد وليس الواقع الذي يشير، كما يقول د. سمير، إلى سيطرة طبقة كمبرادورية. فهذا هو الذي أوجد الإدراك في بلد في «وضعية تخومية» وذي اقتصاد ريعي، وتسيطر طبقة كمبرادورية على اقتصاده، أي إدراك العداء للغرب.

بهذا يقرّر الفصل بين «الطبقة السياسية» التي «أدركت»، و«الطبقة الاقتصادية» التي من المفترض أنها تابعة للغرب، وتستفيد من «الوضعية التخومية» لروسيا، ويصبح السياسي هو المؤشر وليس الاقتصادي، ويهمل كل التكوين الطبقي المحلي، حيث إن العالم يتشكّل من «إدراك» بوتين. طبعاً سنلمس أن د. سمير يضخّم الصراع مع أميركا، ويفسّر الخلافات على بعض المناطق على أنه تناقض «ضد الإمبريالية»، وليس خلافاً بين رأسماليات

٧ وهذا ما يشير إليه في كتابه، عن الأزمة، سبق ذكره، ص ١٧٠-١٧١.

يسعى كل منها إلى فرض سيطرته، ويمدّ توسعه، خصوصاً أنه لا ينفي رأسمالية بوتين و«الطبقة السياسية»، لهذا يدعو إلى تشكيل «رأسمالية دولة مستقلة». بالتالي ألا يمكن أن نفسّر الصراع بين روسيا (والصين كذلك) وأميركا (والثالث عموماً) كتنافس بين رأسماليات؟

فكرة د. سمير تنطلق من «اللعب على التحليل»، فهو ينطلق من أنَّ روسيا باتت دولة «تخومية» (أو محيطية كما كان يستخدم سابقاً)، أي أنها دولة «عالمثالية» بالضبط. لهذا فإنَّ ميل السلطة إلى «فك الارتباط» الذي يقوم على «قلب العلاقة بين نمط النمو الوطني وبين نمط النمو السائد عالمياً»، يمثّل خطوة مهمّة ومتقدّمة. ولتحقيق ذلك يجب أن يكون هدف التصنيع هو الأساس^٧. لكن لا يبدو أنَّ بوتين يفعل ذلك كما يشير، وإنَّ عمل «في مجال إعادة هيكلة المنظومة الاقتصادية الروسية» على شَنِّ «معارك ضد بعض عناصر الأوليغارشية» ولكن «ليس ضد الأوليغارشية بجمعها بصفتها طبقة حاكمة اقتصادياً». أي أنَّ صراعه العالمي غير مرتبط بميل لتغليب النمو الداخلي على النمو السائد عالمياً.

هذا ما هو واضح في ارتباط الاقتصاد الروسي عموماً بالاقتصاد العالمي، وتشابكه معه بنسبة كبيرة. ولأنَّ د. سمير يلمس ذلك، نجده يشير إلى أنَّ «وعي مغزى التحدي وحقيقة طابع أوروبا الإمبريالية حليفة الولايات المتحدة لا يكفي في حدّ ذاته طالما لم تحقق شروط دفع مشروع رأسمالية دولة مستقلة». لهذا يتساءل هل هو عازم على التخلص من تحكم الأوليغارشية، و«هل هو مستعدّ لأن يدفع ثمن انقلاب الميزان لصالحه من خلال سياسة اقتصادية واجتماعية تقض السياسة التي استمر يسير في سبيلها إلى الآن؟».

يصدر هذان السؤالان عن تشوُّش في العلاقة بين الطبقة والسلطة، ويحملان «أمل» وتخيل نتيجة تغليب الصراع مع الإمبريالية، ولا يصدران عن فهم حقيقي لطبيعة السلطة في روسيا، ولا لوضع وطبيعة الطبقة المسيطرة، وبالتالي عن سوء فهم لطبيعة الخلافات التي تظهر في السياسة العالمية بين روسيا وأميركا.

إنَّ تلمّس الخلافات بين روسيا وأميركا (والثالث عموماً، رغم أنَّ الخلاف مع ألمانيا كان محدوداً) هو الذي ينتج أوهاما حول طبيعة بوتين، على اعتبار أنَّ كل مختلف مع الإمبريالية الأميركية لا بد أنه يسعى إلى «فك الارتباط» وتشكيل «دولة رأسمالية مستقلة». هنا تشتغل الهواجس والتخيلات وليس التحليل

الكبرى من حركة الرأسمال. لكن يجب أن نفهم وضع روسيا في سياق تشكلها «التاريخي»، فقد أصبحت دولة صناعية في ظل الاشتراكية، رغم تخلفها عن البلدان الرأسمالية. وإذا كانت قد جرت محاولة لتدمير الصناعة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، والتركيز على القطاع الريعي، فقد استمرت صناعة السلاح وتطوّرت، وظل هناك قطاع صناعي لم يندثر كذلك.

وإذا كانت قد تشكلت طبقة كمبرادورية (أو الأدقّ مافيوية) في ضوء بيع القطاع العام، وإهمال الصناعة، والارتباط بالمركز الإمبريالي، فقد ظلت صناعة السلاح ولم تُمسّ، كذلك صناعات كثيرة أخرى. لهذا سيبدو الصراع داخل الطبقة المسيطرة هو بين المافيات التي تريد استمرار الوضع الذي تشكل بعيد الانهيار، وبالتالي استمرار الطابع «الكمبرادوري»، وبين الفئات من الرأسمالية، وقطاع من الدولة، الذي يريد استمرار الصناعة وتطورها. وقد يكون بوتين هو «الموحد» بين الفئتين.

في هذه الوضعية يمكن أن نفهم سبب التنافس مع أميركا، والصراع أحياناً. فروسيا بتطورها غدت إمبريالية، وإن كانت متخلفة عن الإمبرياليات الأخرى، ولا شك في أنّ حصارها والسعي إلى تدمير تطورها الصناعي، سيؤسّس لميل يهدف إلى الصراع مع الدول الإمبريالية، خصوصاً أنّ هذه الدول تفرض حصاراً على الصناعات القائمة (لأسيما السلاح، الذي هو محوري في الاقتصاد الروسي، والذي ربما به تكون دولة إمبريالية).

إن المنظور الذي يحكم هذه الفئة من الرأسمالية هو منظور تقاسم العالم، من أجل فتح الأسواق، وليس «القيم الإنسانية» التي يمكن أن توضع تحت عنوان «العدالة الاجتماعية» أو الاشتراكية. لا نستطيع إلا أن نعتبر أن روسيا إمبريالية نتيجة تكوينها ومطامح رأسماليتها، فقد تطورت إلى مستوى مرتفع رغم ما جرى بُعيد الانهيار، لكنّ النمط يعيد استنهاض ذاته ما دام يمتلك الأسس العلمية والتقنية التي تسمح له بذلك، وروسيا تمتلك كل ذلك.

روسيا ليست دولة تخوم، روسيا إمبريالية، لكنها لا زالت منهكة في تكوينها الداخلي رغم حاجتها الشديدة إلى التوسّع الخارجي. لهذا فإن تنافسها وصراعها مع الإمبريالية الأميركية أو الأوروبية هو نتاج ذلك، وليس نتيجة ميل «استقلالي» نحو تأسيس «دولة رأسمالية مستقلة».

العلمي لوضع روسيا، ولطبيعة النظام السياسي فيها، ولدور بوتين. وهو المظهر ذاته الذي يبرز في «الماركسية التاريخية» (الماركسية الرائجة) التي ينتقدها د. سمير، مع الأسف دون أن يعرف ماهيتها، لهذا بالضبط هو يكرّرها، وفيها يطغى السياسي على الاقتصادي والطبقي، والإمبريالية هي فقط أميركا المهيمنة على الثالث (أوروبا واليابان، وهي)، وليس من إمكانية نشوء إمبريالية جديدة.

روسيا إمبريالية. لكنها لا زالت منهكة في تكـوينها الداخلي. لهذا فإن تنافسها وصراعها مع الإمبريالية الأميركية أو الأوروبية هو نتاج ذلك. وليس نتيجة ميل «استقلالي» نحو تأسيس «دولة رأسمالية مستقلة».

إنّ الرابط كبير بين بوتين والطبقة المسيطرة، ولهذا يصبح السؤال حول خلاف الطبقة مع الإمبريالية الأميركية، وليس خلاف «مجموعة من الطبقة السياسية» معها. على هذا الأساس يصبح فهم العلاقة مع أميركا أفضل، حيث إننا نتناول تكوين طبقة مسيطرة على دولة، لا فرد أو بضعة أفراد لديهم «إدراك».

يظهر في الأخير أن «الوعي» ليس بالضرورة مرتبطاً بتشكيل «دولة رأسمالية مستقلة»، هي من يعتقد د. سمير أنها تتناقض مع الإمبريالية. طبعاً لن أدخل هنا في إمكانية نشوء «دولة رأسمالية مستقلة»، حيث ربما يجري تناول الأمر في الجزء المتعلق بالطريق الطويل نحو الاشتراكية. لكن ما يهم هنا هو فهم بنية روسيا: الاقتصادية، الطبقيّة قبل الحديث عن سياساتها وطبيعة السلطة فيها.

هل روسيا فعلاً دولة تخومية؟

لا أوافق سمير على أن روسيا في «وضعية تخومية»، هي ليست كذلك على الإطلاق، رغم أنّ النفط والغاز يشكلان نسبة ٦٥٪ من الدخل القومي، وأنّ وضع الصناعة «مزر». قد يكون ذلك جزءاً من الموضوع، حيث إن نسبة «الرّيع الإمبريالي»^٨ في أميركا أكبر من هذه النسبة، ونسبة الدخل الصناعي لمجمل الدخل القومي هي أقل في أميركا منها في روسيا. لقد باتت أميركا بلداً «مالياً» يستحوذ فيه المال والخدمات على النسبة الكبرى في الاقتصاد، واقتصاد المضاربة بات يحظى بالنسبة

^٨ سمير أمين، عن الأزمة، سبق ذكره، ص ١٩٨.

في أربعينية حرب ال ٧٥ واجب التذكّر وضرورة النسيان

فواز طرابلسي

كاتب ومؤرخ، لبنان.

الحرب، فوظفته في خدمة خطاب كامل عن الماضي. يقيم هذا الخطاب أبسط الأسئلة ويقدم لها الأجوبة الاستبدالية: لماذا قامت الحرب؟

هل كان يمكن تفادي الحرب؟

أما السؤال الأول فيستدعي رواية بل روايات استبدالية، ترد فيها الحرب وكأنها حدث واحد وليس سياقاً زمنياً. وهذا ما يسهل تحويل الحرب إلى نازلة وجائحة، أو إلى قدر محتم.

لبت فروض الأمنيزيا الرسمية الحاجة إلى إعادة إعمار نظام لبنان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي على الأسس ذاتها التي كان يقوم عليها قبل الحرب، أي على نظام طوائفي ليبرالي مركب، فجرى تدعيم الأول بالاحتشاد الديني، وجرى تحويل الثاني من الليبرالية إلى النيوليبرالية. هكذا جرى تقديم عملية الإعمار، على أنها عودة إلى «عهد ذهبي» من التعايش الطوائفي والازدهار الاقتصادي ساد قبل الحرب. لذا كان يجب قتل السؤال الساذج المنطقي: إذا كان وضع ما قبل الحرب رائعاً إلى هذا الحد وذهيباً إلى هذا الحد، فلماذا اندلعت الحرب أصلاً؟ الأمنيزيا لها جوابها: الحرب هي «حرب الآخرين» أو «حرب من أجل الآخرين» على الأرض اللبنانية، فيبراً اللبنانيون بالجملة من أي ذنب أو مسؤولية عن ١٥ سنة من الاقتتال والقتل والتدمير، ويعفون فرادى وجماعات من المحاسبة والمساءلة. «الآخرون» هم من يقع عليهم اللوم ولك أن تختار «الآخر» الذي يناسب اعتصابك السياسي - الطوائفي - المذهبي ونوع «كبش المحرقة» الذي تختار تحميله الذنب. ذنبك.

استكمل قانون العفو عملية «غسل الدماء» هذه - على غرار غسل الأموال - فمَنع المحاسبة والعقاب الجرائين على جرائم الحرب. بل انسحب، في الممارسة،

ثمة ثلاث عمليات ذهنية مرتبطة بالماضي. أود أن أضيف الأمنيزيا إلى الذاكرة والنسيان. والأمنيزيا هي الاسم الطبي لفقدان الذاكرة، يعين حالات فشل في عملية التذكر - على غرار «الفشل الكلوي» مثلاً - أو حالات من قمع الذاكرة. يسير الفشل والقمع وفق آليتي الاستبدال والنقل المعروفتين في علم النفس. تطاول عملية الاستبدال الأحداث المولدة للصدمة (التروما) فتحل محلها أحداثاً ثانوية بديلة. أما عملية النقل، فتتولى نقل المسؤولية عن الحدث الصادم - وتحمل الذنب - من طرف إلى طرف آخر.

ثمة مقابلة ساذجة تضع النسيان والذاكرة أحدهما في مواجهة الآخر. في بحث ثري بعنوان «النسيان» يذكّرنا مارك أوجيه بالعكس: النسيان إن هو إلّا «مكوّن من مكونات الذاكرة ذاتها». ذلك أنّ المرء لا يتذكر كل شيء وهو ليس ينسى كل شيء. هذا يعني أنّ عملية النسيان متواصلة مع عملية التذكر. ولعل الأهم هو قول أوجيه بأن قمع الذاكرة (الأمنيزيا) الأخرى أنه عملية قطع للوشائج والأواصر الواصلة بين الذكريات. (أوجيه، ٢٠٠٤: ٢٠ - ٢٥).

لماذا علينا أن نتذكر حرباً أهلية؟ الجواب المبسّط هو: لكي نتفادي حرباً مقبلة. غير أن الجواب يستدعي تحديد ما الذي يتعين علينا أن نتذكره؟ ما الذي علينا أن ننسى؟ علي افتراض أنه لا توجد ذاكرة مطلقة وأنّ كل عملية تذكر هي في الآن ذاته عملية نسيان، أو عملية تناس.

أسئلة ضد الأمنيزيا

يصطدم شاغل التذكر في لبنان بعقبة كبرى هي الأمنيزيا الرسمية المفروضة بعد الحرب. وقد تغذّت من مزاج شعبي عام يميل إلى تناسي أهوال

ليس يكفي تذكّر أهوالها. ما يمنع تكرار الحرب، أيضاً وخصوصاً، هو التعرّف إلى الأسباب والعوامل والمسارات والدروس. فـ«حقناً [أن] نعرف» هو حق - وواجب - الإجابة عن الأسئلة الممقومة المذكورة أعلاه. وهذا يعني إعادة وصل العلاقات والوشائج والأواصر بين الأحداث والأسباب والنتائج والأوقات والعبر، التي مرّقتها الأُمْنِيْزِيَا. وما إن تؤخذ المسافة اللازمة تجاه الحرب، تتحوّل عملية التذكّر والتذكير إلى روايات للحرب بما هي ماضٍ، بدلاً من الحالة المرصّية السائدة حالياً حيث الحرب تُعاش ويعاد تمثيلها باستمرار، فردياً وجمعياً، بما هي حاضر شاخص يتّأب، أو بما هي «حرب مستمرّة» لم تتوقّف في العام ١٩٩٨ ولا تنتهي فصولاً.

وهنا يقع دور النسيان تحديداً. أن نتذكّر الأسباب والمسارات والدروس وأن ننسى ونتناسى أعمال العنف. لكن لا هذا ولا ذاك، يحول دون المحاسبة والمساءلة ولا هو يحول دون النضال من أجل نظام اقتصادي اجتماعي سياسي أخلاقي يمنع تكرار الاقتتال الأهلي، مع أن هذا فصل بذاته من فصول التفكير في الذكرى.

إننا مدينون لأرنست رينان، المفكر القومي الفرنسي، بمعادلة مثيرة: تُبنى الأمم على ذكريات مشتركة ونسيانات مشتركة. لنقل إن فظائع الحرب، وجرائمها، ومتوّعات العنف فيها، الجسدية منها والطقوسية والرمزية، «خيرٌ لها أن تنسى». وهو التعبير ذاته الذي استخدمه أرنست رينان بصدد مجزرة «سان بارتيليمي»، التي ارتكبت في فرنسا بحق البروتستانت خلال الحروب الدينية بين بروتستانت وكاثوليك في القرن السادس عشر (رينان، ما الأُمّة؟ ١٩٩٢: ٤١ - ٤٢).

من هنا اقترح معادلة: واجب التذكّر وضرورة النسيان. لكنني أكّرت: إننا نستطيع أن ننسى فقط ما نتذكّره. و«ذاكرة للنسيان» هو عنوان يوميات محمود درويش عن الحصار الإسرائيلي لبيروت في صيف العام ١٩٨٢، ومن ضمنها مراجعة الشاعر النقدية لتجربة الوجود الفلسطيني المسلّح في لبنان. يقول العنوان كل ما يعيننا هنا: إنك لا تستطيع أن تنسى إلا ما تتذكّره، أي ما قد أنقذته من فشل الذاكرة أو قمعها بواسطة الأُمْنِيْزِيَا. بعبارة أخرى، النسيان فعل إرادي، أي إننا نستطيع أن نتناسى. لا تشكو لغتنا العربية حيلة في الاشتقاق!

تترافق ضرورة التناسي مع خيار آخر: نغفر أو لا نغفر. يقول مثل عربي قديم إن الإنسان سُمّي إنساناً لأنه ناسٍ. بإمكان النسيان أن يكون بناءً وأن يكون إنسانياً.

إلى تحريم المساءلة السياسية والأخلاقية. والأفدح من ذلك بكثير، أن قانون العفو استثنى من أحكامه دزينة من السياسيين والشخصيات الدينية من «رجال الدولة». ارتقت الجرائم بحق هؤلاء إلى مصاف «جرائم ضد أمن الدولة» وهي لا تزال عرضة للملاحقة والمحكمة والعقاب. ببساطة، إذا ارتكبت جريمة بحق المجتمع فأنت بريء، وإذا ارتكبت جريمة بحق الدولة فأنت لا تزال متهماً وعرضة للملاحقة والمحكمة والجزاء، وإذا أنت قتلت بضع عشرات أو مئات من المدنيين الأبرياء في مجزرة من مجازر الحرب، يبرّتك قانون العفو من فعلتك. أما إذا أنت قتلت، أو اشتركت في محاولة لقتل رجل سياسة أو شخصية دينية، فأنت لا تزال عرضة للملاحقة والمحكمة والعقاب.

ألا يعني ذلك، أن «رجال الدولة» - أي رجال الطبقة الحاكمة والشخصيات الدينية ممن قضى في تلك الحرب - هم وحدهم ضحايا هذه الحرب فلا عفو عن الجرائم المرتكبة بحقهم؟! وهل من إهانة أقسى وأبشع وأوقع لذكرى المئة ألف ضحية وعشرات الألوف من المعاقين وألوف المخطوفين، من هذا الاستثناء؟

الحق في المعرفة

ما الذي يجب أن نتذكّره وما الذي يجب أن ننساه في الحروب الأهلية؟

قبل الإجابة، لا تسير عملية قمع الذاكرة على ما تشاء الأُمْنِيْزِيَا دوماً. أبرز عقبة انتصبت في وجهها هي الذكرى الحيّة للألوف من مفقودي الحروب الذين لا يزال مصيرهم مجهولاً. إنهم الأحياء - الأموات يوخزون ضمائر الأحياء بواسطة هذا الالتباس الفاجع. وبفضل قبضة من نساء ورجال، من أهالي المفقودين، أمكن الإبقاء على هذه الذكرى المشتركة حيّة، وقد انتزعت نضالات أهالي المفقودين مؤخرًا مكسباً كبيراً على طريق تحقيق حقهم في معرفة مصير ذويهم، إذ فرضوا على الدولة تسليمهم ملفات التحقيق في شكاوى الفقد، وها هم يتهبأون لحفظ الحمض النووي للأهل وإثارة موضوع نبش المقابر الجمعية. «حقناً نعرف» هو الشعار الذي أطلقه أهالي المفقودين، وهو حق مواطنة قبل أي شيء آخر. من جهة ثانية، شكل نضال أهالي المفقودين على امتداد العقود الأربعة الأخيرة محوراً وملهماً لنضالات وتحركات لا متناهية تحت عنوان «تذكر [الحرب] لما تنعاده». وهو شعار فائق الصلاحية لكن بشرط توسيع نطاق الذاكرة. فلنكي لا تعاد الحرب

من «تذكرت ما تنعاد» إلى «٤٠ الحرب» قراءة في الظرف السياسي

بول الأشقر

صحفي، لبنان.

هذا النص يحاول المقاربة بين حملتين قامت بهما «حقنا نعرف» و«لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان»، أي حملة «تذكرت ما تنعاد» (عام ٢٠٠٠) وحملة «٤٠ الحرب» (في العام الحالي) ويتنطح لمقارنة بين الظروف السياسية التي كانت تحيط بكل من الحملتين، والدور «المتقدم» الذي حاولت «حقنا نعرف» ولجنة الأهالي لعبه كل مرة في ظروف غير مواتية وفيما المجتمع لا ينوي (كما في العام ٢٠٠٠) أو لا يستطيع (كما هو الوضع حالياً) المبادرة.

قذيفة عشوائية أصابت توازن حياتك وحياة ذويك وربطتك بالمفقود وعزلتك عنه. ولا تستعيد هذا التوازن إلا باستعادة الخيط الذي يربطك بالمفقود، حياً كان أو ميتاً، وعندما تتوحد الصورة وتتطابق مع الواقع، وعندما يطمئن أهالي المفقودين إلى أنّ دولتهم أخذت عنهم هذا الثقل وصارت هي تبحث عنهم ومعهم عن مصير أحبائهم، عندئذ يجوز الحديث معهم عن التعويض. من هنا، يمكن فهم حيرة أهالي المفقودين وضياعهم عندما اكتشفوا أن الدولة تستعملهم في أدبياتها (عبارة «أكثر من سبعة عشر ألف مفقود» ظهرت لأول مرة في أدبيات «مجلس الإنماء والإعمار» الباحث عن تمويل للإعمار!) ولا تتعرّف إليهم أو إلى قضيتهم في الحياة اليومية.

ولادة الحملة الأولى

في ليلة خماسينية رطبة من ليالي بيروت الصيفية في العام ١٩٩٩، رنّ جرس البيت في ساعة متأخرة. فتحت الباب وإذا بصديق قديم (ألبيير) يدخل المنزل بحركاته العريضة وبرفته سيّدة صغيرة، نحيلة، تعرّف عن نفسها وهي تعتذر لدخول البيت في هذا الوقت. وبعد أن جهّزنا لجلسة على الشرفة، بدأت تسرد قصة طويلة مثيرة لا تنتهي، شرحت فيها قصة مفقودي حرب لبنان التي كنت أجهلها من هذا المنظار، وبالتأكيد بهذه الدقة، إذ لم أكن في لبنان ما بين ١٩٨١ و١٩٨٦ (أي منذ

حين أسسنا في العام ٢٠٠٠ حملة «حقنا نعرف» بمبادرة من ألبيير أبي عازار (وكان منسّقها الأول)، كانت «لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان» في وضع صعب. تشكلت اللجنة في أوج الحرب الأهلية، وصمدت أمام كافة المليشيات، وبحجت حتى العام ١٩٨٤ في إقفال المعابر للتعبير عن سخطها بعد انتحار نائفة تجار في ذكرى مولد وحيدها. ما كاد يقضي على اللجنة هو السلم وليس الحرب. في الحرب، كان الأهالي ينتظرون السلم ليبحث عن ذويهم ولتدير شؤونهم الخاصة المعلقة. فقد مرّ قطار السلم ولم يتوقف لكي يصعدوا فيه، بل حصل الأسوأ من ذلك، إذ صارت الدولة مرتعاً لمرتكبي الحرب، تخدمهم وتهلل لهم، وهم يتسلمون تقليدياً مقاليدها بالمفرق وبالجملة. في هيصة «السلم والإعمار والرشوة»، لم يكن متاحاً أمام أهالي المفقودين إلا الطرف الثالث من المعادلة إن شاؤوا... وكيف يشاؤون؟ وبدل عرض «التعويض المالي» على أهالي المفقودين على جهل مطلق لماهية مآساتهم. فهؤلاء ليسوا «مجرد» مهجرين أو مصابين أو متضررين. إنهم كل ذلك في الوقت نفسه. ناس مسكونون بفجوة تؤلمهم أحياناً في الليل وأحياناً في ملء النهار وليس لها مسكن. كابوس لا يتوقف مع طلوع الفجر، يبقى مختبئاً ولا يندّر بظهوره. الموت فاجعة تعالج بالحداد ثم بالتأقلم ثم بالنسيان. الفقدان شيء آخر تماماً لأنه لا يسمح بالحداد، إذ هو جرح مفتوح،

مطروحاً على كل واحد منا، كفرد في علاقته مع نفسه، مع أولاده ومع وطنه. هل نتعاطى مع الحرب كأنها لم تقع؟ هل نتكاذب كأن شيئاً لم يحدث؟ هل من المفيد لأولادنا وللبنان أن تمر المناسبة مرور الكرام؟.

ربما لأن مزامير السلم والأعمار كانت قد بدأت «تنشز»، لاقى سرد «تذكرت ما تنعاده» ولحنها استحساناً لم يكن في الحسبان، وتجمع آلاف الناس في ساحة الشهداء في حشد مفعم بالعفوية والتنوع. ميزة أول تجمع يحصل في ١٣ نيسان أنه كان يطالب الدولة (التي لم تستجب). ميزته أنه أراد من الدولة أن تفعل شيئاً (الإعلان والنصب) لكي تعود وتنظم كل الأيام الأخرى، لا أن «يحتفل» في هذا اليوم كأنه حصة المجتمع الصغيرة، تاركاً سائر الأيام الأخرى للمحاصصة الكبرى.

ومرت الأيام، وتميز نضال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين بمنحى قانوني سمح بمشاركة خبرات دولية خصوصاً من الأرجنتين (من خلال زيارة لورا بونابارت) ومع البوسنة (حيث سافرت اللجنة مع أطراف أخرى)، فضلاً عن شبكات أهالي المخطوفين عبر المتوسط وغيرها.

أما ميزات المرحلة الباقية، فهناك أولاً التقارب الذي حصل مع «سوليد» (التي أنشئت بعد الانهيار العسكري العوني للدفاع عن المنفيين والمعتقلين والمفقودين المرتبط بسورية) حيث قام بين اللجنتين تحالف قائم على الثقة المتبادلة بين حلواني وغازي عاد، وخصوصاً العمل الدؤوب والرائع الذي قامت به اللجنة الدولية للصليب الأحمر التي أمنت كل القدرات والتقنيات وحرصت في الوقت نفسه على احترام سيادة الدولة اللبنانية وترك مقعدها محجوزاً لها عندما تقرر الالتحاق بواجباتها؛ أخيراً وليس آخراً التغطية التي قدمتها «المفكرة القانونية» تحت إشراف نزار صاغية الذي لم يترك ثغرة قانونية إلا طرقها. وتبلورت كل هذه الجهود في مشروع قانون نيابي ودعاوى عديدة إلى أن جاءت مفاجأة سارة (بعكس العادة) في العام ٢٠١٤ من خلال قرار مجلس شوري الدولة. وقد شكل القرار اعترافاً صريحاً وخلاقاً وجريئاً بـ «حق المعرفة»، وطالب الدولة بإعطاء الأهالي – ممثلين في لجنتهما – حق إقرار التحقيق الخاص بالمفقودين «دون انتقاص أو تقييد أو استثناء». كلام بعكس التيار وبالعكس الروائح العفنة التي تصدر عن السلطات.

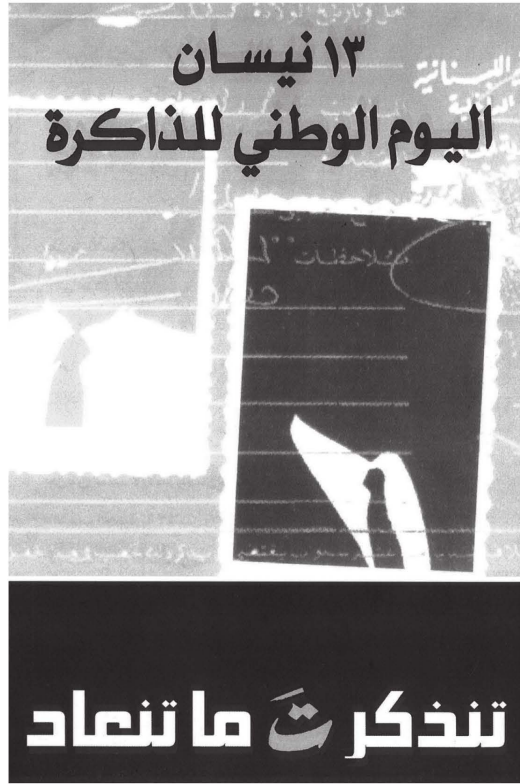
تأسس لجنة الأهالي مروراً بإقفال معابر البلد في العام ١٩٨٤ ثم بفتحها في مقابل لقاء مع رئيس الجمهورية أمين الجميل! وهو إنجاز «حربي» كبير لم يتوقف عنده مؤرخو الحرب اللبنانية في أربعينها!.. طلع الفجر على سطوح بيروت، وصرنا نلتقي يومياً مع ألبير ووداد (اسمها وداد حلواني) ومريم «النائبة الأولى» وحسانة – الصديقة الدائمة – وسنان – المحامي الأول! – وعرفنا أدراج المتحف وحوله أم تيسير – نجمة التجمع من دون منازع – وأم محمد ومدام حشيشو («كبيرتنا الصامتة») وابنتها، وأوديت (التي صدمتها سيارة وهي تركض إلى الاعتصام في حديقة جبران قبل سنوات، وهي صاحبة أول عينة حمض نووي أخذناها ومن خلالها شعرنا كأن كريستين ورولان صاروا أولادنا جميعاً، ليس فقط أولاد أوديت). ومع الاعتصام، صرنا نوجه رسائل إلى رئاسة الجمهورية بالتوازي مع التحرك أمام مقر الحكومة.

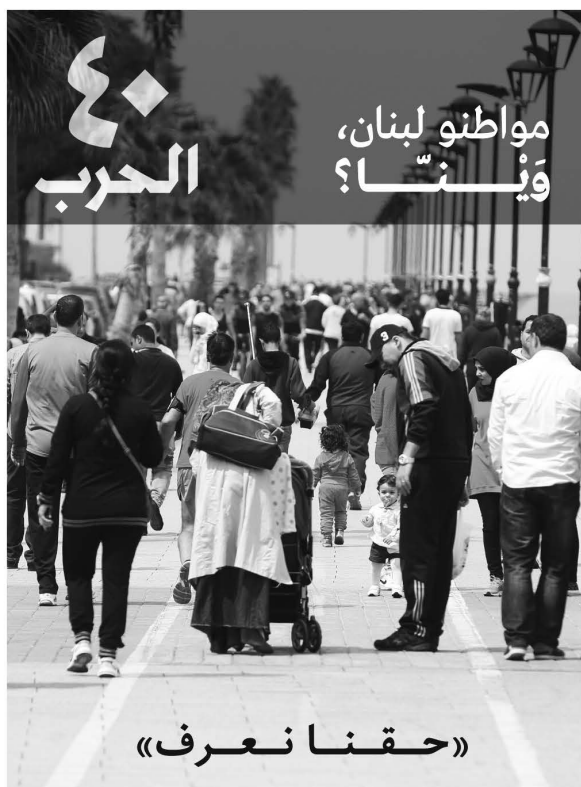
وجاء نيسان ونحن نعمل كالنحل لإنجاح التحرك الذي يطالب بـ «إعلان ١٣ نيسان يوماً وطنياً للذاكرة وإقامة نصب تذكاري لتخليد جميع ضحايا الحرب

ميزة أول تجمع يحصل في ١٣ نيسان أنه كان يطالب الدولة أن تفعل شيئاً لكي تعود وتنظم كل الأيام الأخرى. لا أن «يحتفل» في هذا اليوم كأنه حصة المجتمع الصغير.

يكون إدانة ماثلة لجرائمها». كنا نعتقد أن هذا اليوم وهذا النصب كفيلا بإعادة انتظام المجتمع حول مبدأ – لو ترسخ – لسمح للجميع (بمن فيهم أهالي المفقودين) بإعادة الاجتماع حوله. هنا تقدم وعي لجنة الأهالي على المجتمع وأرادت أن يتبناها – وكذلك الدولة – وتبرعت اللجنة باحتضانها في هذه المناسبة. لأول مرة، يسأل أحد هذا الانتقال الزجلي من الحرب إلى الإعمار، من دون وقفة تأمل في الوراثة. وقامت حملة «تذكرت ما تنعاده» (التي اعتمدت على تلحين زياد الرحباني وتمثيل كارمن لبس ورفيق علي أحمد وتعاون «بوست أوفيس» اللامحدود وتسجيلات تلفزيونات وإذاعات وصحف من كل صوب ولون) حول طرح مسألة واحدة تكمن في كيفية تعاطي الأهل مع أولادهم بشأن ما حدث: «يبقى موضوع كيفية التعاطي مع الحرب (...) موضوعاً

ذاكرة





ذاكرة





في العام ٢٠٠٠، كان السلم «ماشى»، وكان المطلوب وضع «ياقطة» على تقاطع الطرق لتحديد وجهة الذاكرة والتجمع والسير. الوضع يختلف تماماً في يومنا هذا. الوطن مسكون بأربعين حرباً، كل واحدة تتغذى من الأخرى وتغذيها. الاستقطاب والخندقة، الحرب العالمية السنية الشيعية. شهران قبل ١٣ نيسان، فاجأتنا وداد عندما قالت «هذه السنة لا أريد أن أحتفل بـ ١٣ نيسان فيما الحروب تحاصرنا كالأفاعي من كل صوب. لم يعد هذا الطقس يفي بالمطلوب». من هنا أتت فكرة «أربعين الحرب». بعد الأربعين، يُفكّ الحداد. ونحن بعد أربعين سنة لا نستطيع أن نفكّ الحداد ولا أي شيء.

ثم جاءت فكرة الأسئلة. ليس لدينا أجوبة عما يحصل، إذاً دعونا نحاول أن نطرح أسئلة لاستعادة الحد الأدنى من المقاربة المواطنة. في الأساس كانت الأسئلة خمسة (الخامس كان «طرابلس وبنك؟») ثم عادت أربعة، ثم كسونا الأسئلة بالصور (ثلاث من دار المصور والأخيرة من دينا دباس)، ثم ألبست نادين الصور بالأبيض والأسود والأحمر الفاتح، وأتى علاء ليعتني بالتواصل. ثلاثة أسئلة مأخوذة من كلام الناس «التأفه» أعدنا صياغتها بعناية، وسؤال رابع لا يسأله الناس، ونحن نريد أن نسأله (حول المفقودين). والقرار الأخير كان الاستمرار أربعين يوماً (قبل ١٣ نيسان وبعده) للقيام بـ «جردة وطنية». جردة أربعين يوماً عن الأربعين سنة التي مرت. إذ لا ينفع كثيراً أن نقول جميعنا في يوم واحد إن الحرب بدأت منذ أربعين سنة، فقد أصبحنا جميعنا مسجونين في أربعين حرباً جديدة – صغيرة متوسطة وكبيرة – في كل الأيام الباقية.

قلنا من الأفيد تأمل الأسئلة «المواطنة» (المنزهة عن التجاذب السعودي الإيراني) وأن يجب كل قطاع على ما حلّ به خلال الأربعين سنة الماضية، أي أن يعيد الوطن والفرد طرح أسئلته الخاصة، أن تقول المستشفيات ماذا حل بالمستشفيات والجامعات ماذا حل بالجامعات والمصارف ماذا حل بالمصارف والإعلام ماذا حل بالإعلام الخ.

تصوّر ساذج، افتراضي تقول لغة اليوم، تصور أرادته «حقنا نعرف» (بمساعدة بيكاسو) بصرياً في الأساس على أمل أن يكون بداية ورشة تستمر بعد الأربعين يوماً. وكل ذلك، بانتظار معركة الحريف التي نعتقد أنها فاصلة لتحديد مصير قضية المفقودين في لبنان.

حاولت الدولة بعد ذلك التنصل ووقف التنفيذ، وصمد مجلس شورى الدولة. وبعد مرور ستة أشهر، والدولة لم تمتثل، بدأت اللجنتان برنامج «زورونا»، وهو دوام أسبوعي أمام السراي الحكومي حتى تسليم التقرير. وكانت الحملة مُعدّة لتستمر ستة دوامات

من هنا أتت فكرة «أربعين الحرب». بعد الأربعين. يفيك الحداد. ونحن بعد أربعين سنة لا نستطيع أن نفكّ الحداد ولا أي شيء.

كاملة، إلا أن رئيس الوزراء تمام سلام قرر تسليم التقرير ساعات قليلة بعد بداية الدوام الأول. خرجت سيده أنيقة من السراي وتقدمت من الحفنة التي كانت قد نجحت في خرق حواجز الأمن، وأعني وداد وغازي والصحافيين، وقد لاقاهم النائب غسان مخيبر... ثم عقدنا دواماً ثانياً لتحليل مضمون ما تسلمناه (في الواقع أعادوا للأهالي ما كان أعطاه هؤلاء... أي إفاداتهم!!). ثم نظمنا حفلاً مهيباً في نقابة المحامين عُتت فيه أميمة الخليل النشيد الوطني. وسلّمت وداد (وقد تقمصت القضية في هذا اليوم) وغازي صندوق التحقيق «أمانة» لدى فابريزيو كاربوني، رئيس البعثة الدولية للصليب الأحمر. وتمكنت نقابة المحامين من استلحاق جزء مما فاتها برعاية الحفل واستضافته.

ولادة الحملة الحالية

تبقى المارك الأصعب (والأبسط لو كانت دولتنا دولة!) هي جمع عينات الحمض النووي من الأهالي وإقرار قانون في مجلس النواب للبحث عن المفقودين وتحديد مصيرهم، أسوة بدول العالم، بشكل علمي، مجرد، متخصص كما في الدول التي تستحق نعت الدولة، كمن يبحث عن الآثار، تحت خيمة وعلى جانب الطريق. إنّ نضال لجنة الأهالي أفرز بديناً برنامجياً واقعياً وشبكة من التحالفات الموجودة، مع أنها غير كافية، ومحاولة ابتدائية لمأسسة لجنة الأهالي على الأقل. الحقيقة تقتضي القول بأن الأهالي شاخوا وتعبوا خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، وكذلك المتابعة مع الجيل الثاني تبقى صعبة ومعقدة.



١٩٧٥

بداية الحرب ومعها ظاهرة الخطف والفقدان.

١٩٨٢

تأسيس لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان (راجع بدايات عدد ٨-٩).

١٩٨٤

لجنة الأهالي تقفل المعابر خلال عدة أيام إثر إنتحار نايقة نجار حمادة بعد انقضاء تسعة أشهر على اختطاف ابنها الوحيد علي ابن الثلاثة عشر عاماً، ولا تفتحها إلا بعد قبول رئيس الجمهورية، أمين الجميل آنذاك، بإستقبال وفد من اللجنة.

١٩٨٩

إتفاق الطائف يعلن إنتهاء العمليات الحربية والعفو عن مجرمي الحرب دون الإلتفات إلى ضحاياها وعلى رأسهم أهالي المفقودين.

١٩٩٠

تأسيس لجنة سوليد ما يعني «دعم اللبنانيين المعتقلين والمنفيين».

١٩٩٩

تأسيس «حقنا نعرف»، هيئة مدنية لدعم لجنة الأهالي وحضنها. تبدأ إعتصامات لجنة الأهالي الأسبوعية على المتحف قرب مقر مجلس الوزراء في موعد انعقاد إجتماع هذا الأخير الأسبوعي تحت شعار «نحن ولادك يا دولة».

٢٠٠٠

تحت ضغط التحركات الميدانية، يشكل الرئيس سليم الحص أول لجنة تحقيق رسمية. تنظم مع «حقنا نعرف» حملة «تذكرت ما تنعادت» التي تطالب الدولة بتحقيق مطلب لجنة الأهالي بإعلان ١٣ نيسان، يوماً وطنياً للذاكرة وإقامة نصب تذكاري لكل ضحايا الحرب. آلاف من المواطنين يتوجهون إلى ساحة الشهداء. بعد تسلمه تقرير لجنة التقصي الذي يتضمن أول حديث رسمي عن مقابر جماعية، يوزع مجلس الوزراء بياناً رسمياً يوصي الأهالي بتوفية ذويهم.

٢٠٠١

تشكيل لجنة رسمية ثانية اثر الافراج عن ٥٤ معتقل من السجون السورية وانتفاضة الأهالي. ظاهرة اكتشاف المقابر الجماعية اثر التحرير وخروج اسرائيل (بشكل خاص في الجنوب والبقاع).

٢٠٠٢

صدور اول حكم قضائي عن محكمة جنابات جبل لبنان ضد خاطف (القاضي جوزف غمرون).

٢٠٠٣

مشاركة السيدة لورا بونايرت، إحدى مؤسسات «مجنونات ساحة مايو» الأرجنتينية في احياء ذكرى ١٣ نيسان.

٢٠٠٥

نشر مسودة تقرير اللجنة الرسمية الثانية من قبل نقابة المحامين في بيروت. تشكيل لجنة رسمية ثالثة مشتركة لبنانية سورية. ظاهرة اكتشاف المقابر الجماعية اثر الخروج السوري من لبنان (مقبرة عنجر ثم المقبرة في محيط وزارة الدفاع). تنظيم حملة «ذاكرة الحرب وانصاف الضحايا» (مع الجمعيات الممثلة للضحايا: لجنة الأهالي، اتحاد المتعدين، المهجرين وعدد من الجمعيات المعنية بحقوق الانسان).

٢٠٠٦

تشجيع العسكريين الذين وجدوا في مقبرة وزارة الدفاع. العثور على رفات ميشال سورا واقامة تشييع رسمي يشارك فيه ٦ وزراء والقيادات العسكرية.

٢٠٠٨

مذكرة مشتركة من حوالي ٢٠ جمعية رفعت الى رئيس الجمهورية (ميشال سيمان) بتشكيل هيئة وطنية لمعالجة الملف. ترد القضية في خطاب القسم الذي يتعهد بالعمل الدؤوب للحل. تعود وترد في البيان الوزاري لحكومة الرئيس نجيب ميقاتي (وأيضاً في حكومتي الرئيسين فؤاد السنيورة وسعد الحريري).

٢٠٠٩

دراسة قانونية للمحامي نزار صاغية عن ذوي المفقودين وحق التقاضي. تقديم دعويين أمام قاضي الأمور المستعجلة في بيروت. وفاة أوديت سالم صدماً أثناء توجهها الى خيمة



الاعتصام ، وتعليق لوحة تذكارية على عامود في حديقة
جبران خليل جبران.

٢٠١٠

زيارة البوسنة والهرسك والاطلاع الميداني على سياسة
وكيفية معالجة قضية المفقودين هناك.

٢٠١٢

فضيحة مقبرة الشبانة وقبلها حالات. ينظم المركز الدولي
للعادلة الانتقالية يوم عمل للاعلان عن انجاز مشروع
قانون الأشخاص المفقودين والمخفيين.

٢٠١٣

تقرير تلفزيون الجديد عن مشرحة جبل لبنان العائدة
لمستشفى بعيدا الحكومي حيث توجد جثثا مكدسة منذ
سنوات طويلة. صدور الحكم بقضية محي الدين حشيشو
بتبرئة المتهمين بخطفه. تقديم طعن بقرار المحكمة.

٢٠١٤

صدور قرار عن مجلس شوري الدولة يقضي بتسليم
لجنة الأهالي وسوليد نسخة عن كامل ملف التحقيق
الذي أجرته لجنة الاستقصاء الرسمية عام ٢٠٠٠
«دون أي انتقاص أو تقييد أو استثناء...». ولكن رئاسة
الحكومة لم تمتثل. بعد إعطاء الحكومة ٦ أشهر، تنظم لجنة
الأهالي وسوليد دوماً أسبوعياً بعنوان «زورونا» أمام
السراي الحكومي كل يوم خميس، موعد إجتماع مجلس
الوزراء. قبل إنتهاء أول «دوام»، يعلن الرئيس تمام سلام
الإمتثال للقرار القضائي في الـ ٤٨ ساعة القادمة.
يتسلم محامي الجمعيتين من رئاسة مجلس الوزراء
صندوقاً يحوي ملفات التحقيق، ثم تعقد اللجنتان مع
المحامي مؤمراً صحافياً لتحليل مضمون الصندوق.
في حفل رسمي في نقابة المحامين وتحت إشراف نقيبها
تسلم لجنة الأهالي وسوليد نسخة عن ملف التحقيق
الرسمي للجنة الدولية للصليب الأحمر.

٢٠١٥

بمناسبة مرور ٤٠ سنة على بدء الحرب اللبنانية، تنظم لجنة
الأهالي مع «حقنا نعرف» حملة «٤٠ الحرب» التي تستمر
٤٠ يوماً وترفع ٤ صور لحث المجتمع على القيام بجدرة
وطنية عما حدث خلال آخر أربعين سنة.

من نضال مزارعي التبغ في الجنوب انتفاضة أهالي عيترون ١٩٦٨

حسين بعلبكي

مناضل شيوعي
مخضرم. أسهم في
تأسيس نقابة مزارعي
التبغ في الجنوب
وقيادة نضالاتها.
صاحب «مكتبة جبل
عامل» في بلدته
عيترون.

الشيوعيون في البلدية

بعد فوز الشيوعيين في بلدية عيترون عام ١٩٦٥، عقدت منظمة الحزب الشيوعي اجتماعها العام بحضور كافة أعضائها الـ ٧ في منزل محمد علي فقيه، واتخذت قراراً بتصويت الأكثرية على أن هذه البلدية هي لكل أهل عيترون، وأن الشيوعيين لا يختلفون عن غيرهم من أهل البلدة، فانزعج البعض من هذا القرار، وانسحبوا من الاجتماع على الرغم من أننا حاولنا إقناعهم بأن «الأسعدية» الذين خسروا هم من أهل البلدة مثل غيرهم.

كذلك، اتخذ الاجتماع قرار تنويه وتقدير للمربي الكبير الأستاذ محمود الأمين، أطال الله في عمره، عضو قيادة الحزب آنذاك ومدير مدرسة عيترون. كان أستاذاً بكل ما للكلمة من معنى، ومربياً فاضلاً يهتم لأموال الطلاب ويتابع تحصيلهم ويلاحقهم إلى بيوتهم للاطمئنان إلى أنهم يدرسون ويجدّون. وعلى سبيل المثال، كان في تلك السنة أربعون طالباً تقدموا لنيل شهادة البريفيه، ونجح منهم ٣٨، ومن ثم تعاقبت نجاحات الطلاب في كل السنوات التي كان فيها الأستاذ محمود مديراً للمدرسة. (كان الولد يلّي حظو سيي، يلتقي فيه بالشارع وما يعود يسترجي يروح ثاني يوم عالمدرسة إلا ليروحوا أهلو عالمدرسة ويقولو للإدارة إنو كانوا باعتين ابنهن بشي مهمة).

أما القرار الثالث، فكان للاطلاع على نتائج البرنامج التثقيفي والأخلاقي الذي كان قد نُفذ لمدة سنة. وكان هذا البرنامج عبارة عن مواد تثقيفية تُعطى خمس مرات أسبوعياً، وكانت تضم: وصيّة الإمام علي لحاكم مصر من كتاب «نهج البلاغة» (توصيته بالفقراء والمساكين)، كُتِباً لجبران خليل جبران، وخالد محمد خالد، ومكسيم

غوركي (خصوصاً «طفولتي» ورواية «الأم»)، وجورج حنا (كان قد أهداها لي سنة ١٩٥٤ عندما كنت معه في «لجنة أنصار السلام»).

وأذكر بعض الأشخاص الأثمين مثل محمد موسى الدروبي المعروف بأبو حبشة، الذي كان يلتهم القراءات التهاماً ويصممها عن ظهر قلب كإنسان جائع محروم من الطعام لأيام، كما كان يهتم بأمور الآخرين ويلخص للمتأخرين عن البرنامج ما فاتهم من مواضيع. أما البرنامج الأخلاقي الملحق بالبرنامج التثقيفي، فكان عبارة عن توصيات بالامتناع عن ضرب النساء، وعن لعب القمار، والكذب وشرب الخمر في الأماكن العامة. وكان إذا ما تورّط أحد الشيوعيين بشيء مما ذكرناه، يصدر بحقه تنبيه أو لوم أو تجميد أو حتى طرد.

تحت سيطرة شركة «الريجي»

كانت شركة «الريجي» تشكل سلطة فوق الدولة، ترشي كل الزعماء السياسيين، وبعض كبار العسكريين والأديرة بمنح رخص التبغ، وهم بدورهم يؤجّرونها إلى المزارعين الفقراء. وكان في عيترون ورميش آلاف الدوغمات التي تؤجّر من الزعماء والأديرة إلى المزارعين الفقراء المحرومين من الرخص. وكانت الريجي قد فرضت سلطتها وسطوتها على نقابة المزارعين التي كانت بدورها تقف مع الشركة وتأمّر بأمرها، وكان وقتها الصراع على النقابة بين آل الزين وآل الأسعد. كان هذا قبل أن تأتي نقابة تحالف أحزاب «الحركة الوطنية»، وكانت تعمد الشركة في قوانينها إلى أن تأخذ من المزارع ثمار تعبهم المجبول بالعرق والدم.

وفي كل سنة كانت تحصل صدامات بين المزارعين الفقراء وجماعات الريجي، خصوصاً عند كيل

المساحات وتسلم المحصول، وكان رجال الدرك والجمرک وزبانية الشركة يمارسون كل أنواع التهيب والترغيب والحبس طالما كان ذلك يخدم قوانين الشركة.

كان المزارع يطعم في زراعة ٢٠٠ متر أو نصف دونم بدون رخصة ليعوّض بعض مما يدفعه إلى مالك الرخصة. كان أول من تجرأ وزرع أكثر من دونم، محمود أيوب حيدر من عيترون، وكان لديه عائلة كبيرة يجب أن يعمل جاهدًا ليطعمها، فكان كل سنة «يعمل عركة» مع الريجي. «يوم كنا أنا وأم جبران عم نحلش شوية باقية، شرفوا زبانية الريجي ومعهم دالول من عيترون»، وكانت القطعة التي كنا نزرعها على الحدود مع فلسطين، حين رأيتهم، جن جنوني عليهم وقلت: «لهون لاهقيتي يا إخوان الفاعلة» فضربت أحدهم وهرب الثاني إلى داخل أرض فلسطين. أما الدالول فنفي مسؤوليته وانسحب. بعد ساعة، اتى الدرك واقتادوني إلى مخفر بنت جبيل، ومن ثم إلى صيدا. بعدما علم الحزب الشيوعي بتوقيفي، أرسل لي أحمد الحسيني والمحامين نخلة مطران وكاسبار كسباريان. وبعد اللقاء مع المحقق، رفض هذا الإفراج عني بحجة أنني ضربت أحدهم ولديه تقرير من الطبيب الشرعي بذلك، وبأن لدي مشاكل سابقة مع الريجي، وليس هناك إمكانية للإفراج عني. أثناء توقيفي، كنت أتجول في باحة السجن، فخرج أحد المساجين وقال «بيقلك شاويش الحبس، فوت لجوا». قلت له: «بعد شوي». تكرر الموضوع ثلاث مرات فقلت له: «قلو بيقلك... إحتك وإخت لي حطك شاويش». كنت أنتظر وصول رفاقي الذين ذهبوا للقاء معروف

اختتم التناقض بين حاجات المزارعين المتنامية باستمرار لجني ثمار أتعابهم المغموسة بالعرق والدم وبين استغلال واستبداد شركة الريجي ومالكي الرخص من زعماء وإقطاعيين.

سعد للتوصل لحل، بعدها دخلت إلى الزنزانة، ففوجئ الجميع بمعرفتهم بي، كان حسين خميس من يارون وآخر من آل بيضون، مسؤول الحزب القومي السوري في بنت جبيل، فقالوا: «من جوابك عرفنا إنك قديم». بعد توقيفي لمدة خمسة أيام، حضر معروف سعد إلى المحكمة لحل الموضوع فحكم القاضي بالإفراج عني واكتفى بمدة التوقيف، «وألله يعين يلي بفوت عالحبس أول مرة، بيسلموه المحاييس». وبهذه الحادثة تخطت توقيفاتي العشرين مرة.

لقاء مع فؤاد شهاب

خلال مقابلتنا مع رئيس الجمهورية فؤاد شهاب حصلنا منه على وعد «أزرع ولا تقطع»، كنا حينها وفداً كبيراً أكثر من مئتي شخص من عيترون ورميش وقرى عدة، شرحنا له معاناتنا مع شركة الريجي وكيفية توزيع رخص التبغ على زمن الرئيس كميل شمعون، وقتها أصغى لنا الرئيس شهاب وتفهم وضعنا وقال بالحرف: «روحوا إلى المزارعين وقولولهن في زمن فؤاد شهاب ازرعوا ولا تقطعوا». وبالفعل كان انتصاراً حققه المزارعون في مفاوضاتهم وتوحدتهم وإجماعهم. هذه القضية تشبه اليوم قضية «هيئة التنسيق» مع سلسلة الرتب والرواتب. وكان الشيوعيون من المزارعين ومع كل المزارعين المحرومين من الترخيص.

اختتم التناقض بين حاجات المزارعين المتنامية باستمرار لجني ثمار أتعابهم المغموسة بالعرق والدم وبين استغلال واستبداد شركة الريجي ومالكي الرخص من زعماء وإقطاعيين والذين كانوا قد حصلوا على تراخيص وأذونات بمئات الدونمات بدون مقابل سوى قريبهم أو ولائهم لهذا المسؤول أو ذاك.

سنة بعد سنة تكررت فيها زراعة الزوائد واعتبرتها الشركة مخالفات يجب إتلافها وحرمان المزارع من الاستفادة منها حتى أصبحت الزراعة من دون ترخيص توازي الزراعة المرخص لها.

وعلى مدى عدة سنوات كانت لجان المزارعين تعمل على مقابلة المسؤولين، خصوصاً وزراء المال ورؤساء الحكومات، وكان أحد اللقاءات مع المرحوم رشيد كرامي الذي استقبلنا في بيته ودام الاجتماع عدة ساعات. شرحنا له كيفية زراعة التبغ ومعاناة مزارعيها، وقلنا له إنه حتى الجنين في بطن أمه كان يعاني من هذه الزراعة الملعونة. شكونا له أن الريجي تتلف الأوراق الأولى من شتلة التبغ واسمها «التكعية». عندئذ قال: «يا أبنائي ليش بتزرعوا تكعية حتى تضطر الشركة أن تتلفها؟» فطلبنا منه الوقت الكافي، وقام أحد المزارعين وقال:

«بدي فرجيك البذرة الأصغر من راس الإبرة وكيف منزرعها ع مدى أربعين يوم حتى تصير شتلة وبعدين منشيلها شتلة شتلة لنزرعها بالأرض الصالحة يلي بتكون مفلوحة أربع مرات. وبعد ١٥ يوم منرمي ورق التكعية بالأرض ومنيلش كل ١٥ يوم نطف قطفة ومنجي غلبت ومنشكهن ورقة ورقة بمببر حديد وخط مضيض ومنعلقها عالسقالة بالشمس حتى تنشف ومنعود نصب





كل خمس خيطان يلي منسميهن «صندل» ومنعلقهن بسقف البيت يلي ننام فيه ويعدين منفطهن من الخيط ومنصفطهن ورقة ورقة كل عشر ورقات صفطة ومنعود نحطهن صفطة صفطة بالدنك يلي بيوزن من ٢٠ لـ ٢٥ كيلو ومنرجع نقدمهن للخبير».

بعمليات التفتيش. في الوقت عينه، كانت شركة الريجي تقوم بتهديد الناس على لسان عملائها وجواسيسها بأنها ستتلف كل موسم الدخان الذي كان موسماً غنياً حيث كان منظر «مرج المحافر» الأخضر كأنه قطعة من الجنة. كذلك «مرج الشقة» الذي يفوق الألفي دونم، قطعة واحدة، كان مرجاً زاهياً مزيناً بأزهار التبغ التي يخيّل إلى الناظر أنها قطعة سجاد عجمي. وكان هذا المنظر يؤلم العدو المتربص على الحدود.

في هذه الفترة، عقد الحزب الشيوعي مؤتمره الثاني واتخذ قراراً تعسفياً يطرد أعضاء «التيار اللينيني» من الحزب، مما انعكس سلباً على وحدة الحزب وتماسكه. لكننا في عيترون، قررنا أن نبقي على ارتباطنا مع كل الأفراد كي لا تنتشوه سمعة الحزب في البلدة ولكي نكون صفاً واحداً في المعركة المرتقبة.

الانتفاضة

١٩ تموز عام ١٩٦٨ يومٌ يختلف عن كل الأيام. ناس يقولوا عترو يوم الانتفاضة وناس يقولولو يوم الثورة. فقت من النوم الساعة ٨ الصبح على صوت أنيس فقيه عم يسأل إم جبران: «وين بو جبران»، قمت من النوم وقلتلو: «اتفضل» قال: «بعذك نايم؟ قوم شوف هالشوفة، خربت الدني»، قلتلو: «خير، شو في؟»، قال: «قوم ضهار لبرا وشوف شو في»، المهم ضهرت عالبرندا واطلعت إلى جهة الغرب وشفّت قافلة آليات من راس «عقبة السوق» (اليوم يسموها «مثلث الصمود» بيوتها مختلطة من عيترون وعيناتا وبنّت جبيل). أول ما شفت رتل هالآليات، تذكرت لما دخل الجيش اللبناني في حرب فلسطين وحرّر المالكية سنة ٤٨. بس هذي المرة كانوا جاين يحرروا عيترون من موسم التبغ. تقدم الرتل ٣ جيبات و٤ شاحنات، فيهن أكثر من ١٠٠ دركي وخلفهم عدة تراكتورات وعدة سيارات لموظفي الريجي والعشرات من العمال يلي جابتهن الريجي عشان ينظفوا الأرض بعد ما تفلحها التراكتورات.

ما إن وصلت القافلة إلى ما بين بيت محمود حجازي من الشمال وعبد الحسن الشيخ حسين من الجنوب، بدأت المعركة، وعلى مدى ساعة ما قدرّت القافلة تقطع أكثر من ٥٠٠ متر، من بيت محمود حجازي إلى محلة بئر ناصر. اشتدت المعركة وعند بئر ناصر، حطمت الجماهير الثائرة شاحنة وجيب، فيهن حوالي الأربعين دركي، وركعوهن قدام بيت بو الياس وشلحوهن أسلحتهن. وعلى طول

أول ما شفت رتل هالآليات تذكرت لما دخل الجيش اللبناني في حرب فلسطين وحرر المالكية. بس هذي المرة كانوا جاين يحرروا عترو من موسم التبغ.

وشرحنا له أنّ في موعد تسليم المحصول يأتي موظف من قبل الشركة ويصنّف وحده دون حسيب أو رقيب سعر الكيلو بعد أن يحسم كيلو على الخيش و٢ كيلو عديين النفع. وهكذا يسلب تعب المزارع الذي عناه على مدى أربعة عشر شهراً إلى حين تسليم محصول التبغ، على الرغم من قبول واستسلام المزارعين لواقعهم المرير. وبالفعل أصدر المرحوم رشيد كرامي قراراً يقضي بتحديد الرخصة بخمسين دونم، لكن أصحاب الرخص لم يتوقفوا عن الاحتياال فتواطأوا مع موظفي الشركة وقاموا بتوزيع الرخص على زوجاتهم وأولادهم.

عيترون البلدة التي لا تنام

بعد الهزيمة المدوية للقومية العربية سنة ١٩٦٧، وبدء حرب الاستنزاف، والإعلان عن بدء العمل الفدائي ومركسة القوميين العرب، اشتعلت الحيوية من جديد في قرى جبل عامل، خصوصاً قرى الشريط المحاذي لقرى الجليل، القرى التي سمّتها السلطة «القرى الأمامية» لكنها بالأحرى كانت القرى الأقل اهتماماً من السلطة. كانت مساحة الزراعة في عيترون قد تضاعفت عن السنة الماضية، خصوصاً الزوائد بدون رخص، وأخذت الأطراف السياسية تتنازع على كسب الأنصار. وفي صباح أحد الأيام استفاقت الناس على خبر مفاده أن جدران البلدة مخططة بشعارات حرب التحرير الشعبية الملونة بالأحمر والأخضر كشعار «بدنا تسليح الجنوب من الناقورة عرقوب»، وشعار «ثالثتنا المقدس، وحدة وحرية واشتراكية».

بدأت الناس تتناقل الأخبار أنهم شاهدوا أناساً يذهبون إلى فلسطين وبدأت السلطات تطوّق البلدة وتقوم

في هذه الأثناء، كان محمد داوود قد أصيب في رأسه جراء تطاير رصاصة فارغة فوضع يديه على رأسه ليتفحص مكان الضربة، ودهن وجهه بالدم وبدأ بالصراخ: «رصاصه والله رصاصه، بدهن يموتوني»، وكل من شاهد الدم على رأسه قال: «مات محمد داوود». عندئذ طلب أمر القوة الانسحاب من أرض المعركة إلى مركز الجيش في الكيلو ٩ بين عيترون وبليدا. في طريقهم فوجئوا بأهل بليدا الذين كانوا قد قطعوا الطريق واحتشدوا بجانب نقطة الجيش، فقرّر أن يبادر بالتهدئة، وطلب أن تشكل مجموعة من الأهالي للتفاوض. ذهبنا، وكنا ستة أشخاص، وعند وصولنا إلى داخل مركز الجيش، كان هناك شعور غريب يسيطر عليّ وكأنني أذهب إلى الهاوية، لأن هذا المركز كان «محصن بالأسلاك وملغم». تقدم مني المقدم كلاس وقال: «أهلين، شو عامل حالك غيفارا؟». مددت يدي لكي أصفّحه، فصفعني على وجهي وحاول ضربني ثانية، فثبت يده وقلت له: «اخجل من ربتك»، فوقف وقال: «معك حق، والله ما ضربت شخص وبقي واقف قدامي». واعتذر وقال «اقعدوا بدنا نشرب شاي ونحكي عرواق ونحل المشكلة». قلنا له: «وقّف إلتاف التبغ ويتنتهي المشكلة»، قال «ابعتوا واحد خليه يهدّي الناس وخليهن يفرجوا عن الدركيين». عندئذ طلبت من الأستاذ أحمد منصور أن يذهب إلى الضيعة لحل الأمور.

تقصّدت وقتها أن أدعه يذهب لأنه أستاذ مدرسة ويمكن أن يخسر وظيفته بسبب هذا الإشكال. بقينا خمسة أشخاص: حسين خليل حيدر، أستاذ مدرسة ومسؤول حزب البعث في منطقة بنت جبيل، وأحمد عيسى، ومحمود أيوب حيدر، و خليل الشيخ حسين، وتم الاتفاق بحضور نائب المنطقة إبراهيم شعيتو. وعندما علم أمر المنطقة بالإفراج عن الدرك وأنهم أمّنوا لهم طريق العودة، قال إنّ عليه أن يسلمنا إلى السلطة لأن هناك أدلة واضحة على عمليات التخريب التي حصلت، فقد اختطف رجال أمن وتم تدمير آليات للدرك.

... وأحذية النساء

أعطى أمراً باعتقالنا ووضعنا بشاحنة الجيش وأخذونا إلى سرايا بنت جبيل خلصة وبسرعة كي لا يرانا أحد أو يحاول أن يساعدنا. بعد ذلك تبيّن نوايا السلطة السيئة، فبعدما حصلوا على ما يريدون، بدأ العدّ العكسي للانتقام واستردّوا أنفاسهم، وأصبح همّهم الأول والوحيد محاولة

الطريق العام من الجزيرة للوادي، كانت المعركة بين كُرّ وفرّ من كل المشاركين، وكان في حوالي ١٠ أو ١٢ ألف شخص من يلي شاركوا بالمعركة من الضيعة، وكانوا كل الشباب والصبايا يلي جاين من القطيفة عطريقهن (عالمير، مش مثل اليوم كل بيت فيه سيارتين) لما وقعت المعركة فشاركوا الكل. في ذلك الوقت كان معظم أهل الضيعة موجودين فيها وبلشت هالنسوان تشارك كمان. بينقال إنو ما في إلا شخص واحد بس ما شارك بالمعركة. وكانت أدوات المعركة يلي استعملوها أهل الضيعة عبارة عن عصي وحجارة وأحذية النساء. بعد هالهجوم الكبير، استسلم أمر القوة، وطلع معو بالجيب خليل الشيخ حسين حتى يوقّفوا المعركة، لكن الناس ما استجابت لحتى استسلمت كل القوة. وطلب التفاوض وطلب قوة مساندة من الجيش. وبالفعل إجت قوة مدرعات من أمر المنطقة النقيب كلاس برفقة نائب المنطقة إبراهيم شعيتو (المحسوب على حزب البعث، بس هوي حقيقة كان تابع للشعبة الثانية). صار موافقة على تسليم الدرك مقابل تعهد النقيب كلاس والنائب شعيتو بأنو ما تتم عملية تلف الدخان وصار في اتفاق ومفاوضات بين الجيش والمزارعين. وكان هالاتفاق بيحمل خديعة وغدر وانتقام.

محمد داوود، بطل المعركة...

في كل قرية هناك من يشبه محمد داوود، أشخاص بسطاء تكون الحياة قد أخذت منهم أشياء وهبتهم بدلاً عنها سمات أخرى تحبب الناس فيهم. كان الجميع يتحدث عنه وعن أعماله وأفعاله، لأنه لم يكن يخفي عنه شيء، فهو لا يعمل فكان متفرغاً لنقل أخبار الضيعة من وإلى جميع الناس.

تقدم مني المقدم وقال: «أهلين، شو عامل حالك غيفارا». مددت يدي لكي أصفّحه. فصفعني على وجهي وحاول ضربني ثانية. فثبت يده وقلت له: «اخجل من ربتك».

ما إن وصلت قوات الجيش إلى محلة بئر ناصر حتى ظهرت ثلاث ملالات وثلاث شاحنات وثلاث سيارات عسكرية يتقدمها نائب المنطقة إبراهيم شعيتو، ويرافقهم النقيب كلاس، أمر القوة، حتى فوجئوا بمشهد قوات الدرك الراكعين على الأرض، فجّ جنون أمر القوة وأعطى أمراً بإطلاق الرصاص في الهواء لترويع الحشود وتفرقتها.

والاضطهاد. وكان من سوء الحظ ألا يجد السجين أحداً يحميه داخل السجن، فهناك هو بحاجة إلى حماية أكثر. داخل السجن يتمثل نظام العبودية بكل ما للكلمة من معنى. لذلك، ولأنني أعرف كيف يعامل الضعيف داخل السجن، أخبرت الجميع بأن لا يسمحوا لأحد بأن يهينهم أو يتناول عليهم. وعندما علمت قوات الدرك الموجة بإدارة السجن، تجنبوا الاحتكاك معنا خصوصاً أننا كنا ٣٥ شخصاً وكأننا يد واحدة، وهذا ما منعهم من تكليفنا بأعمال كانت من حصة السجناء الجدد كتنظيف المراحيض أو تجميع النفايات ورميها.

ولما لاحظ الجميع الوفود التي كانت تزورنا للاطمئنان عنا ولتقديم الهدايا، امتنعوا عن التعرض لأي منا لأنهم عرفوا ماهية الإشكال الذي حصل في يوم انتفاضة التبغ وما حصل مع زملائهم. أمضينا سبعة أيام و«ليالي» يسودها المرح والفرح إلى حين تعيين وقت للمحاكمة. عندما حان الوقت، أخذونا إلى المحكمة العسكرية حيث فوجئنا بالعشرات لا بل بالمئات ممن كانوا بانتظارنا. وعندما دخلنا، لاحظنا أن هيئة الدفاع أكبر من هيئة المحكمة، كان هناك ١٧ محامياً، أكبرهم سناً كان باسم الجسر، وأصغرهم كان نعمة جمعة. وبعد تلاوة محضر التهمة الذي جاء فيه: منع السلطات من تنفيذ مهامها وحرق وتدمير آليات الدرك وعشرات السيارات لموظفي الريجي وبعض التراكاتورات، استجوبوا كلاً منا على حدة، وقام المحامون بالدفاع عنا، وكان لتدخل الزعماء في هذه القضية الأثر الأكبر، وذلك بمساعي اللجنة التي تشكلت في عيترون وكانت تتألف من محمود الأمين وحسن بعلبكي وأحمد منصور ومحمد حسن مراد وخليل قوصان وحبيب مراد وعشرات غيرهم، ومن بليدا كان هناك أحمد الحاج حسن وكثيرون غيره.

أصدرت المحكمة أحكاماً تراوحت بين السجن لمدة سبعة أيام والشهرين مع وقف التنفيذ. فتم الإفراج عنا وعدنا إلى بلدتنا، وكان أهل عيترون قد أقاموا ما يشبه العرس، فكانوا فرحين يرقصون ويدبكون في الساحة. كان لهذه القضية تأثير وتداعيات إيجابية، فقد سَلِمَ موسم التبغ من التلف وانخفضت قيمة رخصة التبغ ولم تعد لها أي قيمة استغلالية، ومنذ ذلك الحين، تسلمت أحزاب «الحركة الوطنية» مهمة الدفاع عن مصالح المزارعين إلى أن دخل العمل الفدائي إلى الساحة الجنوبية فتغيرت كل المعادلات.

رد اعتبارهم بعد الإهانات التي حصلت بحقهم. اجتمع قائد قوة الدرك وقائد قوة الجيش وإبراهيم شعيتو، واتفقوا على أن توجه التهم إلى خمسة أشخاص أي نحن. في هذه الأثناء، أحضروا ثلاثة شبان هم: أمين السيد محمد، وحسن خليل مواسي، وفايز الدروبي، وقاموا بضربهم وتعذيبهم ليقولوا بأنني حرصتهم على الدولة. ولم يتجاوبوا معهم رغم قساوة الضرب. بعدها، أحضروا محمود أيوب حيدر، وقرروا أن يتناوبوا واحداً تلو الآخر على ضربه حتى يعترف بأنني حرصته أيضاً، فلم يتجاوب وكان يشتمهم وينعتهم بالجبناء. بعد ذلك جاء قائد الدرك وقال: «شرف، دورك يا بطل». قلت له: «بك تسترد حقك، كنت بأرض المعركة تعمل زلمة». قال: «استوردنا شغلة من دولة شقيقة وبعد ما جربناها وبدنا نجربها عليك». وبالفعل أحضروا طاولتين و«عصي» ووضعوني كالفروج عليهما. وبدأوا يضربوني ويلفوا هذه الآلة حتى أغيب عن الوعي، وبقيت صامداً حابساً أنفاسي. استعملوها ثلاث مرات ليُخرجوا مني حرفاً لكنهم لم يفلحوا، مما أثار جنونهم. وبعد ساعة من التعذيب، فكوا وثاقي ورموني على الأرض، وكنت حينها بالكاد أتنفس. بعدها أحضروا خليل الشيخ حسين، وما إن بدأوا بضربه حتى بدأ يصرخ ويولول. بعدها اقتادوا حسين محمد عيد وربطوه بحجر وتوالوا على ضربه أيضاً. أما البعض الآخر فأخذوا يتفننون في تعذيبهم. واللافت كان عدم التعاطي مع كل من كانوا ينتمون لحزب البعث. بعد انقضاء فترة التعذيب، حضرت مندوبة من مجلة «الصيد» لتسأل قائد القوة عن المعركة فقال لها: «الله شفق علينا وكانت أحذية النسوان من البلاستيك وإلا لكانت الدكاترة رح تحتار كيف بدها تداوي جروحنا». بعد ما انتقموا شر انتقام، نظموا محضراً وفي اليوم التالي اقتادونا إلى سجن الرمل.

داخل السجن ليس كخارج

«سجن الرمل» وما أدراكم في ذلك الوقت ما هو سجن الرمل، أشهر من «سجن رومية» في هذه الأيام. هو وجه لبنان البشع في تلك الفترة. يجتمع فيه أناس من النظام البرجوازي الهجين بأشجع ما فيه من استغلال وإذلال، وخصوصاً تجاه الفقراء من الناس. منذ لحظة دخول السجن، يكون قد بات معروفاً بأصله وفصله للجميع، ويُعطى رقماً حسب وضعه الاجتماعي. هذا أول تدبير تقوم باتخاذ الإدارة المشرفة على ضبط المساجين، هذه الإدارة المتمرس في أساليب الاستلاب والاستغلال

بحثاً عن البرابرة

إلياس خوري

كاتب وروائي من
لبنان. آخر أعماله
«سينالكول»
(٢٠١١).

إلى الزمن الكولونيالي الحديث، هم مجرد فرضية لتبرير الحروب والفتح والاستعباد والاستعمار، والبربرية كمفهوم هي اختراع من صنع المخيلة، وهي تشبه اختراع الشرق من قبل المستشرقين، بحسب إدوارد سعيد. وبالعكس من الشرق الذي امتلك ماهية متخيلة يمكن قراءة عناصرها وتفكيكها، فإن البرابرة أو البربرية لا تمتلك مثل هذه الماهية، لأنها افتراض متحوّل جرى استخدامه بطرق متعددة وفي أزمنة مختلفة، وحمل دلالات شتى قد تكون متناقضة في بعض الأحيان.

وعلى الرغم من أن قصيدة كفاقي كان بإمكانها أن تجسم الجدل حول هذا المفهوم الغامض، عبر السخرية منه، إلا أن الكلمة لا تزال تغوي بالاستخدام، وتشكّل إحدى أقوى الكلمات، بسبب احتمالات معانيها وزئبقيتها. ينهي كفاقي قصيدته معتبراً البرابرة مجرد حل متخيّل: «والكل يعود إلى داره غارقاً في الفكر؟/ لأنّ الليل قد هبط ولم يأت البرابرة./ ولأنّ أناساً قدموا من الحدود/ وقالوا أن ليس ثمة برابرة./ ولأنّ... ماذا نفعل بدون برابرة؟/ لقد كان هؤلاء نوعاً من حل».

هذا الحل سوف يستعاد في سياق آخر، حين سيتحوّل الفلسطيني إلى حل أدبي في الأدب الإسرائيلي، عبر استعادة صورة الآخر بصفته جزءاً من المشهد الطبيعي، أخرس أو ممنوعاً من الكلام، أو بدوياً متنقلاً، أو متوحشاً نبيلًا. افتراض الحل الأدبي الذي نحتة الناقد الإسرائيلي موردخاي شاليف واستعاده أنطون شماس في رائعته «أرايسك»، انتقل إلى الأدب الإسرائيلي من حصاد ما يمكن أن تُطلق عليه اسم الأدب الذي يحمل سمات استشراقية من «كوتشوك هاتم» بطلّة فلوير في رسائله المصرية وصولاً إلى الجزائري في رواية «الغريب» لألبير كامو.

أريد أن أعترف منذ البداية بعجزني عن كتابة نصّ متماسك عن موضوع اعتقدت أنني قادر على معالجته عبر وضعه في السياق الثقافي العربي. وما ستسمعونه في هذه المحاضرة هو سجل محاولاتي المتعددة للاقتراب من موضوعي، وما زاد الأمر تعقيداً هو أنني أتحدث بالعربية، التي كان من الممكن اعتبارها إحدى لغات البرابرة، في زمن مضى وفي زمن قد يعود أو هو في طريقه إلى العودة في مرحلة صعود الرأسمالية المتوحشة الذي حدّثنا أنجلز منها حين أعلن أنّ على البشرية أن تختار بين البربرية والاشتراكية.

وإحدى علامات سخرية التاريخ أن البديل للبربرية الذي اقترحه ماركس وأنجلز، أي النظام الاشتراكي، وُسم بالبربرية في زمن الاستبداد الستاليني ثم تهاوى مع نهاية الحرب الباردة، التي انتهت إلى سقوطه بشكلٍ مدوّ في روسيا وأوروبا.

المسألة أكثر إشكالية مما ظننّت حين بدأت بالاقتراب من موضوعي، فافتراضي البسيط أنني أستطيع أن أقف بينكم وأقول نحن البرابرة، وأبني مقترناً كئيباً ونصاً ساخراً يكون استكمالاً لقصيدة اليوناني الإسكندري قسطنطين كفاقي: «في انتظار البرابرة» تهافت أمام المشاهد المروعة التي يعيشها المشرق العربي في ثوراته ضد الاستبداد التي اتخذت شكل حروب أهلية ودينية واجتياحات خارجية جاعلة الخوف من مجهول التاريخ علامة الحياة اليومية في بيروت، التي كان انهيارها إشارة التفكك الأولى في بلاد العرب.

وبدلاً من أن أبدأ حيث انتهى كفاقي، معلناً أن لا وجود للبرابرة، قررت أن أبحث عنهم، ذلك أن عدم وجودهم، أو اعتبارهم مجرد ذريعة شكّل حافزاً إضافياً للبحث بالنسبة لي. فالبرابرة كما يعلمنا تاريخ استخدام الكلمة من اليونان مروراً بالإمبراطورية الرومانية ثم فتح أميركا وصولاً

إنجازاتهم الثقافية. وكانت ترجمة عبدالله ابن المفتح لكتاب «كليلة ودمنة» عن الفارسية «الأعجمية» بداية النثر الفني العربي وبداية السرد، وبذا لم تستطع كلمة أعاجم أن تكون معادلاً لكلمة برابرة، بل إن أحد أهداف الكتاب العرب حين اشتد الصراع بين العرب والأعاجم في العصر العباسي كان الدفاع عن أنفسهم بصفتهم أصحاب حضارة كالفرس. ما أقوله لا ينزه العرب القدماء عن العنصرية، أو يخرجهم من دائرة الاعتقاد بأن لغتهم هي أجمل اللغات وأفضلها. فالعربية، في اعتقادهم، إضافة إلى كونها لغة الشعر، ومرجع اللغة الثابت، هي لغة الوحي ولغة آدم قبل خروجه من الجنة! اجتياح بغداد الذي قامت به جيوش هولاكو في ١٠ شباط/ فبراير ١٢٥٨، تحول إلى مرجع للتمييز بين الحضارة والهمجية، يكفي الوصف الذي قدمه ابن كثير في كتابه: «البداءة والنهاية» للمأسي التي حلت ببغداد، كي يبعث الرهبة في النفوس، ويحول خراب مدينة «السلام» كما كانت تدعى عاصمة العباسيين، إلى علامة خراب العرب وانهارهم.

«ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وكمنا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فأبنا لله وإنا إليه راجعون».

ولا تكتمل صورة خراب المدينة وخراب حضارتها إلا عبر وصف مياه نهر دجلة التي صارت سوداء بفعل تحلل الكتب التي رماها المغول في النهر بعد تدميرهم مكاتب المدينة.

كما أن المؤرخين العرب لم يقصروا في وصف همجية جيوش تيمورلنك التي اجتاحت دمشق في القرن الرابع عشر، وتلال الرؤوس المقطوعة التي حولها هذا الفاتح التتري إلى شعار لغزوته التي استباح كل شيء. أما جيوش الفرنجة الذين تطلق عليهم الثقافة الغربية اسم الصليبيين، فإننا نعثر على سجل الحروب الهمجية التي فرضوها على المشرق العربي في أعمال مؤرخين عرب قام أمين معلوف بتوثيقها في كتابه «الصليبيون كما رآهم العرب».

لكن رغم هذه الأوصاف والنوت، التي لم يستطع دخول المغول في الإسلام، واللقاء الشهير بين الفيلسوف العربي ابن خلدون وتيمورلنك، قائد التتار، على تخوم

لكن سؤالي هو حول العلاقة بين الحلّ الأدبي والحلّ الفعلي الذي جرى ويجري تنفيذه، فيمقدار ما يبدو الحلّ الأدبي ملتبساً ويحتمل التأويل، فإن الحلّ الفعلي غارق في الدماء والألم. كأنّ الحلّ الأدبي مجرد تأويلات مخادعة تصنعها كلمات تستطيع أن تنقل بأكثر العبارات تنميلاً مناخات العنف العارية بعد إلباسها معاني تجرّدها من دلالات الألم الإنساني.

هل يقودني هذا المقترّب إلى اعتبار حجب الألم مقياساً للبربرية، ولكن كيف نقيس الألم وكيف نقيس حجباً؟ كما أنني من ناحية أخرى لم أعثر على كلمة البربرية في التراث الثقافي العربي؟ فلماذا استخدم هذا المصطلح؟ يعيدني هذا السؤال إلى مسار بحثي، الذي سأكتفي الليلة بتقديم عرض لمراحله الثلاث، عسى أن يكون الطريق أكثر فائدة وإمتاعاً من الوصول إلى أجوبة يقينية وحاسمة. وعليّ أن أشير قبل أن أبدأ إلى أن الطريق المتعرج الذي اخترته يستلهم الطريق الذي اختطه أبو حيان التوحيدي حين وصف الكتابة في عنوان أحد أجمل كتبه بأنها إمتاع وموانسة، عسى أن نجد في بحثنا إمتاعاً عقلياً وأنسا يعيننا على مواجهة الألم بكلمات ملائمة.

المحاولة الأولى: هدنة مع المغول

لا نعثر في قاموس المؤرخين العرب القدماء على كلمة برابرة. قسطنطين كافافي أخذ عنوان قصيدته من القاموس الإغريقي القديم، الذي تبناه القاموس الروماني قبل أن يتحول إلى كلمة أثيرة في المدونة الفكرية الكولونيالية. وهذا ما فعله الروائي الجنوب أفريقي كويتزي الذي استعار عنوان قصيدة كافافي جاعلاً منه عنوان روايته التي تدين نظام الأبارتهايد الكولونيالي الذي أقامه البيض في بلاده.

أما المؤرخون العرب فلم يستخدموا كلمة برابرة، بل استخدموا عوضاً عنها ثلاث كلمات: الإفترنج والمغول والتتار، وهي كلمات عينية تصف جيوشاً محددة، وقادة عسكريين، وليست كلمات مفهومية تحيل إلى تمييز بين الحضارة التي أطلق عليها ابن خلدون اسم العمران وبين البربرية. وكما في اليونانية التي ميزت بين الناطقين باللغة اليونانية وبين الناطقين بلغات أخرى عبر ثنائية اليونانيين والبرابرة، فقد ميزت اللغة العربية بين الناطقين بالعربية والأعاجم. فالعجمة أي عدم القدرة على الكلام أو الخرس، هي إحدى صفات الحيوان. لكن المفارقة هي أنّ كلمة أعاجم صارت اسماً للفرس الذين اقتبس عنهم العرب الكثير من

البرابرة كانوا هنا لكنهم صاروا «حفنة من هبوب الغبار»، ولم يعد وجودهم إلا إشارة إلى الخطر الذي يسكن في محيط القدس ويستعد للإطباق على مدينة حنة غونين الغارقة في ظلال العتمة.

درويش يقرب المعادلة، فهذا الشاعر الذي قرّر أن يكتب حكاية المهزومين التي لا تتسع لها الكتب، سمي نفسه شاعراً طروادياً، معلناً أن المعادلة ليست بسيطة، إذ لا يكفي أن نكتشف عدم وجود البرابرة كي نصف حسابنا مع المفهوم الذي كان أحد مبررات استعباد الآخرين، بل علينا أن نستمع إلى من وُسم بالبربرية، إذ ربما كانت البربرية في مكان آخر.

كناية المغول تستلهم التاريخ من دون أن تسقط في تمجيد بطولاته، فلماضي مضى، ودرويش يتحرّر أيضاً من الماضي، فلا يبشّرنا بمعركة عين جالوت، كما يبشّرنا قصيدته «عاشق من فلسطين» (في المجموعة التي تحمل اسم هذه القصيدة والتي صدرت عام ١٩٦٦)، بمعركة حطين حين انتصر صلاح الدين على الفرنجة عام ١١٨٧.

«هدنة مع المغول» تسجل الألم من استحالة السلام، وتقرأ الغزو الإسرائيلي كمحاولة لنفي الوجود الفلسطيني. من هو البربري هنا؟

إذا قبلنا المصطلح مجرّدين من محمولاته التاريخية، كي نقرأه بصفته تجسّداً للقمع والقهر وتحطيم القيم الإنسانية عبر تحويل الحقل التاريخي إلى غابة يلتهم فيها القوي الضعيف، فإن علينا ألا نبحث عن البرابرة خارج الحدود، بل أن نبحث عنهم بيننا، ونكتشف وحشية الاحتلال والاستبداد وأوهام الماضي التي تستطيع أن تقود من يريد إلى البربرية.

المحاولة الثانية: الدولة البربرية

قلت اننا لا نعثر على كلمة البربرية أو البرابرة في التراث الثقافي الكلاسيكي عند العرب، فابن خلدون، حين أعطى كتابه عنوان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تكلم عن شعوب معيّنة ولم يتكلم عن صفات هذه الشعوب.

بقي هذا الافتراض صحيحاً إلى أن نجح ميشال سورا في كتابه الدولة البربرية في سورية، *Syrie, l'État de Barbarie* في إدخال كلمة بربرية إلى القاموس العربي، باعتبارها تحمل مضمون الاستبداد والعنف وتحطيم البنية الاجتماعية وتحويل الدولة إلى عدو للمجتمع. يضمّ هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الرائدة في علمي السياسة

دمشق قبل احتلالها، في محوها من الذاكرة التاريخية، فإن كلمة مغول تحولت من اسم إلى صفة.

الشاعر الفلسطيني محمود درويش استعاد الإطار المغولي ليقدّم في قصيدته «هدنة مع المغول» أمام غابة السنديان، (من مجموعة أرى ما أريد ١٩٩٠)، استعارة للغزو الصهيوني لفلسطين، في قصيدة تراجيدية تصف ملحمة استحالة السلام. لا تتصادى قصيدة درويش مع قصيدة كفا في لكنها تستلهمها لتقلب المعادلة وتروي الحكاية من وجهة نظر الضحية.

تبدأ القصيدة بالسؤال عن احتمالات السلام: «من سيملاً فخارنا بعدنا؟ من يُغيّر أعداءنا عندما يعرفون/أننا صاعدون إلى التل كي نمدح الله/ في كائنات من السنديان». وبعد أن تقدّم القصيدة درس الحروب التي «تعلّمنا أن نرى صورة الله في كل شيء»، وأن/ نتحمّل عبء الأساطير كي نُخرج الوحش من قصة السنديان» تصل إلى استنتاجها الأخير الذي يحولها إلى حكاية ألم لا نهاية له. تساءل كفا في عن جدوى الحياة من دون برابرة، أما محمود درويش، فبعد أن يقدّم وصفاً للمنتصر والمهزوم «قمر واحد للجميع على الحنّدين، لهم ولنا»، فإنه يكتشف أن لا وجود لغاية السنديان: «لم نجد أحداً يقبل السلم، لا نحن/نحن ولا غيرنا/غيرنا/البنادق مكسورة، والحمام يطير بعيداً بعيداً لم نجد أحداً ههنا/ لم نجد أحداً... / لم نجد غابة السنديان». هل نستطيع إخراج قصيدة درويش من سياقها ووضعها في سياق قصيدة كفا في أو رواية كوتزي؟

إن تحليل بنية الدولة انطلاقاً من نظرية العصية الخلدونية، وقراءة المجتمع بصفته عدواً للدولة بقيت مفتاحاً أساسياً لفهم المآلات التراجيدية للثورة السورية.

لا شك في أن هناك ترابطاً غير مباشر بين السياقين، فكوتزي يروي العلاقة بين السيّد والعبد، كي يقوم بتفكيكها وتعرية نظام الأبارتهايد، أما كفا في فإنه يقوم بتعرية لغة السادة معلناً أن الحل الذي قدّمه افتراض وجود البرابرة كان حلاً وهمياً. ماذا يفعل درويش هنا، هل يعلن نفسه ناطقاً بلسان البرابرة؟ لكن البرابرة لا ينطقون، إنهم مجرد أشباح خرساء تتسلل إلى منامات حنة غونين وكوايسها كما في رواية الكاتب الإسرائيلي عاموس غوز «ميخائيلي».

والاجتماع كتبت في أوائل الثمانين ات وقدمت المقرب الأول لفهم الاستبداد الذي تحول إلى آلة بربرية تسحق المجتمع، وتحول الدولة إلى أداة طيعة في يد الديكتاتور. استخدم سورا كلمة البربرية ولكن في سياق جديد. فلقد استندت أبحاثه إلى نظرية ابن خلدون في العصبية، أي اللحمة الميكانيكية بين أفراد جماعة ما يجري توظيفها هنا في آلة الاستبداد. العصبية وحدها لا تكفي، لذا كان على سورا استخدام مفهوم آخر مأخوذ من القاموس الخلدوني أيضاً هو الدعوة، وقد تمثلت هذه الدعوة في استخدام وظيفي لايدولوجية البعث القومية، كي تخفف من فظاظة عصبية تستند إلى الأقلية، وترسم ملامح مشروع وهمي هو بناء الدولة/ الأمة.

كانت نصوص سورا نصوصاً تأسيسية، على الرغم من أن بعض افتراضاته عن علاقة الريف بالمدينة كان يعوزها التدقيق. مع صدور نصوص هذا الكتاب يمكننا القول إن كلمة البربرية دخلت إلى متن الثقافة العربية المعاصرة، وتحولت إلى مفهوم في علم الاجتماع السياسي قائم على النظرية الخلدونية. قد يستغرب الكثيرون أنني اعتبر عملاً علمياً قام به مفكر فرنسي جزءاً من المبنى الثقافي العربي الحديث، مفترضاً أن كلمة بربرية، التي لم يكن لها مكان في المدونة الثقافية العربية، وجدت مكانتها على يد عالم اجتماع فرنسي، قضى في بيروت وهو في التاسعة والثلاثين، نتيجة موجات خطف المواطنين الأجانب التي اجتاحت المدينة في أواسط ثمانينيات القرن الماضي. غير أن هذا الاستغراب سوف يتلاشى سريعاً عندما نعلم أن سورا كان أول باحث كشف وقائع مجزرة حماه شباط /فبراير ١٩٨٢، التي جرت وسط صمت عربي ودولي مريب، وذهب ضحيتها الألوف من أبناء المدينة التي انتفضت بقيادة الإخوان المسلمين ضد النظام. وكان أحد أوائل المفكرين الذين حاولوا تقديم فهم للجذور الاجتماعية للتيار الإسلامي في دراسته الرائدة عن حي «باب التبانة» في طرابلس، قبل أن تبدأ موجة حرب الحضارات التي حولت الإسلام إلى العدو الجديد للحضارة!

تشير وقائع الوضع السوري الراهن إلى قدرة نصوص سورا على فهم الاستبداد وتحليله. وعلى الرغم من التحولات التي أعقبت لبرلة الاقتصاد السوري على يد الرئيس الابن، ما قاد إلى أن تتمركز الانتفاضة الشعبية السورية التي اندلعت عام ٢٠١١ في مدن الأطراف وفي الريف، فإن تحليل بنية الدولة انطلاقاً من نظرية العصبية الخلدونية، وقراءة المجتمع بصفته عدوً للدولة، بقيت مفتاحاً

أساسياً من أجل فهم المآلات التراجيدية للثورة السورية. حياة سورا الذي ولد في تونس عام ١٩٤٧ وقضى في بيروت عام ١٩٨٦، تجسيد لمقولة التماهي التي لا علاقة لها بالأفق الضيق الذي تطرحه فكرة الهوية. فالرجل تماهى مع التونسيين في مقاومتهم للعدوان الفرنسي في بنزرت، وتماهى مع الفلسطينيين عبر ترجمته رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس»، وتماهى مع الشعب السوري، ودفع ضريبة باهظة لقاء تعاطفه مع الإسلاميين، فقضى في نازين مجموعة إسلامية تحرّكها المخابرات الإيرانية. اختار سورية ولبنان ووطنه له، وكان أول شهيد لربيع دمشق المكمل بدماء الضحايا.

شهادة سورا ليست خارجية، أي أنها لم تأت من التراث الاستشراقي الفرنسي، بل هي شهادة عالم اجتماع، انطلق من الفلسفة الخلدونية كي يقدم أول تحليل لهمجية النظام الاستبدادي، ويكسر الصمت المريب الذي أحاط بمجازره من حماه إلى سجن تدمر إلى آخره...

هنا يبرز بوضوح عماء الجريمة التي ارتكبت ضد هذا المفكر وتفاهتها. خُطف سورا في بيروت في ٢٢ أيار/ مايو ١٩٨٥ على طريق المطار، وسط حمى خطف الأجانب التي ضربت لبنان في سياق الصعود الإقليمي لإيران، وأعلن مقتله في آذار/ مارس ١٩٨٦. الرجل الذي عُرف بحبه لسورية ولبنان والذي كان أحد أوائل المتعاطفين مع الإسلام السياسي، لقي حتفه ولم يعثر على بقاياها إلا بعد عشرين سنة على مقتله، حيث وجد مدفوناً في منطقة في الضاحية الجنوبية لبيروت تعرف باسم «حرج القتييل».

كان سورا أحد أوائل «المثقفين السوريين» الذين كشفوا عهر الثقافة ووسائل الإعلام التي غطت جرائم حافظ الأسد بستار من الصمت. لذا يستحق مكانة خاصة في الذاكرة السورية، وهي مكانة تأكدت من خلال فيلم عمر اميرالاي الممتاز: «في يوم من أيام العنف العادي مات صديقي ميشال سورا» (١٩٩٦).

ميشال سورا هو من أطلق صفة البربرية على النظام السوري، في وقت كانت فيه الثقافة العربية مصابة بما يشبه الغيبوبة. ومن الواضح أننا ندفع في سورية ثمن تلك الغيبوبة، من خلال تسليح المتسللين إلى الثورة، وعجز القوى الديمقراطية والعلمانية عن تحويل أجندتها التغييرية إلى واقع سياسي ملموس، لكن هذا العجز المحزن، يجب ألا يحجب حقيقة أن أصل الهمجية وفصلها هو نظام الاستبداد.

لقد كانت علامة البربرية الأولى هي تصفية الثقافة وتدجينها، غير أن الثقافة السورية نجحت في تحدي



❖
حصار المغول لبغداد
في العام ١٢٥٨



الباردة من جهة، وعلى القمع الشامل الذي فرضه الاستبداد من جهة ثانية. ولفتة توحش التي أستخدمها هنا مأخوذة من عنوان كتاب أبي بكر الناجي، أحد كبار منظري التيار وهو بعنوان إدارة التوحش. فالدولة في مراحل ولادتها تلجأ إلى إدارة التوحش من أجل إرهاب خصومها وفرض هيبتها، مستندةً إلى فقه الدم، وهو عنوان كتاب أبي عبد الله المهاجر، أحد منظري التيار نفسه.

من بربرية الاستبداد إلى إدارة التوحش، هذا هو الممّر الدموي الذي يعبره اليوم المشرق العربي، وهو يواجه صراعا وحشيّا يهدّد بإخراج العرب من خريطة مصائر بلادهم.

المحاولة الثالثة: بحثاً عن الكلمات

قضى ميشال سورا بالبرقان في سجن لا يشبه السجون، سجانوه كانوا أعضاء في مجموعة أصولية مسلحة، لم يتسنّ لهم المجال لسنّ قوانين سجونهم. وتشهد النصوص التي كتبها الناجون من الخطف، على العشوائية وعدم المهنية التي عاشوا في ظلّها.

لكنّ مصائر ألوف المساجين في سجون الأنظمة الاستبدادية لم تكن أفضل حالا، فلقد حوّل الاستبداد السجون إلى ما يشبه المقابر، من تزامرت في المغرب إلى تدمر في سورية، كما أنّ فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي تحوّلت إلى سجن كبير، وصار السجن هو المدرسة التي صهرت الوعي بالآلم. ولعلّ الشعر الفلسطيني الحديث هو ابن تجربة السجون التي حوّلت الشعر إلى نشيد للحرية. (يشير تقرير صادر عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني بتاريخ ١٤ نيسان ٢٠١٤ إلى أنّ عدد الفلسطينيين والفلسطينيين الذين دخلوا السجون الإسرائيلية منذ احتلال الضفة الغربية وغزة هو ٨٠٥ آلاف).

لقد أنتجت تجربة السجون العربية ما يمكن أن أطلق عليه اسم أدب السجون. فرواية السجن لا تتميز فقط بغناها من حيث قدرتها على تحويل السجن إلى إطار للبحث عن التجربة الإنسانية في شروط عيش لا إنسانية فقط، بل شكّلت أيضاً مكاناً للتجديد الأدبي، ولعبت دوراً أساسياً في إطلاق موجة الكتابة الجديدة ذات الشكل المفتوح على التجريب.

يكفي أن نقرأ رواية القوقعة لمصطفى خليفة كي نصاب بالهلع أمام وحشية هذه التجربة، وكيف كانت في جوهرها محاولة لتجريد الإنسان من شعوره بالكرامة، وتحطيم روحه وعقله، أو أن نقرأ رواية إعجام لسنان أنطون، حيث تتحوّل النقاط المحجوبة ولعبة الإعجام إلى معادل لغوي للاستبداد.

القمع ولو بشكل جزئي، وقدمت شهادتها من خلال أعمال المسرحي سعد الله وتوس والقاص زكريا تامر والشعراء نزار قباني ومحمد الماغوط وممدوح عدوان وغيرهم. وستنفجر هذه الثقافة حرة في «ربيع دمشق» القصير ٢٠٠١، وهو الربيع الذي شكّلت نتاجاته مقدّمة الثورة السورية. وستتوالى شهادات سجن تدمر الرهيب في كتابات فرج بيرقدار ومصطفى خليفة وياسين الحاج صالح، وستتحوّل الرواية السورية مع خالد خليفة وسمير يزبك وروزا ياسين حسن وغيرهم علامة على قدرة المجتمع على المقاومة.

هذه المقاومة سوف تصطدم بالواقع المرّ الذي تجسّد عبر عاملين:

◆ تصرّف الدولة بوصفها عصبية أو حزياً، ولجوؤها إلى أكثر الأساليب وحشية في قمع انتفاضة شعبية سلمية اعتقدت أنها تستطيع السير على الطريق الذي صنّعه تونس في ثورتها السلمية، ومصر في تجربة ميدان التحرير. ◆ وعجز التشكيلات السياسية التي خرجت محطمة من سجون القمع عن قيادة التحرك الشعبي، وتحويله إلى ثورة تطيح النظام.

لن أدخل في تحليل المسارات السورية المعقّدة التي أوصلها عنف النظام والتدخل الخارجي إلى واقعها المأسوي الراهن، بحيث صار للاستبداد شبيهه/ نقيضه في تنظيمات الجهادية السلفية. إنّنا نشهد اليوم كيف يتبنّى الأصوليون جميع المقولات الاستشراقية حول الإسلام وكيف تتحوّل سورية إلى ساحة اقتتال إقليمي بهدف وأد صيحة الحرية التي أطلقها أطفال درعا في آذار ٢٠١١.

رواية السجن لا تتميز فقط بغناها من حيث قدرتها على تحويل السجن إلى إطار للبحث عن التجربة الإنسانية في شروط عيش لا إنسانية فقط. بل شكّلت أيضاً مكاناً للتجديد الأدبي.

الشبيه/ النقيض يتخذ اليوم اسم التوحش. الاستبداد البربري وُلد من تفصيل الفكر القومي الفاشي على العصبية، وقدرته على تحويل الجيش إلى أداة لقمع المجتمع، أمّا التوحش الذي تمثّله السلفية الجهادية عبر «داعش» و«القاعدة» فقد ولد من تفصيل التيارات السلفية المستندة إلى فكر ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب على الحرب

اللافت في التجارب الروائية الثلاث التي سأحدث عنها أنها على الرغم من اختلافها من حيث الأسلوب والمضمون، تتفق على مسألة واحدة، هي علاقة الحرية بالكتابة، ففي حين أن بطلي تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم وشرق المتوسط لعبد الرحمن منيف مثقفان، فإن بطل روايتي يالو، ليس مثقفاً ولا يحلم بالكتابة، لكن الكتابة التي كانت إحدى وسائل التعذيب المستخدمة ضده تصير باباً لتفككه النفسي وطريقاً لاستعادة الذات في الآن نفسه.

تلك الرائحة (١٩٦٦) لصنع الله إبراهيم افتتحت أدب السجون ببلاغة سردية جديدة. بطل الرواية هو راويها، إنه شاب خرج حديثاً من السجن، يعيش تحت رقابة البوليس، ويحاول أن يستعيد حياته عبر الحب والكتابة، لكنه يفشل في كليهما. الرواية التي منعتها الرقابة المصرية بسبب لغتها المباشرة والفاضحة، ليست سوى محاولة لكتابة رواية. نعر في هذا النص الصغير على عشر محاولات للكتابة. فالكاتب الذي يشعر بأنه لم يخرج من السجن لأن القاهرة تحولت إلى سجن كبير، يجد عزاءه الوحيد في الكتابة، لكن الكلمات تخونه. لا يتوقف عن المحاولة، رغم الفشل الذي يحاصره، وكما يفشل في الكتابة يفشل في العلاقات الجنسية، ولا ينجح في استعادة علاقاته العائلية مع شقيقته وشقيقه. إنه إنسان بائس ووحيد. يجلس أمام الورقة البيضاء، فيرى فيها مرآة للمدينة التي كسر الاستبداد روحها، يتذكر السجن في سياق وصفه لحاضره خارج السجن، بحيث تمحي المسافة بين داخل السجن وخارجه. ولن تنحل عقدة الكتابة عنده إلا في المشهد الأخير من الرواية، حين يذهب لزيارة والدته فيكتشف أنها ماتت.

رواية إبراهيم تحيل إلى مراجع ثقافية من جيمس جويس إلى غي دو موباسان إلى رواية الطاعون لكامو، لكننا نكتشف أن الرواية تبدأ لحظة نهايتها، نهايتها تشبه بداية رواية الغريب لكامو. كأن الروائي المصري قلب المعادلة، فبدل أن تكون الأمّ بداية رحلة الغريب إلى جريمته كما في رواية كامو، تصير مع إبراهيم بداية المصالحة مع الكتابة. تلك الرائحة هي رواية عالم بلا أمّهات، وهو عالم قاس لا تروّضه إلا الكلمات.

يتكرر البحث عن الكتابة في رواية عبد الرحمن منيف شرق المتوسط (١٩٩١)، ولكننا أمام مقترّب أسلوبية مختلف عن الرواية السابقة. تلك الرائحة تختزن بأسلوبها السريع وجملها القصيرة، وموقف المراقب الذي يتخذه الراوي ذاكراً للألم، أما رواية منيف فتسترسل في وصف الألم، وتقدّم نماذج عن أشكال التعذيب، وتروي مآسي

السجناء السياسيين في تفاصيلها اليومية، وتأخذنا في رحلة شاقّة إلى عالم السرايب الذي يحول البشر إلى كائنات هشّة ومسحوقة. رجب بطل رواية منيف، يحمل على كتفيه وزر خيانة رفاقه عندما وافق على توقيع ورقة التبرؤ منهم. لكن هذه الورقة سوف تكون صليبه في رحلة العلاج إلى أوروبا، وسيحتل السجن ذاكرته، كأنه يحمل السجن في داخله.

حلم رجب كان أن يكتب ويشهد، يصف حلمه برواية يكتبها أكثر من شخص واحد و«لا يكون لها زمن». وكان يعتقد أن الكلمة هي سلاحه الأخير، «لعلها تكون طلقة الرحمة لي ولهم، ونموت معاً». وفي النهاية يعود بطل الرواية من رحلته تحت ضغط التنكيل بأقربائه، يدخل إلى السجن ليخرج منه أعمى وموت، وكان على أخته أنيسة أن تهرب أوراقه إلى الخارج كي تُنشر.

الحلم بالكتابة أو محاولة الكتابة تصبح في هاتين الروايتين باب استعادة الإنسان لروحه. فالكلمة، هي الأمل وكتابة أحرف كلمة حرية هي الطريق إلى الحرية.

رواية يالو (٢٠٠٤) تقلب المعادلة التي كتبها الروايتان السابقتان، لم تعد الكتابة باب الحرية بل صارت إحدى وسائل التعذيب. كان على دانيال أبيض المعروف باسم يالو السجن في لبنان أن يكتب قصة حياته على أوراق بيضاء أعطاه إياها السجان. فصارت الكتابة بالنسبة إلى ابن الحرب هذا إحدى وسائل التعذيب. يكتب ويعيد الكتابة، لكن الجلاء لا يرضى. وعندما نضج قلمه بعد سبع محاولات للكتابة، أمسك المحقق بالأوراق ورمها وداس عليها. في تلك اللحظة تتحول أداة التعذيب إلى كابوس، ويكتشف الفتى اللبناني أن الكلمات التي قسمته إلى نصفين، أحدهما معلق على خشبة التعذيب، والثاني يجلس ويتأمل ويكتب، هي ما تبقى له كي يرسم صورة أمّه على الورقة، بعدما أمّحت صورتها في المرأة.

تقدّم هذه الروايات لوحة متعددة الظلال عن مقاومة الهمجية بالكلمة، لكن البحث عن الكتابة في روايتي إبراهيم ومنيف يتحول في يالو إلى نقيضه. فالكلمات صارت هي أيضاً أداة في يد الجلاء، بحيث صار الحلم مجرد كلمات تدوسها الأقدام.

رجب كان يحلم بالكتابة، وبطل تلك الرائحة كان يحاولها ويفشل، أما نجاح يالو في كتابة روايته فتّم في العلاقة بين اليأس وما بعد اليأس، أي على أبواب الهمجية التي بدأ فصلها الأكثر وحشية عام ٢٠٠٣، قبل عام واحد على نشر الرواية، مع الغزو البربري الأميركي للعراق.

بالبقاء قبيلة على موكبه لأنه كان بذلك سيقتل معه طفلين كانا برفقته، لكنه عاود المحاولة ونجح في قتل الدوق وحده. تنتهي المسرحية بإعدام يانيك لأنه رفض أن يشتري العفو من خلال اعترافه بأنه قاتل وليس ثورياً.

كانت حياة يانيك، مثلما تخيلها الكاتب الفرنسي، معلقة على كلمة طلب منه أن يقولها كي يتفادى الموت إعداماً، لكن الرجل تعامل مع الكلمة بصفتها مرآة للمعنى، وقرر أن يموت ثورياً.

يُطلق التراث الماركسي على الثوريين الروس من أمثال يانيك لقب الإرهابيين ويدين أفعالهم، لكن الثورة الروسية لم تكن ممكنة لولا هذا الجيل من الإرهابيين/الثوريين، الذين زرعوا الوعي بضرورة إسقاط النظام القيصري الاستبدادي.

لست متأكداً أن معتز حجازي ينتمي إلى هذه الفئة من الثوريين التي كتب عنها كامو مسرحيته، لكنني شبه متأكد من واقع أن معتز لو كان بطل رواية أو مسرحية لنال حق قول كلمته الأخيرة قبل إعدامه.

معتز فلسطيني، والفلسطيني في دولة إسرائيل عليه أن ينتزع حقه في الكلام في ساحة الموت، لأن لا محكمة ستعطي الحق في العدالة، كي يأتي روائي أو كاتب وينصفه بصفته عادلاً وجزءاً من كوكبة العادلين.

كما ترون أيها السيدات والسادة، فإن نصي مفكك تفكك لغة العدالة التي أريد أن أثبتّها. لغة العدالة والحريّة هي وسيلتنا الأساسية كي نمتلك القدرة على مواجهة البربريات الثلاث التي تحاصرنا في بلاد العرب: بربرية الاستبداد وبربرية الاحتلال الإسرائيلي وبربرية تنظيمات الجهادية السلفية. وسؤالي هو كيف نلتقط اللغة الملائمة من ركام الكلمات، كي نصف حالتنا، فتكون لغتنا الجديدة مدخلنا إلى الحرية.

في ألف ليلة وليلة تصف شهرزاد القصة التي تستحق أن تروى بأنها «لو كتبت بالإبر على مآقي البصر لكانت عبرة لمن يعتبر».

ما معنى أن تكتب قصة بالإبر على بؤبؤ العين؟ هل الشرط الأولي لاكتمال القصة فينا هو العناء، فنكون الظلمة الحالكة التي ندخل إليها هي باب الحكاية إلى التشكّل في الضوء؟

وهل تكون هذه العنمة التي تلفّ العرب في زمننا هي ضريبة جدارتهم بأن تكون لهم حكاية؟ وأخيراً هل تستحق أية حكاية، مهما كانت مآلاتها، كل هذا الألم والدم والأسى؟

هل بتنا نعيش لحظة انفصال الكلمات عن المعاني؟ تقودنا هذه الروايات إلى سؤال العلاقة بين الكلمة والمعنى، كيف نعيد للكلمة معناها كي نستعيد القدرة على المساهمة في صوغ عالمنا وسط ركام الموت والهمجية.

رجب بطل رواية منيف كان يخشى من تحوّل الكلمات إلى هباء، أما الفلسطيني معتز حجازي، الذي قام بمحاولة اغتيال الحاخام الإسرائيلي المتطرّف يهودا غليك مساء الأربعاء ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٤ في مدينة القدس، فكان يعلم أن ما يقوم به ليس اغتيالاً سياسياً فقط بل هو أيضاً محاولة كي يستعيد حقه في الكلام.

الشباب الفلسطيني الذي قضى أحد عشر عاماً في سجون الاحتلال انتظر خروج الحاخام يهودا غليك من ندوة عُقدت في مركز مناحيم بيغن في القدس بعد إلقائه محاضرة حول حق اليهود في الاستيلاء على الحرم القدسي الذي يطلقون عليه اسم «جبل الهيكل»، وكانت الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

تقدّم معتز فرأى رجلاً طويلاً أشقر اللحية يلبس قميصاً أزرق، يقف بين مجموعة من الناس. التفت إلى الرجل وسأله هل هو الحاخام، وعندما سمع جوابه الإيجابي أخرج مسدّسه وقال له «متأسف، أنا مضطر لفعل ذلك»، ثم أطلق النار، وفرّ هارباً على متن دراجته النارية.

في صباح اليوم التالي قضى معتز حجازي على سطح منزله في القدس بعد إصابته بعشرين رصاصة أطلقتها عليه الوحدة الإسرائيلية الخاصة بمكافحة الإرهاب.

لا أريد أن أدخل الآن في جدل حول الاغتيال، وحول معنى اللاصقة الجاهزة التي تعتبر هذا الاغتيال عملاً إرهابياً. فالمسألة في فلسطين التي تستباح منذ ستة وستين عاماً، وتصادر أرضها ويذل شعبها، أكثر تعقيداً من أن تُقرأ ضمن ثنائية النضال العنيف والنضال السلمي، لأنّ كل أشكال النضال التي استخدمها الفلسطينيون وكل التضحيات التي قدّموها لم تكن كافية كي ترفع حجاب الصمت الذي يغطي مأساتهم.

معتز حجازي الذي وسّم التعذيب والزنازة الانفرادية جسده وروحه، لم يحاول قتل الحاخام كي ينتقم لسنوات عمره التي ضاعت في السجن، فكرة الانتقام لم تكن واردة، وإلا لما اعتذر قبل أن يقتل. الرجل أراد بعمله إعلان موقف سياسي وأخلاقي، وقرر أن يكون عادلاً.

أستطيع أن أتخيله بطلاً في مسرحية العادلون لألبير كامو، كما أستطيع أن أفترض أنه يشبه يانيك بطل مسرحية كامو الذي رفض اغتيال الدوق سرجي ألكسندروفيش

الحق في الحلم

ادواردو غاليانو

صحافي وروائي
وكاتب، الأوروغواي
(١٩٤٠ - ٢٠١٥).

في العام ١٩٤٨ وايضا في ١٩٧٦، اعلنت الامم المتحدة لائحة طويلة من حقوق الانسان. على ان الكثرة الساحقة من الانسانية لا تتمتع الا بالحق في ان ترى وتسمع وتلتزم الصمت. ماذا لو نبدأ بممارسة الحق في الحلم الذي لم يعلن ابداً؟ ماذا لو اخذنا نهذي قليلا؟ لنشخص بانظارنا فيما يتجاوز فظائع الحاضر ونبتكر عالما آخر لا يزال قيد الإمكان:



سوف يعمل الناس ليعيشوا بدلا من ان يعيشوا ليعملوا؛ سوف يشترع قانون يجرم حماقة أولئك الذين يعيشون ليملكوا او ليكسبوا، بدلا من ان يعيشوا لمجرد ان يحيا مثل العصفور الذي يغني دون ان يدرك انه يغني والطفل الذي يلعب دون ان يدري انه يلعب؛ ما من بلد سوف ييسجن فيه من يرفض الذهاب الى الحرب. بدلا من ذلك، سوف يسجن من يرغب في الذهاب الى الحرب؛ لن يقيس الاقصاديون مستويات المعيشة بواسطة



سوف ينقي الهواء من كل السموم عدا تلك الصادرة عن دموع الانسان وأهوائه؛ سوف تهرس الكلاب السيارات في الشوارع؛ لن تقود السيارات البشر، ولن تبرمجهم الكومبيوترات، ولن يباعوا في السوبرماركتات، او تراقبهم أجهزة

✦
رسوم نفذها خوسيه
فرانيسكو بورخيس
لكتاب ادواردو غاليانو
Las palabras andantes
الصادر عام ١٩٩٣

امراة، امراة سوداء، سوف تصوير رئيسة جمهورية البرازيل، وامراة، امراة سوداء اخرى سوف تصوير رئيسة للولايات المتحدة الاميركية، وامراة، امراة هندية سوف تحكم غواتيمالا واخرى البيرو؛ في الارجنتين، سوف تعتر «مجنونات ساحة ايار» قدوة في الصحة العقلية لأنهن رفضن النسيان في زمن الامنيزيا الالزامية؛

الكنيسة، امنا المقدسة، سوف تصحح الاخطاء الطباعية في الواح موسى فتأمر الوصية السادسة فيها بالاحتفال بالجسد؛ وسوف تعلن الكنيسة امرا اضافيا قد نسيه الله؛ عليك أن تحب الطبيعة التي اليها تنتمي؛ متأثرة بالغابات سوف تكون صحارى العالم ومكسوة بالغابات صحارى الروح؛ سوف يكرم الياثسون ويهتدي الضالون، لأنهم

يئسوا وتاهوا بسبب سعيهم مفردين؛ سوف نكون مواطني ومعاصري جميع الذين يحثون الى العدالة والجمال، بغض النظر عن مكان ولادتهم وسكنهم، لأن حدود الجغرافية والزمن لن يعود لها وجود؛ سوف يبقى الكمال الامتياز المثل للآلهة، اما نحن فسوف نعيش كل ليلة في عالمنا الاخرق الذي تعمه الفوضى كأنما هي الليلة الاخيرة وكل يوم كما لو انه اليوم الاول.



مستويات الاستهلاك او نوعية الحياة بكمية الاشياء؛ سوف يقلع الطهارة عن الاعتقاد بأن الكركند يحب ان يسلق حيا؛ سوف يقلع المؤرخون عن الاعتقاد بأن البلدان تعشق



ان تتعرض للغزو؛ سوف يقلع السياسيون عن الاعتقاد بأن الفقراء يحبون أكل الوعود؛ لن يعود الصديق فضيلة ولن يؤخذ احد على محمل الجد إن لم يهزأ من نفسه؛

سوف يفقد الموت والمال سحرهما، ولن تفلح النكبة او الحظ في تحويل جرد الى نبيل؛ لن يعتبر اي كان بطلا او احمقا لأنه فعل ما يعتقد انه الصحيح بدلا من ان يفعل ما يخدمه افضل خدمة؛ سوف يشن العالم الحرب لا على الفقراء وانما على الفقر، ولن يبق لصناعة السلاح من بديل غير ان تعلن إفلاسها؛ لن يعود الطعام سلعة ولن تعود المواصلات تجارة، لأن الطعام والاتصالات من قبيل حقوق الانسان؛ لن يموت احد من الجوع، لأن ما احد سوف يموت من التخمّة؛ لن يعامل اولاد الشوارع على انهم حثالة لأنه لن يعود ثمة اولاد شوارع؛ لن يعامل اولاد الاغنياء على انهم من ذهب، لأنه لن يعود ثمة اولاد اغنياء؛

لن يكون التعليم امتياز لمن يستطيع ان يدفع؛ لن تكون الشرطة وبالا على الذين لا يستطيعون ان يدفعوا؛ العدالة والحرية، التوأمان السياميان اللذان حكم عليهما ان يعيشا منفصلين، سوف يجتمعا ويعاد توحيدهما، ظهرا الى ظهر؛

الأمل لا يعني التغاضي عن الانتكاسات مقابلة مع فواز طرابلسي

فؤاد فؤاد

نشرت هذه المقابلة
في ١٣ نيسان \ إبريل
٢٠١٥ في جريدة
«العربي الجديد».

♦ جئت إلى العمل السياسي من الثقافة (كما قلت عن نفسك في صورة الفتى بالأحمر) وكتبت في كل شيء تقريباً: في المسرح والتاريخ والرسم والاقتصاد والثقافة الشعبية. ترجمت وكتبت يوميات، كتبت في سيرتك وسيرة الآخرين. ما الذي كنت تريد من كل هذا التنوع، هل تعتقد بوجود وظيفة لا بد أن يضطلع بها المثقف؟

■ أكيد ثمة وظيفة. همّي الأول هو الوصول إلى أوسع عدد ممكن من القراء، وهذا يعني الآن أن أدون شهادات عن تجربتي وعن تحصيلي للجيل الجديد. بدايتي أدبية. كنت مصاباً بالربو، وبيتنا في شارع كليمنصو رطب، فعشت خلال قسم من طفولتي لدى جدي وجدتي لأمي. والجد عيسى إسكندر المعلوف مؤرخ مخضرم تعلمت على يديه أشياء كثيرة. عندما ينتقل إلى بيته الصيفي في زحلة، أزوره وأسكن عنده أيضاً. وكان يسمح لي بالدخول إلى مكتبته، ويعطيني كتباً لأقرأ. لا شك في أن هذا ترك أثراً كبيراً علي. أذكر أنه مرة أملى عليّ دفترًا كاملاً من الأمثال الشعبية. أضعته مع الأسف، ولكن بقيت في ذاكرتي طرفة الأمثال الشعبية وعبقريتها.

جو البيت مشبع بأخبار وأشعار الأخوال الشعراء، فوزي وشفيق ورياض، وأخوال الأخوال الشعراء أيضاً منهم قيصر، صاحب قصيدة «رُلى عرب قصورهم الحيام» وشاهين الذي كان ينظم الشعر بالعامية. نحفظ أشعارهم ونلقيناها في المناسبات العائلية. خاصة منهم فوزي الذي توفي باكراً، ورياض الذي عاد باكراً إلى لبنان من البرازيل، وعرفت شفيق الذي زار لبنان مرة واحدة. في مدرسة برمانا العالية، نما ميلي إلى الأدب. كنت قوياً في المواد الأدبية، وبأئساً في المواد العلمية. أسست مع الصديقين يوسف دعبول وشفيق أبو جودة مجلة أدبية اسمها «البراعم» وتسلمنا إدارة النادي الأدبي العربي

الذي كان يشرف عليه أستاذانا نذير العظمة وحليم بركات. وكلاهما من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي، بل إن نذير العظمة، هو الآن رئيس فرع سورية للحزب، هو الأكثر تطرفاً في تأييد النظام. برغم ذلك، كنت قومياً عربياً أسهمت في تأسيس تنظيم سياسي طلابي ناصري بشكل سرّي في المدرسة، بتأثير من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.

للانتقال إلى سؤالك، لم أفكر كثيراً في هذا الموضوع. أجازف في تفسير. تعطيك الماركسية الثقة بأنك تملك نظرة شاملة إلى الحياة والوجود، تقتنع باستسهال الكتابة والإنتاج في أكثر من ميدان وحقل. وكان الأدب عندي مقروناً بالرسم. وحين سافرت إلى بريطانيا لإكمال دراستي الثانوية، درست فن الرسم ستة أشهر، قبل أن أستاذ علي الاقتصاد السياسي. وكانت لي دائماً صلة خاصة بالفن. زوجتي نوال ترسم، وابنتي رسامة وغرافكية. الرسم يملأ علي حياتي، وهو مصدر متعة وحبور بلا حدود. عمري ككاتب بدأ عام ١٩٨٢ تحت وطأة العدوان والاحتلال الإسرائيلي ونهاية الحرب الأهلية اللبنانية. صممت على أن أعبر عن هذه التجربة بأشكال وأدوات وأساليب مختلفة. مشاهد الغزو والحرب أوحّت لي بكتاب «غريكا-بيروت». وخلال حصار بيروت صيف ١٩٨٢ والمشاركة في نضال «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» دوّنت «عن أمل لا شفاء منه».

كانت هذه هي البدايات. الاهتمام المبكر بالأغاني الفيروزية، وهو إدمان تفاقم مع سنوات الدراسة في الخارج، تبّهني إلى أن مسرحيات الرحابة حكايات تروي وتمسرح قصة لبنان واللبنانيين بين حربين أهليتين (١٩٥٨-١٩٧٥). هذا مصدر كتاب «مسرح فيروز والرحابة: الغريب والكنز والأعجوبة».

كثير من المثقفين، أعتقد أنه يجب على المثقف أن يعرف ثقافته الشعبية بعمق، بما هي مكوّن أساسي لثقافته ومورد لإنتاجه ومصدراً للإلهام. «إن كان بدك تعشق...» مجموعة مقالات ليتني كنت أمتلك وقتاً كي أتعلم في مواضيعها وأتبسط في البحث والدراسة فيها، وهي من نتاج أبحاثي خلال تأليف الكتاب عن الرحابنة. طقس البربارة الذي يستخدمه الرحابنة في «هالة الملك» أعدت تمثيله على مشهد الصراع الأهلي ونهب أسواق بيروت من قبل أبنائها. الدبكة في الكتاب من وحي ديكات الرحابنة وزكي ناصيف. أما الفصل عن الأمثال الشعبية فمحاولة لتجاوز نهج تجميع الأمثال والعمل على استنطاقها حول مضامينها، بما هي تأملات في الحياة وأفكار وأمثولات وحكم صادرة عن التجربة الجمعية عبر الأجيال.

مع الأسف، لن يتاح لي المجال للتعلم في البحث في كل هذه المواضيع التي أحبها. يبقى أن الجهد المطلوب أكبر بكثير من طاقة الأفراد. أعمالي في هذا المجال أقرب إلى لفقات نظر وتشجيع على البحث والكتابة في هذا المجال. ♦ قمت بتحقيق الأعمال المجهولة لأحمد فارس الشدياق، وكتبته عنه أيضاً فصلاً في «حريز وحديد». لم الاهتمام بهذا المثقف النهضوي بالتحديد؟

■ أعتقد أنه يقع على الكاتب أن ينتسب. أن يبني شجرة عائلة فكرية وثقافية لنفسه. يزعمني جداً المثقف الذي يعلن عن نفسه بأنه مقطوع من شجرة ومتفرد. السبب الأول لاختيار التعريف بالشدياق والترويج لأعماله هو أنه تعرّض ولا يزال يتعرّض للرقابة والإهمال بسبب مواقفه الجريئة في الدين وتحري المرأة والنقد الاجتماعي وإحيائه الأدب الجنسي والساخر في التراث العربي. والشدياق هو الصوت المختلف في النهضة العربية التي بالغت في التشديد على التعليم. الشدياق في المقابل أعلى قيمة العمل والوقت. لم يسقط في إشكالية شرق/غرب. كان ناقداً للامتيازات الاجتماعية والاستغلال في مجتمعه، مثلما كان ناقداً لأشكال التمييز والاستغلال في المجتمعات الصناعية الأوروبية. ولم يجد تعارضاً بين الدعوة إلى تمثّل الديمقراطية وبين نقد الرأسمالية. وفوق هذا كله، هو من أوائل الاشتراكيين العرب، على الأقل في مرحلته الباريسية، وهو ناحت مصطلح «الاشتراكية» أصلاً. تأثرت أيضاً بلغة الشدياق وخياله وسخريته. و«الساق على الساق» أول رواية عربية، كما برهنت الراحلة رضوى عاشور. بهذا المعنى لدي سلف صالح اسمه أحمد فارس الشدياق.

أقرأ أعمال ميشال شيحا منذ فترة طويلة. زادتني الحرب فضولاً بالنظام اللبناني، فكان كتابي «صلوات بلا وصل». ميشال شيحا والأديولوجيا اللبنانية. وهو تشخيص لفكر رجل استثنائي علمني الكثير عن النظام الاقتصادي والسياسي اللبناني، لأنه كان يكتب وهو يشارك في تأسيس هذا النظام. والكتاب طبعاً نقاش نقدي مع فكره.

الحقيقة أن كل انتقال من موضوع أو أسلوب كتابي كان يقربني أكثر فأكثر من أسئلة التاريخ. والتاريخ، كما تعلم علم العلوم الإنسانية، العلم الشامل. فكان تتويج هذه الجهود «تاريخ لبنان الحديث. من الإمارة إلى اتفاق الطائف». وهو أيضاً تلبية لحاجة أحسستها أثناء التعليم الجامعي، واكتشافي فضول الأجيال الجديدة عن تاريخها وعن تجربة الحرب.

من الأبحاث عن تاريخ لبنان والمنطقة تولّد كتاب «حريز وحديد». فيه اكتشفت أن هناك في التاريخ الفعلي ما هو أغرب من الخيال، وهو ما شجعني على كتابة نوع من الرواية التاريخية، مكتوبة بأسلوب الحوليات. أسماء الصديق عباس يبضون «السحرية التاريخية».

في عودة إلى سؤالك. يعود تنوع كتاباتي أيضاً إلى تنوع اهتماماتي وتجاربي. أنا مدين في كتاباتي أولاً بأول لتجاربي في الحياة. لولاها لست متأكداً من أنني كنت سأكتب أصلاً. لذا أحب استخدام تعبير «تصنيع تجربتي» للتعبير عن وظيفة الكتابة عندي، أي إعادة إنتاج التجربة بواسطة الأدب أو النقد أو الفكر.

«إن كان بدك تعشق»

♦ كتابك «إن كان بدك تعشق» لافلت للانتباه من حيث مضمونه؛ الثقافة الشعبية. كتبت عن الدبكة والأمثال وصناعة الحرير وعيد البربارة. اهتمام غير معتاد من مثقف عمل وكتب في السياسة طويلاً. أسلوبه مستعجل قليلاً، وكأنه اقتراحات لدراسات لاحقة لك أو الآخرين. لماذا هذا الاهتمام بالثقافة الشعبية؟

■ أنا شغوف بالثقافة الشعبية واهتمامي بها قديم. كتاب «مسرح فيروز والرحابنة» هو كتاب عن الثقافة الشعبية. صحيح استدراك أنهم أنتجوا ثقافة جماهيرية، لكنها مبنية على الثقافة الشعبية، على الفولكلور. وقد أقمت التمييز بين ثقافة ينتجها أبناء الشعب في بيئاتهم الطبيعية وثقافة منتجة للاستهلاك من قبل الجمهور الواسع، قد تستلهم الثقافة الشعبية أو لا تستلهمها. على عكس

◆ هل ثمة سلف آخر، ترى نفسك امتداداً له؟

■ أنا ابن التراث الماركسي ولا أختزله بشخص واحد، ورغم ضخامة أثر ماركس وإنجلز. لأنني ماركسي منشق، أمكنني قراءة عدد واسع من روافد الماركسية، وعلمتني أن المهم أن يستوعب كل هذا ويستخدم في الإنتاج المعرفي والفعل النضالي، لا أن يستخدم بما هو نصوص سحرية أو قوائم. لن أستثني لينين في هذا التراث. كانت الثورات العربية مناسبة للتذكير به، بما هو أحد منظري الثورات إضافة لكونه من صانعيها. وقد بلور جملة من المفاهيم في فن التغيير الثوري، تبدأ بالأهمية الحاسمة لمعرفة الخصم والتحليل المحدد للواقع المحدد، ومفهوم «الوضع» بما هو عقدة علاقات وتناقضات وتوازنات قوى يجب الفعل فيها، وتميز هذا «الوضع» عما سبقه، وصولاً إلى مفاهيمه في الاستراتيجية والتكتيك والتعلم من التجربة والتنوع في أساليب النضال، إلخ. لا حاجة لكبير جهد للملاحظة مدى حاجة فكر وممارسة التغيير عندنا للإفادة من هذا التراث الذي هو علم وفن في آن معاً.

◆ كتبتُ إيتيل عدنان مرة كتاباً عنونته «عن مدن ونساء، رسائل إلى فواز» والمقصود أنت. هل كان هناك رد؟ هل ثمة رسائل من فواز إلى إيتيل؟

■ كنا أنا وجوزيف سماحة نصدر مجلة «زوايا» في المنفى الباريسي في الثمانينيات، وكنا بصدد تحضير عدد خاص عن المرأة، فطلبت من إيتيل أن تكتب لنا مقالاً. لم يصدر العدد الخاص بسبب عدم توافر التمويل، اعتبرت إيتيل التكليف مناسباً للكتابة عن المرأة والمدن، خلال تجوالها في أوروبا وزياراتها لبنان. وكانت كلما كتبت رسالة أرسلتها لي، وأنا محتفظ بالأصول. لم يكن الاقتراح هو التبادل، لكن كتبت عدداً من الرسائل مستوحاة من رسائلها، قسم منها زيارات لإسبانيا وأول زيارة لي للأندلس، وتنتهي بزيارة موقع مجزرة قانا، في الجنوب. نشر بعضها في الصحافة، وسوف ينشر في مجموعة كتابات قادمة بالتأكيد.

درويش وحصار بيروت

◆ ترجمت أشعاراً لها أيضاً وقبلها أشعار لريتسوس....

■ المترجم عندي هو من يحاول الاستحواذ على النص لولها به، فيضعه في لغته. بدأت الترجمة على مقاعد الدراسة، ترجمت قصائد لنزار قباني ومحمد الماغوط إلى الإنكليزية، ونشرت في مجلة «الرواق» الطلابية التي كان يترأس تحريرها الصديق رياض الرئيس في مدرسة برمانا العالية. على المنوال نفسه كانت علاقتي بكتابات إيتيل.

في كل الأحوال، أترجم كثيراً لمعتني الخاصة، خصوصاً في الأدب، ولست أنشر كل ما أترجمه.. ترجمت ليانيس ريتسوس أناشيد المقاومة اليونانية ضد الاحتلال النازي والديكتاتورية، من وحي المقاومة اللبنانية والفلسطينية ضد إسرائيل.

◆ لكن الشعر كان حاضراً أيضاً في مسيرتك الثقافية. قلت في المذكرات إنك في البداية كتبت شعراً، وقال أدونيس عن قصيدة لك: إنك تشبه إيلوار، كما كتبت عن علاقتك بمحمد الماغوط، وأنت ترددت إلى خميس شعر. ثم إن لك علاقة خاصة بالعديد من الشعراء، كما لو أنك تمشي على حافة الشعر.

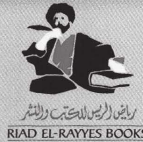
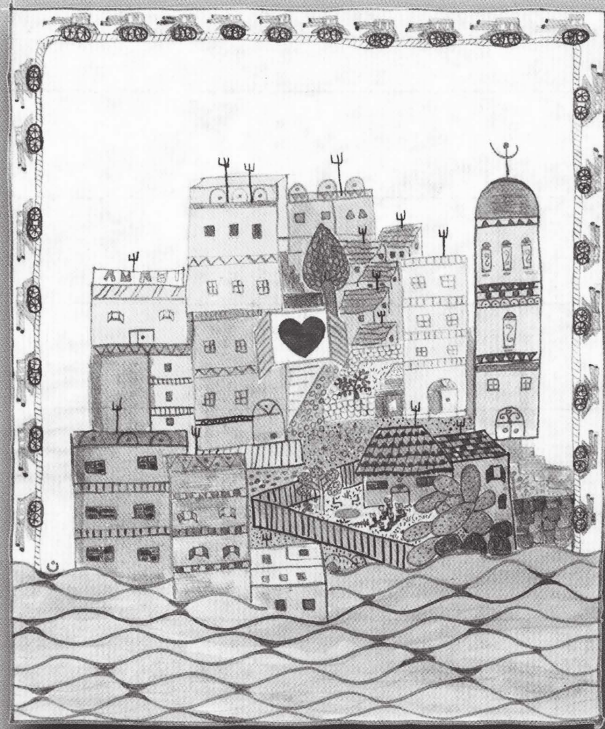
■ أنا متذوق قديم للشعر، الكتابات الشعرية من أمراض المراهقة، فكما تعلم كل مراقب عربي شاعر حتى يثبت العكس، أو حتى يكبر. صحيح نشرت «أغنية إلى الموت» في «البراعم» وهي مستوحاة من قصيدة إيلوار الشهيرة «حرة». وأظنها آخر محاولاتي في الشعر. بمعنى ما، كان الشعر طريقي إلى اليسار، من خلال القراءات المبكرة لإيلوار ونيرودا وناظم حكمت وآخرين. أنا محظوظ بعدد واسع من الأصدقاء الشعراء. تعرفت إلى محمد الماغوط من خلال نذير العظمة، ونحن بعد طلاب ثانوية، ونجالسه في مقهى «الأنكل سام» قبالة الجامعة الأميركية على طاولة عمدها باسم «طاولة القلق». نختلف معه في كل شيء يتعلق بالفكر والسياسة ونعجب بشعره وروحه الساخرة. وفي المقهى ذاته نلتقي بغسان كنفاني وقد ترافقنا لفترة خلال كتابتي في جريدة «المحرر». ثم تكونت مجموعة تضم خليل حاوي وعلي الجندي وروز غريب وليمي بعلبكي ورياض الرئيس وأمين وليمي الحافظ وغيرهم، يسهرون كل ليلة تقريباً في مقهى بالطابق الأول من «البنية الزرقاء» في آخر نزلة عبد العزيز اسمه «شيخ أند كوزن». أصدقاء المحطة الثانية هم سعدي يوسف الذي جاءنا في إطار «الفيلق العربي» الذي كان يناضل مع المقاومة الفلسطينية ورافقت سعدي في منافيه العديدة، وخصوصاً منفاه العدني. في المنفى الباريسي تجددت الصلة والصداقة مع عبد الرحمن منيف. وهناك أيضاً محمود درويش. أنا محظوظ بكثرة الأصدقاء في هذا الوسط.

◆ وصولاً إلى محمود درويش، الذي تربطك به علاقة شخصية مديدة من بيروت إلى المنفى الباريسي. كيف تصف هذه العلاقة؟ وهل تفكر بالكتابة عن هذه الصداقة؟

فواز طرابلسي

عن أمل لا شفاء منه

يوميات حصار بيروت ١٩٨٢



رياض الريس للكتاب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة ومنقحة

«خارج المكان»

◆ عرفت أيضاً إدوارد سعيد، معرفة ثقافية وشخصية وترجمت له.

■ تعرفت إلى إدوارد عندما دعاني بصفته مسؤول الثقافة في «جمعية الخريجين العرب الأميركيين» إلى مؤتمر الجمعية عام ١٩٧٠ الذي عقد في مدينة بوسطن. ساهمت في ندوة مخصصة للثورة في الجزيرة والخليج واليمن، تحدث فيها مع إريك رولو، العائد من زيارة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وعبدالله الأشطل، مندوب اليمن الديمقراطي في الأمم المتحدة. منحتني السفارة الأميركية في بيروت تأشيرة دخول ثم استردتها وألغتها. أغلب الظن أن المنع كانت له علاقة بماركسيستي المعلنة، وبنشاطي في الجامعة الأميركية ضد حرب فيتنام. اعتذرت عن عدم الحضور، فأجرت الجمعية بواسطة محاميها عابدين جبارة اتصالات انتهت بأن سمح لي بحضور المؤتمر خلال أربعة أيام فقط.

خلال الحرب في لبنان، تباعدت اللقاءات مع إدوارد وزوجته مريم قرطاس، زميلة الدراسة الثانوية والجمعية. التقيته خلال زيارته القليلة لبيروت في إطار نشاطات ثقافية أو سياسية تتعلق بالمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. عندما نظم الياس خوري وعدد من الأصدقاء حفل تكريم لإدوارد في مسرح بيروت، قرر إدوارد أن يقرأ بالعربية نصاً مترجماً من كتابه «خارج المكان» وقد كان لا يزال مخطوطة. أراني الصفحات المترجمة، فاقترحت عليه بعض التعديلات. في نهاية تلك الزيارة، سألتني هل أقبل ترجمة الكتاب إلى العربية. فقبلت من دون تردد. والسبب أن إدوارد ظلم في ترجمات كتبه إلى العربية، وقد جاءت مدعية ومتفذلكة تزيد لغته العويصة أصلاً تعقيداً. قلت له: سأجعلك تحكي بالعربية. وأظنني فعلت. بعد الوفاة ترجمت أيضاً له «الأسنينة والنقد الديمقراطي» الذي يبسط فيه المرحلة الأخيرة من تطوره الفكري ونظراته العلمانية الإنسانية، متجاوزاً ثنائية شرق/غرب. وصدرت له في نهاية العام المنصرم ترجمة «عن الأسلوب المتأخر. موسيقى وأدب ضد التيار».

«خارج المكان» سيرة لرجل اكتشف قرب الموت، فعاد إلى طفولته والنشأة. خلال الترجمة نشأت مراسلة إلكترونية تميّنت عليه فيها أكثر من مرة أن يكتب عن «إدوارد» الآخر الذي صنع نفسه وهو يعيش في الغرب تحت وطأة هزيمة ١٩٦٧. كان هذا هو الطلب ذاته الذي طلبه منه ناشره. لكن إدوارد امتنع عن الخوض في

■ مع محمود عشنا حصار بيروت معاً يومياً تقريباً. ثم التقينا في باريس. وعشنا بضعة سنوات من الصداقة الكثيفة والعائلية والحلوة، وقد شاركت في تحرير مجلة «الكرمل» خلال تلك الفترة أيضاً. محمود درويش رجل يعيش للشعر والحب. وحين يتعارض الاثنان، يختار الشعر. لم يخطر في باله الإنجاب، ربما لكي تختصر ذريته بالقصائد. قلت معظم ما أريد قوله عنه في رثائه بعنوان «محمود درويش: ذكاء القلب» وهذا المعادلة تختصره. تسأل عن حياته اليومية؟ يقرأ الصحف بعناية، يكتب قبل الظهر، يخرج للغداء، عادة مع أصدقاء. بعد القبلولة يقرأ الشعر بنهم، لكنه يقرأ الروايات خصوصاً. كان يتمنى أن يكتب رواية. والباقي، يمارس حياته الاجتماعية ليلاً، لم أره سكران على مدى سنوات. أناقته الشخصية جزء من تعبده للجمال.

أخبرني أنه يكوّر يده أمام الورقة التي يكتب عليها، مع أنه يكون وحيداً على مكتبه. سألته لماذا؟ قال إنه لا يريد أن يراها أحد، فربما قرر أن يمزّقها. عادة ما يحتفظ بأصول قصائده. لكنه قد يحجم عن نشر قصيدة لم تعجبه أو اكتشف أن ثمة من له قصيدة أفضل منها في الموضوع ذاته. نشر في مجلة «شؤون فلسطينية» قصيدة في رثاء بابلو نيرودا، لكنه لم يضمّها إلى أي من مجموعاته الشعرية بعد أن نشرت إيتيل عدنان قصيدتها «بابلو نيرودا شجرة موز». يعمل على تنمية لغته الشعرية بدأب مخيف. يقرأ في القواميس يومياً لاصطياد مفردة مناسبة أو مبتكرة.

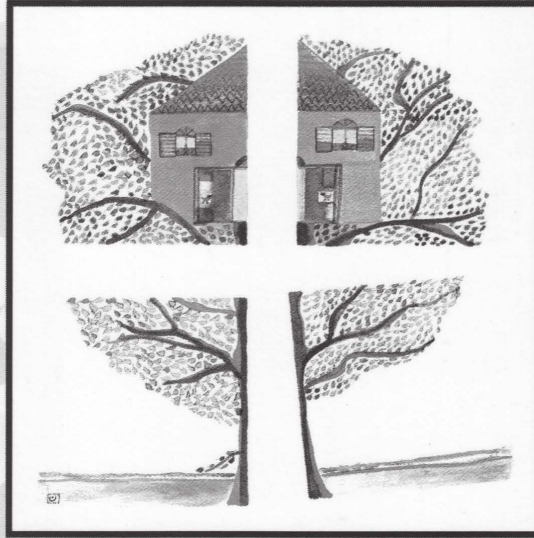
لديه حساسية مفرطة للمكان والنبات. يتصل ليلاً، يصف لي نبتة أو زهرة، سائلاً عن الاسم. معظم الأحيان لا يكون لدي جواب. يقول بأسى: «كنت أعرف أسماء كل نباتات فلسطين. بدأت أنسى»، هكذا كان يعيش فلسطين أيضاً.

لديه حساسية مفرطة للمكان. أتذكر مرة كنت أنا وعائلتي في منطقة جبلية فرنسية على حدود سويسرا. فقدم هو والياس وسامية صنبر بالسيارة لزيارتنا. انبهز بالمشاهد والمناظر على طول الطريق من باريس. وحين وصل إلى حيث كنا، في قرية حديثة ممتلئة بعمارات إسمنتية مملّة، يسكنها أناس يعملون في جنيف، أصيب بحالة من الصدمة والقرف. لم يكن بمقدوره أن يفهم كيف أن رحلة ممتعة بصرياً إلى ذاك الحد تستطيع أن تنتهي في مكان تافه كهذا. تعكّر مزاجه وعكّر لنا مزاجنا. لن أزيد.

فواز طرابلسي

صبرة الفتى بالأمر

أيام في السلم والحرب



RIAD EL-RAYES
BOOKS

رياد الريس للكتاب والنشر

لكن ثمة مشكلة أخرى في الترجمة. هي غلبة الترجمات العددية، خصوصاً بعد أن قرر أحد تقارير التنمية العربية ضرورة انتقال البلدان العربية إلى «مجتمع المعرفة» ومثل على النقصان الذي نعانيه في هذا المجال، بأن المنطقة كلها لا تترجم أكثر من ٣٠٠ كتاب في السنة. عند التحقيق، تبين أن الرقم مغلوط. لكن ذلك لم يمنع من تكاثر مؤسسات الترجمة، ومعظمها خليجي أو بتمويل خليجي، وصار السباق على كمية الكتب المترجمة سنوياً. فلم تعر كبير اهتمام لتوحيد مصطلحات الترجمة في الحقول المختلفة أو على الأقل إحصاؤها ووضعها بتصرّف المترجمين.

◆ من مجلة «البراعم» إلى «بدايات» مشوار طويل من الصحافة. صدرت «بدايات» بالتزامن مع الثورات العربية. كيف يمكن إنجاز مجلة في ظل الصعوبات الكثيرة التي ترافق عادة مثل هذا الإنجاز، التمويل والتحرير والتوزيع وتكوين قراء..؟

■ «بدايات» فكرة نشأت بعد محاولات عديدة قامت بها مجموعة من اليساريين بعد تعرّض محاولات لتجديد اليسار في لبنان. قلنا نؤسس منبراً للتفكير النقدي على الأقل. حتى لا نقول إن لا شيء يمكن عمله. أقصد بـ «نحن» النواة المؤسسة: زهير رحال وغسان عيسى وسلمان تقي الدين وعساف كفوري وميسون سكرية. ونحن في معرض الإعداد للإصدار، اندلعت الثورات العربية. فأسرعنا في وضع هذا الجهد بتصرّف التفكير والدعوة والتضامن معها. نريدها مجلة بمنال القارئ، لا نخبوية ولا مجلة دراسات أكاديمية. والمغامرة شبه عسيرة، لأنها لا تثير اهتمام الجهات المانحة. نوزع في سبعة بلدان عربية، بما فيها فلسطين. ولنا موقع إلكتروني. لفتت لثوبية إخراجها، وإقبال الشباب على الكتابة فيها، واهتمامها بمجالات مبتكرة، مثل ثقافة العين والذاكرة والموسيقى والثقافة الشعبية. في الأعداد الأخيرة، نشرنا ملحقات خاصة بإدوارد سعيد وعبد الرحمن منيف.

كتابات اليمن

◆ وثقت تجربتك المديدة في اليمن بكتاب «وعود عدن»، ثم ظفار في «شهادة من زمن الثورة». كيف ترى هذه التجربة الآن؟

■ تعرفت إلى اليمن واليمنيين خلال وجودي في بريطانيا لإكمال الدراسة الثانوية (١٩٨٥ - ١٩٦٠) من خلال دوري في المكتب العمالي لحزب البعث العربي

كتابة الباقي من سيرته. ولعله لبّى الطلب، بطريقة غير مباشرة، في كتابه «عن الأسلوب المتأخر». وهو دراسة عن موسيقيين وأدباء من التراث الغربي في المرحلة الأخيرة من حياتهم ونتاجهم، يجمع بينهم أنهم لم يستسلموا للأمر الواقع، واستمروا في المساءلة والمشاغلة والمناكفة والانشقاق. بهذا المعنى أرى أن إدوارد في «عن الأسلوب المتأخر» كان يتحدث عن حياته وأعماله من خلال من أعجبه من مفكرين وموسيقيين وأدباء لم يرضخوا للقدر الجسدي. والكتاب بهذا المعنى أيضاً وصية إدوارد سعيد الأدبية والفكرية والجمالية.

◆ كتاب «عن الأسلوب المتأخر» مركب من ثلاث طبقات مثيرة للاهتمام: أعمال الموسيقيين والكتاب، كموتزارت، بيتهوفن، وجان جينيه، في أسلوبهم المتأخر، ثم قراءة أدورنو المتأخرة أيضاً لبعض هؤلاء المبدعين، وهي الطبقة الثانية، ثم تأتي قراءة سعيد لهذه القراءة كطبقة ثالثة، فبدا الكتاب كما لو كان مؤلفاً من طبقات جيولوجية كثيفة. كيف تعاملت من خلال الترجمة (إن صح القول إنها طبقة رابعة) مع المصطلحات الموسيقية والمفاهيم الفلسفية. وكيف تغلبت على صعوبة إيجاد مقابل لها في العربية؟

■ أظنني تعاملت مع الترجمة انطلاقاً من نقطة ضعف، بسبب أن ثقافتني الموسيقية الكلاسيكية ضعيفة. وبسبب الفقر في تعريب المفردات والمصطلحات الموسيقية الغربية إلى العربية. ولما كان همي أن أتوجه إلى القارئ العربي العادي، اضطررت للإكثار من الهوامش. إلى هذا فالأسلوب المتأخر لإدوارد سعيد نفسه يتسم بخاصيتين الأولى، أن أدوارد، مثله مثل كثيرين من أبناء المستعمرات ممن يكتب بلغة المستعمر، يريد أن يبرز أهلها في لغتهم. وإدوارد من جهة ثانية، في أسلوبه المتأخر لم يكن قد بلور أسلوبه إلى أرقى مستوى من الرهافة، وإنما كان يغرف من مستويات راقية من المفاهيم والمصطلحات الغربية في الأدب والإنسانيات عموماً. بهذا المعنى كانت الترجمة مغالبة بين لغتين، وكان على الترجمة العربية أن تكون عملية إعادة تأليف وابتكار وتحايل في غير موضع، والغرض توليد المعاني المناسبة، التقريبية أحياناً، في اللغة المنقول إليها.

◆ هل السبب هو غياب المعاجم المتخصصة؟ أم غياب الكتابة في هذه الحقول المعرفية؟ أم غياب حواملها الاجتماعية؟

■ النقص فيها جميعاً. والمؤلف بالغ الصعوبة هو الألماني ثيودور أدورنو العصي على التعريب لأوروبيته الجذرية. وقراءة إدوارد لأدورنو لا تزيده إلا التباساً.

فواز طرابلسي

"إن كان بدك تعشق..."

كتابات في الثقافة الشعبية



الرفيق العزيز جاز الله عمر، وكان وزيراً للثقافة حينها. وصلنا اليمن والاستنفار على أشده بين الحزبين الحاكمين، حزب المؤتمر الشعبي العام برئاسة علي عبدالله صالح، وشريكه الأصغر في الحكم، الحزب الاشتراكي اليمني. الناس متوترة، ومحمود أكثر توتراً من العادة، عندما يكون على أهبة ندوة شعرية، نبحث ندوة صنعاء وكان الإقبال حاشداً والاستقبال عاطفياً وحامساً. كان حظ ندوة عدن أقل نجاحاً من سابقتها في صنعاء. المهم، جلسنا أياماً في الفندق بعدن، ننظر طائرة ملائمة إلى حضرموت. حتى ملّ محمود وكان ميشيل مضطراً لتسليم سيناريو لفيلم آخر يريد إنجازه. فلا اقتفينا آثار أقدام امرئ القيس في حضرموت، ولا تذوقنا عسل دوعن، أعظم عسل في الدنيا. بإيجاز، عشت في زمن الثورات، وثمرت مع الثوار وما أزال نأثراً.

بيروت والأمل

♦ صدر «عن أمل لا شفاء منه» خلال فترة حصار بيروت في ١٩٨٢. يوميات تسجل ما عانته المدينة تحت الاحتلال. بعد ٣٣ عاماً، مدن كثيرة تدك الآن ببراميل متفجرة وصواريخ وأسلحة كيميائية، ولكن هذه المرة من أنظمتها. هل ما زال ثمة من «أمل لا شفاء منه»؟

■ الأمل لا يعني التغاضي عن الانتكاسات أو الهزائم أو المآسي، ولا هو تشبث بحتمية أو قدرية. به نعود أنفسنا على البقاء والصمود والمقاومة والتطلع إلى الأمام. ولا أمل بلا عمل ولا عمل بلا أمل. حسب التحية اللامعة لأجدادنا القرامطة: تحية العمل والأمل. الأمل الذي تمسكت به وأنا خارج من حصار بيروت، هو الذي عوّضني بمعاشة الثورات الشعبية لعشرات الملايين من الشباب وغير الشباب في عام ٢٠١١ وهي تستعيد مبدأ السيادة والإرادة الشعبيتين وشعارات: العمل والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية. دعني أقرأ لك هذا المقطع لأليخو كارنيتيه في كتابه «الملوكوت الأرضي»: «يسعى الإنسان دوماً وراء سعادة ليست من قسمته. لكن عظمة الإنسان تكمن تحديداً في رغبته بتغيير العالم وتحمل الأعباء. في ملكوت السموات، لا توجد عظمة يمكن بلوغها، لأن كل شيء هناك ترابٌ مقيم ووجود بلا نهاية، حيث لا تضحية ولا راحة بال ولا ملذات. ولذا فالإنسان الذي يسحقه الألم وترهق كاهله الأعباء، جميلاً في بؤسه، قادراً على الحب وسط المآسي، لن يقدر له أن يبلغ عظمته وأسمى قدره إلا في هذا الملكوت الأرضي».

الاشتراكي في بريطانيا. وقد أمضيت فيه قرابة السنتين، ناشطاً في جناحه الماركسي في بريطانيا، قبل أن أطرده لمعارضتي الانقلابين البعثيين في سورية والعراق، وخصوصاً الاضطهاد الدموي للشيوعيين والحرب على الأكراد في العراق. ضم المكتب العمالي متطوعين للعمل مع العمال اليمنيين في الشمال البريطاني، وتأسيس نقابة تدافع عن حقوقهم، هم خالد عسكر وسعد الله الفتحي والمسؤول عنا هو مكّي العاني والثلاثة عراقيون.

دعني أروي لك هذه النادرة. منذ عام زرت بريطانيا، وكنت مدعواً لمحاضرة في كلية لندن للاقتصاد. اتصل بي صديق من كوادر الحزب الاشتراكي اليمني يقيم في ليفربول، ودعاني إلى محاضرة لدى الجالية اليمنية في المدينة. اعتذرت لاضطراري للعودة إلى بيروت. فقال لي متأسفاً: لكنهم يتذكرونك هنا. كنت تأتي مع شخص آخر. وهذا الشخص الآخر هو خالد عسكر. يتذكرون بعد أكثر من نصف قرن.

تعرفت إلى عبد الفتاح إسماعيل في بيروت عام ١٩٦٨ عن طريق محسن إبراهيم ومحمد كشلي، من قادة يسار حركة القوميين العرب حينها، وكنا نتفاوض لتحقيق الاندماج بين «لبنان الاشتراكي» و«منظمة الاشتراكيين اللبنانيين» وقيام منظمة العمل الشيوعي في لبنان عام ١٩٧٠. في العام نفسه زرت اليمن وظفار مطلع عهد اليسار برفقة الكاتب اليساري البريطاني فرد هاليداي، وعبدالله الأشطل، أحد قادة اليسار في الجبهة القومية.

كتابي «ظفار. شهادة من زمن الثورة» تحقيق صحفي نشرته مسلسلاً في مجلة «الحرية» العام ١٩٧٠. وقد أسهمت مع فرد هاليداي في تأليف كتاب «المنطقة العربية لا سلاطين» وأسسنا في بريطانيا لجنة للتضامن مع الثورات في ظفار واليمن ومع الحركة الوطنية في البحرين والخليج وعمان. كذلك «بدايات» فكرة نشأت بعد محاولات عديدة قامت بها مجموعة من اليساريين بعد تعثر محاولات تجديد اليسار في لبنان، وهي مشاهدات وتقارير ومقابلات رحلات مكتوبة خلال زيارتي اليمنية. وأنا عاكف الآن على الإدلاء بتجربتي ومعاشتي للتجربة في اليمن الديمقراطي خلال ربع قرن في إطار العلاقة المميزة للتجربة مع أطراف اليسار الفلسطيني واللبناني، وخصوصاً الجبهتين الديمقراطية والشعبية والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان.

كانت آخر زيارة لي إلى اليمن في عام ١٩٩٣ برفقة محمود درويش وميشيل خليفة، وقد خططنا لمشروع فيلم يخرج به ميشيل عن امرئ القيس. كنا بدعوة من

إيتيل عدنان: كتابة اللون

عيسى مخلوف

كاتب وشاعر لبناني
مقيم في باريس.

الألوان الزيتية، تضغط عليها بأصابعها، وتفرغ عيّنات منها فوق سطح القماش، حتى تولد المفاجأة. المشهد الطبيعي في لوحها مُكتفٍ بذاته ولا يحتمل عناصر أخرى.

تغيب الشخصيات كلياً عن أعمالها. وتبدو تلك الأعمال كالخديقة اليابانية التي لا يُنظر إليها إلا من الخارج. وحدها العين البصيرة تطلّ أرضها وتحلّق في فضاءاتها، وهذا ما يميّزها عن الخديقة الأوروبية أو الخديقة في الإسلام، كما عهدناها، مثلاً، في «جثة العريف» في غرناطة.

لا أثر لشيء في اللوحة من خارج المشهد إذاً. لا شيء يعكّر صفو اللوحة حتى توقيع الفنانة، لا سيما في السنوات الأخيرة، إذ يستوي في الجهة غير المرئية منها، أي على الطرف الآخر من القماش. وهل تحتاج اللوحة إلى توقيع مَن تتماهى مع المشهد الذي ترسمه، وهو، على نحو ما، صورتها الشخصية؟ ألا تقول هي نفسها: «تلك الجبال والبحار هي وجهي الآخر. الوجه الأكثر ثباتاً في الزمان»؟

جبل «تلبايس»، قبالة منزلها في ساوساليتو، في كاليفورنيا، هو، بالنسبة إليها، كما كان جبل القديسة فكتوريا بالنسبة إلى سيزان في القرن التاسع عشر. ترسمه، ثمّ تعيد رسمه، هذا الذي تربطها به علاقة عشق. هذه المرأة لتحوّلات الطبيعة بين الليل والنهار، وعبر توالي الفصول.

يصبح الجبل عندما تعانقه بنظراتها جزءاً من العين التي ترى ومن كيانها. تلوّنه وتتعامل مع أحجامه وفق ما تملّيه عليها نظرتها إليه، في لحظة محدّدة من النهار. من تعاقب النهار والليل. وفق مزاجها وحساسيتها في اللحظة التي ترسمه فيها.

لم أرَ طفلةً في التسعين من عمرها مثل هذه الطفلة التي أطلّت أمس في افتتاح معرضها في غاليري Lelong في باريس. وكم تليق بها عبارة بودليير التي نقول إنّ «الإبداع هو الطفولة التي تبيّثك بمقدار ما ترغب في مجيئها». إنها إيتيل عدنان، الصديقة والشاعرة والفنانة، عابرة القارّات واللغات والثقافات.

من مناطق الدهشة تأتي، ومن عالم السؤال. وهي لا تنفك تبحث وتتساءل. ترسم وتكتب كما لو أنها بدأت الرسم والكتابة الآن. بالنضارة نفسها وبالعزيمة نفسها. على جدران صالة العرض الفسيحة، عُلمت لوحاتها الزيتية الصغيرة، الواحدة بجانب الأخرى، بالإضافة إلى رسوم بالفحم والخبر الصيني، بينها رسم منقذ بخطوط رشيقة، حرّة، يمثّل رفيقة دربها سيمون فتال.

كُتِبَ «الأكورديون» المفتوحة وُضعت بصورة مستقيمة على طاولات جانبية، وبدت كمنحوتات من ورق. تفتّحت وتلوّنت، خرجت من صمتها فجأة بعدما كانت صفحاتها مضمومة كبتلات الورد. بعض هذه الأعمال سبق أن رأيته في منزلها في باريس، وبعضها الآخر جاء لا أعرف من أين.

لكنّها أعمال مسافرة، مثلها، في الزمان والمكان، من لبنان إلى باريس ومن سان فرانسيسكو إلى نيويورك. وهي تجتمع هنا، للمرة الأولى، كمن يرأب الصدع بين المسافات ويجمع أشياء بعد رحلة طويلة.

لا شيء يعكّر صفو اللوحة كلّ هذه الجبال والتلال والوهاد، البحار والخلجان والشواطئ، كلّها، في عيني إيتيل عدنان، أشرعة لسفّر ملوّن في الذات والطبيعة. يكفي أن تحمل بيدها أنابيب

الجبل كتابها المفتوح

الجبل، هنا، ذريعة للكتابة ولرسم. إنه نقطة مركزية وهو، كالسما والبحار والغيوم، نافذة مفتوحة على الذات والكون. ماذا لو كان الجبل حاضراً في مكانه، لكن دون الإحساس به وبتحولات الضوء فوق سطحه، ودون تحسس أعماقه والإصغاء إلى نبض قلبه؟

يتناسل هذا الجبل في نتاجها الفني والأدبي، وقد خصّته بكتاب بعنوان «رحلة إلى جبل تملباييس»، وهو من أجمل ما كتبت (نقلته إلى العربية أمل ديبو). الجبل كتابها المفتوح، رحلة جوائية معراجية بقدر ما هي رحلة في عالم العناصر.

الرسم، بالنسبة إلى إيتيل عدنان، فسحة لعينين لا تكتفيان بظواهر الأشياء التي تراها، بل تمضي من خلالها إلى جوهرها العميق. هكذا تُسائلنا أعمالها، كل لوحة على حدة، أو، كما طالعنا في معرضها الأخير، الواحدة بجوار الأخرى، مناسبة بهدوء كنهر من الألوان.

في تلك الأعمال، تستبدل الفنانة لون السماوات بحسب مزاجها، والكُتل الهندسية التي تمثّل الجبال والبحار ليست ثابتة أبداً. البدر المكتمل ليس مستديراً بالضرورة.

وراء قوة الأحجام والألوان، هناك انكسارات خفية: هشاشة البشر وإنجازاتهم عبر العصور مقابل الجبل العصبي الرابض في مكانه. وهو، في اللوحة، يخرج عن أطواره، تطير إيتيل مع وصول أول غيمة. تعبث به وتعيد صياغته إلى ما لا نهاية. الجبال العالية تتابع صعودها في المخيلة التي لا تقف عند حدّ.

خارج المدارس والنظريات الفنية تتحرّك لوحة إيتيل عدنان، ولئن كانت تعي أبعاد تلك النظريات والمدارس، فاللوحة، بالنسبة إليها، تجربة وليست مجرد معرفة. «لا يكفي أن نعرف، بل أن نعيش تجربة ما نعرف»، وفقّ تعبيرها. الثقافة الغربية تولي اهتماماً كبيراً للشخص في العمل الفني.

في النهضة الإيطالية، تأتي القامات والوجوه في المقام الأول، فيما الطبيعة خلفيّة ومتكأ. مع الانطباعيين، أصبحت الطبيعة هي الموضوع، وهي القيمة بذاتها. الفنان الفرنسي مونيّه رأى العالم بصفته غباراً مضيقاً ودمّر معنى اللوحة، لكنه تدمير إيجابي كما وصفه هايدغر بقوله إن «الهدم هو لحظة بناء جديد».

فان غوغ ركّز على الطبيعة أيضاً. أسنّها ورسم من خلالها روحه المجرية، لكن بألوان زاهية. جعل

الشخص التي في أعماله صغيرة كما في المنمنمات اليابانية. إضافة إلى هؤلاء الفنانين الذين دشّنوا عهداً جديداً في التعبير عن الطبيعة واستوقفت تجاربهم إيتيل عدنان، هناك أيضاً كاندينسكي، وهناك بولياكوف الجامع في فنّه حساسيات الشرق والغرب، دون أن يكون شرقياً أو غربياً. وأيضاً، وبالأخص، نيكولا دو ستال الذي تحوّلت المشاهد الطبيعية في لوحته إلى خطوط وكُتل وألوان، وإلى قوى تتصادم. التفاصيل الصغيرة ما كانت تعنيه. ما يعنيه هو الشعور بالصدمة. تقول إيتيل: «ضمن هذا التوجّه أجد نفسي، لكن الفرق بيني وبين دوستال هو أنه يُراكم الألوان بينما أنا أضع لونا وأتركه يستريح بجانب لون آخر».

ترسم مثلما تكتب

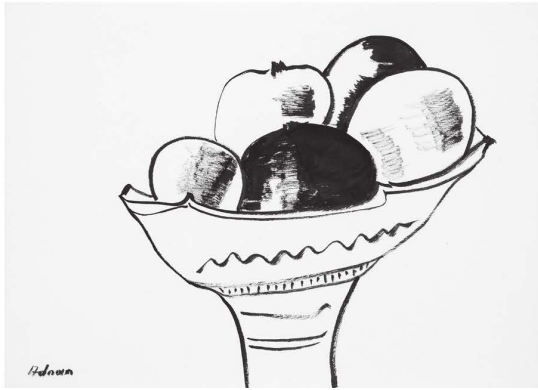
تفتتح إيتيل عدنان على الفنّ الياباني، ليس فقط من خلال استعمالها دفاتر «الأكورديون»، تحوّلها إلى مساحات للكتابة والخط والرسم، بل أيضاً من خلال تلك الرؤية التي تولي الطبيعة مركز الصدارة. وتجعل المشهد الطبيعي هو الأساس.

غالبية الأعمال المعروضة صُمّمت بمقاسات صغيرة، كأنها منمنمات، لكنّها مفتوحة على مدى ذهني شاسع. نوافذ تشي بمشاهد كبيرة. غريب أمر هذا الائتلاف، بل هذا التأخي بين مُنتهى الصغر ومُنتهى الكبر، ما يُحيلنا إلى قصّة السحرة التاويين القادرين على جعل أنفسهم أصغر من أن تمكن رؤيتهم بالعين المجردة.

هذا الإحساس باللانهاية يطالعنا كذلك عند الفنانين اليابانيين، حتى في أدقّ رسومهم. ثمة إشارة، هنا، والإشارة غير فيزيائية الطابع. لوحات صغيرة المقاسات لأنّ إيتيل، وبسبب وجع مزمن في الظهر، ما كان في استطاعتها الوقوف أمام حامل اللوحة. تضع القماش الصغيرة أمامها على الطاولة وترسم، تماماً مثلما تكتب.

تتحرك لوحة إيتيل عدنان في موقع آخر غير الذي تتحرك فيه أعمالها الأدبية، شعراً ونثراً. بينما يحضر لبنان الحرب الأهلية في روايتها «ست ماري روز» (١٩٧٧) أو في كتابها «يوم القيامة العربي» (١٩٨٩)، وبينما تحضر أحداث التاريخ المعاصر في شعرها، من فلسطين ولبنان إلى سورية والعراق، كاشفة عن وجه المبدعة الملتزمة، يغيب هذا المنحى بصورة عامة عن أعمالها الفنية.

يا عين



عندما ترسم، تنتصر لجانب آخر في نفسها، لوجه آخر من وجوها، هو الوجه الذي يلتفت إلى الطبيعة وعناصرها، الوجه الذي يُقبل بحبّ على العالم. «ربما يأخذ فتى صورة مختلفة لو كنتُ لا أكتب»، تقول في هذا الصدد إيتيل عدنان.

تقتضي الإشارة إلى أنّ التزامها القضايا العادلة لا يأتي على حساب القيمة الجمالية والفنية. هذا ما نتحسّسه في غالبية كتاباتها وأحاديثها، لا سيّما في تلك الرسائل الأشبه بالمناجاة، في كتابها «عن مدن ونساء/ رسائل إلى فوز» (١٩٩٨)، الذي تُزاوج فيه بين الذاتي والموضوعي من خلال سفر من نوع خاص في عوالم المرأة والمدن.

اتصلتُ بها صباح الأحد الماضي وأخبرتها أنني فرغتُ من قراءة ما كتبه عنها في صحيفة «لوموند» الناقد فيليب داجين. سألتني عما إذا كان قد أتى على ذكر عُمرها. ودون أن تنتظر الجواب، تساءلت، بالعربية هذه المرّة وبُكنتها الخاصة: «أنا شو خصّني بالعمرة؟» هذا صحيح. هي التي تعطي التسعين لا وقت لها لكي تكبر أو تشيخ. المنهمكة بمشاريعها الجديدة، ترسم كل يوم، وتكتب كل يوم. صحيح أنها تقول إنّ «الموت يختبئ وراء كل كلمة نكتبها»، لكنّها تنظر إلى العالم بصفته انتصاراً دائماً على الموت. «قد لا يكون ذلك على المستوى الفردي بل على مستوى الحياة ككلّ». تصمت قليلاً، تنظر حولها دون أن يحطّ نظرها على شيء محدّد، ثمّ تضيف: «لا يمكن أن نتفادى الموت والعدم. نظرة الإسلام والمسيحية الشرقية إلى هذا الموضوع لا تستميلني، فهي امتداد لتوجّه ديني فيما توجّهي الفكري ليس دينياً على الإطلاق. إنّ وعي حقيقة الموت والحقائق التي لا ندرك ماهيّتها وتعدّد السيطرة عليها، يدفعنا في اتجاه آخر. بقدر ما يكون الوعي حاداً يكون مأسوياً. أظنّ أنّنا كبشر سنختفي ونضمحلّ أما الكون فهو الذي يبقى».

لا أدري متى التقينا، إيتيل وأنا، أوّل مرّة. بعض اللقاءات سابق لأوان حدوثه وموجود حتى قبل أن يوجد. في باريس، جمّعنا البرهة الفاصلة بين أمكنة وأزمنة مختلفة: لبنان الحرب الأهلية، أميركا اللاتينية والولايات المتحدة. ونحن، هنا الآن، قُبالة حديقة «لوكسمبور»، نتابع عن بُعد أهوال الحروب المتواصلة، ونراقب، من حين إلى آخر، هدأة التماثيل وانسياب الوقت العابر.

كل الأعمال الفنية من
ص ١٣٦ - ١٤٥ صادرة عن
غاليري لولونغ | تصوير
فابريس جليبر، باستثناء حيث
يشار إلى ذلك.

❖ من دون عنوان، حبر صيني
على ورق، من الأعلى
إلى الأسفل
١٩٩١، ١٩٩١، ١٩٨٨

❖ من دون عنوان، ٢٠١٤،
زيت على قماش

شفاعة «تبكتو»

رشا السلطي

ناشطة فنية وكاتبة،
مبرجة لمهرجان تورنتو
الدولي للسينما،
لبنان.

كان الموقف مؤثراً.

اختنق المخرج الموريتاني - المالي عبد الرحمن سيساكو من الانفعال وهو يتحدث مع الصحفيين في مهرجان «كان»، وابتلع دموع الحزن الواضحة وهو يتناول قصة رجل وامرأة اتُهما بأنجاب الأطفال خارج إطار الزواج، فعوقبا بالرجم حتى الموت في تموز/ يوليو من العام ٢٠١٢ في واحدة من تلك المحاكمات الهزلية التي عقدها جهاديون متطرفون (من «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي») في بلدة أكويلهوك (بلدة صغيرة في شمالي مالي) بعدما سيطر هؤلاء على جزء من البلاد. لم تصل تقارير عن هذه الجريمة المروعة إلى الصحافة العالمية، فيما انتشر فيديو صوره منقذوها على الشبكة العنكبوتية بشكل واسع. لكن، ويا للسخرية، كان حدث آخر يستقطب الانتباه في ذلك اليوم، وهو إصدار نسخة جديدة من أحد الهواتف المشهورة. لقد دفعت هذه الجريمة البشعة وعدم اكتراث العالم بعبد الرحمن سيساكو لصنع فيلم «تبكتو».

فيلم «تبكتو» المقتبس من أحداث وأشخاص حقيقيين، دراما مؤلمة عن مدينة سيطر عليها متطرفون من ميليشيا أجنبية. ينسج الفيلم، وهو شاعري ومضيء بشكل بارز، قصص حياة ومقاومة لأشخاص عاديين تُركوا للدفاع عن أنفسهم.

يعيش كيدان (إبراهيم أحمد المعروف باسم بينو) في الكشبان خارج مدينة تبكتو مع زوجته صطيمة (تولو كيكي) وابنته توبا (ليلي والت محمد) وإيسان، الولد الذي تبناه ويبلغ من العمر ١٢ عاماً (مهدي محمد) الذي يرعى قطع العائلة. استطاعت العائلة تجنّب الضوابط الاجتماعية التقييدية والعنيفة التي فرضها حكام المدينة الجدد الذين منعوا الموسيقى والضحك وكرة القدم،

وتصدر محكمتهم أحكاماً مرعبة وعبثية كل يوم. خلال خلاف حول ذبيح بقرته المفضلة «جي بي أس»، يقتل كيدان عن طريق الخطأ صياد سمك، ويجد نفسه تحت رحمة «العدالة» المؤقتة للأصوليين. وأحدهم وهو ضابط رفيع يرغب بزوجة كيدان الجميلة صطيمة.

في تصوير ثابت من سفيان الفاني (الذي نال الثناء على عمله في فيلم عبد اللطيف كشيش «حياة أدبل») ومونتاج ماهر من ناديا بن رشيد (بامكو، في انتظار السعادة) وهي مساعدة سيساكو منذ وقت طويل، يجمع «تبكتو» بين الشاعرية التعبيرية والحدة الصارمة للفيلم الوثائقي. لا عواطف، ولا تلميع لصورة ما، ولا تصوير للغرائبية ولا حتى نشر مواعظ، فقط طبيعية مقلقة تعيد رسم البوصلة الوجودية (والأخلاقية) للطريقة التي نرى فيها - نحن العالم الآخر - أفريقيا، والجهاديين وكل المآسي التي يتسببون فيها. تم تصوير معظم الفيلم في موريتانيا لأسباب أمنية، عدا بعض اللقطات المصورة في مالي وفي ظل خطر داهم. تم اختيار فريق العمل (وهو خليط من محترفين ومبتدئين) في باريس بين المهاجرين الأفارقة، وفي المغرب تم اختيار ممثلين محترفين ولاجئيين في المخيمات في موريتانيا. إذ إنّ عبد المحمود شريف الذي يلعب دور الإمام ليس ممثلاً، بل إمام مسجّد حقيقي تأثر سيساكو كثيراً ببلاغته وحكمته.

قتل الجمال

في اللقطة الافتتاحية للفيلم، يعبر غزال برشاقة الصحراء. على خلفية صوت محرك سيارة، نسمع صوت رجل يقول بسادية إنه يجب إنهاء الحيوان قبل قتله. بعد لحظات، نسمع صوت طفلة ويقع الغزال أرضاً. تشكّل اللقطة استعارة لعقيدة الجهاديين: قتل أي شيء جميل بالمسدس، مع إفلات من العقاب بواسطة تبرير أخلاقي.



مع تقدّم الفيلم، يظهر الجهاديون على حقيقتهم، أي كميليشيا رثة من المرتزقة تم جمعهم عبر المنطقة. وللسخرية، فهم لا يستطيعون التواصل بعضهم مع بعض إلا بالإنكليزية، أي بلغة من يعتبرونهم «العدو». لا يبدو في أي وقت من الأوقات ورعين أو زاهدين في الحياة، ولا يبدو التزامهم بالجهاد لأسباب دينية بل يستخدمونه فقط لادّعاء تفوّق أخلاقي على مجتمع ذي تقليد طويل من الروحانية. يسعى أعضاء الميليشيا إلى السلطة والنساء والثروة، وكل ذلك بواسطة المسدس. وعلى عكس الأشخاص الذين انتصروا عليهم، فهم مدججون بالسلاح، يملكون هواتف نقالة حديثة جداً، وسيارات رباعية الدفع جديدة ودراجات نارية. كذلك يكشف الفيلم التناقض الأساسي في حقيقتهم، أي تلازم القيم الاجتماعية البالية والاستبدادية مع التقنيات الحديثة. نادراً ما جرى التعبير عن هذا التناقض بهذا الشكل البارح كما في «تبعكنو»، ولا انكشفت الهالة المخيفة المحيطة بالجهاديين على أنّها هالة ملفقة.

هذه السلالة الجديدة من الجهاديين («تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي»، أو «تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام») مثل سالفاتهم «تنظيم القاعدة» ظهرت في عدد كبير من الأفلام الأميركية والأوروبية منذ هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، في إنتاجات هوليوودية كبرى، وفي المسلسلات التلفزيونية تدور كلها حول الإرهاب العالمي والأمن القومي. في أسوأ تعبيراتهم، وأكثرها فجاجة، مثل الجهاديون الشرّ المطلق، مدفوعين بحقدهم الأعمى ضد الغرب (ما يعني كرههم للحرية والمساواة والعدالة، ولكن ليس لـ«تويتر» ولا للأسلحة الحديثة).

في أفضل تجلّياتهم، مثّلوا تفوّق نظريات تقول بأنّ التهميش واليأس يجعلان الشباب المعدم فريسة للتلاعب الشرير من قبل منظمة خبيثة ذات خطة للهلاك. في جانب آخر، قدم مخرجون من أفغانستان إلى المغرب شخصيات أقل كاريكاتورية تمثّل الإسلامي الجهادي. ولقد حاول أغلبهم تفسير الطريق الذي يدفع رجالاً ما للالتزام بإيديولوجية تقشفية ومريضة، مدّعين تصوير واقع أكثر حقيقة، من «داخل» هذه الثقافة. لكن للأسف، هؤلاء يعبّرون عن النظريات المنتشرة ذات سرديات تتحدث عن روابط سببية مباشرة. مثال على ذلك فيلم نبيل عيوش «يا خيل الله» (المغرب / فرنسا ٢٠١٢)

للعمل في السينما (ومنهم سليمان سيسييه) بوصفهم مخرجين أو مصورين أو مؤرخين من القارة الأفريقية. عاد إلى بلده الأم موريتانيا في العام ١٩٨٩، وهو يعيش منذ ذلك الحين متنقلاً بين مالي وإثيوبيا وموريتانيا والسنغال وفرنسا. ومع أنه ابتكر لغته السينمائية الذاتية بشكل مميز، لا يزال تأثير السينما السوفياتية يبدو واضحاً في أعماله، خصوصاً في شاعرية فيلم «تيمكتو» المشغولة بعناية. ثم إن القوة المدثرة للسخرية، وهي خاصية أخرى تميز أعماله، تعيد التذكير بالأفلام السوفياتية من السبعينيات والثمانينيات (خصوصاً تلك التي صنعها المخرجون الجورجيون).

عرضت كل أفلام سيساكو الروائية «في انتظار السعادة» (هيرماكونو، ٢٠٠٢) و«بامكو» (٢٠٠٦) و«تيمكتو» (٢٠١٤) في مهرجان «كان». في كاتالوغ الفيلم، يتحدث سيساكو عن شعور الإلحاح المكرب الذي اجتاحه حين شاهد شريط الجهاديين: «أكويلهوك ليست دمشق ولا هي طهران. لذلك لا أحد يتحدث عما حصل هناك. ما أكتبه هو أمر لا يحتمل، أعرف ذلك. أنا لا أحاول استخدام الصدمة للترويج للفيلم بأي شكل من الأشكال. لا يمكنني الادعاء بأنني لم أعلم بما حدث، واليوم بعدما علمت، عليّ أن أعد بأن لا طفل بعد الآن سوف يعرف أن أهله ماتوا لأنهم وقعوا في الحب». السينما لا تتغير الأخبار، ولا الصحافة تتغير. لا تفسر السينما الحقائق أو تعبر عن حالات الظلم. أحياناً تلقى السينما الضوء على ما قرر العالم عدم رؤيته، لكن حتى هذا الهدف النبيل لا يكفي لصناعة الفن. تمثل السينما وجودنا في العالم، أو جزءاً صغيراً منه، بكل تعقيداته الغامضة والحادة، خلال ساعة أو ساعتين من الوقت، أو أكثر بقليل، وتعيد لنا ثقتنا بالإنسانية عبر العدالة الشاعرية.

في إجابة عن السؤال الدائم «ماذا يمكن أن يفعل الفن في زمن الحروب؟»، يجسد فيلم «تيمكتو» الإنسانية الرحيمة التي يستطيع الفن وحده أن يميزها من فظائع العنف وظلامية الأصوليين.

الذي اعتمد على قصة حقيقية للشباب الانتحاريين الذين فجّروا أنفسهم في ملاء بالدار البيضاء في العام ٢٠٠٣. عاش الشباب الانتحاري في مدن الصفيح، وتربوا في عائلات مفككة جزئياً أو كلياً، وافتقدوا الحب والرعاية والمثل العليا في الحياة. لم يكن لديهم أي وسائل لتحقيق أحلامهم أو لعيش الحياة بكرامة، حتى التقوا «شيخاً» آمن لهم المال والأمان النفسي الذي سيعوا له، تحوّلوا إلى انتحاريين. لكن في الحياة الحقيقية، تخطت جاذبية السلفية الطبقات الاجتماعية الفقيرة، وانضم إليها أبناء الأغنياء والبرجوازيين.

عندما يتولّى الفيلم التعبير عن نظرية اجتماعية، فهو يخون الشكل الفني. لا يريد «تيمكتو» تفسير كيف أصبح الشباب مجموعة من المرتزقة، إنما عبر تصويرهم كشخصيات كاملة، هي في الوقت عينه واثقة من نفسها ومترددة، ومتغطرسة وخائفة، ومنضبطة وحائرة، وقاسية ومثيرة للشفقة، ينفذ سيساكو إنسانيتهم. في وقت يسأل فيه العالم بقلق عما يجب فعله مع هذه الكتائب من المقاتلين الذين تم تجنيدهم من كل دول العالم للقتال تحت راية أشدّ الإيديولوجيات عنفاً، فإن تصويرهم بشكل مختلف جذرياً يسلط الضوء على إنسانيتهم واقترافهم الأخطاء، ويغيّر شروط تخيل عالم الاحتمالات لما بعد الواقعة، أي بعد انتهاء الحرب وهزيمتهم. فهم سيهزمون، ليس بسبب التدخل العسكري من قبل الغرب، بل لأنّ هذا الكم الكبير من العنف غير ضروري لحكم الناس، ولا يجسد أي طموحات أو دعم من قبل المحكومين.

يبدع فيلم «تيمكتو» في سلسلة من اللوحات السينمائية تجسد مقاومة أشخاص عاديين للاستبداد بلا هوادة. تدمر آثار هذه اللحظات المصنوعة بعناية لفترات طويلة، في لحظة مميزة، يتحدى أطفال الحظر على كرة القدم، ويلعبون حفاة الأقدام بكرة متخيلة. في لحظة ثانية، يدخل إمام البلدة (عبد المحمود شريف) الحكيم والمتحدث اللبق، في نقاش مع قائد الجهاديين، فيتجلى صراع الحضارات الذي ضرب تيمكتو ومالي بشكل فج ومن دون أي تجميل.

«تيمكتو» هو الفيلم الروائي الثالث لعبد الرحمن سيساكو، أحد أشهر المخرجين الأفارقة. تخرّج من «معهد جيراسيموف السينمائي» الشهير في موسكو في الحقبة السوفياتية. درس سيساكو في أرفع مدرسة للسينما في موسكو، مثله مثل العديد من الطموحين

من أفلام عبد الرحمن سيساكو

- _____ اللعبة (فيلم قصير) ١٩٨٩
- _____ أكتوبر (فيلم قصير) ١٩٩٢
- _____ في انتظار السعادة ٢٠٠٢
- _____ بامكو ٢٠٠٦

أغاني الحب والحنين من الشعر العامي للأخوين رحباني

لشو الحكي؟

ولما اجتمعنا لحالنا
نسينا شو بدنا نقول

لشو الحكي؟
خلي النظر للنظر
يشرح هواه ويشتكى

لشو الحكي؟

عقاب

حاجي تعاتبني
يُست من العتاب
ومن كثر ما حَمَلتني
هـ القلب داب

حاجي تعاتبني
وإذا بَدَّك تروح
روح وأنا قلبي
تعود عالْعذاب

لشو الحكي؟
طال علينا قمر
خلي النظر للنظر
يشرح هواه ويشتكى

لشو الحكي؟
عند التلاقي سوا
أهل الغوى عالْهوى
يتفاهموا من غير حكي

بيني وبينك يا حلو
شو صار في حكايات
ما في كلام يساع
منقولها لفتات

لشو الحكي؟
عند التلاقي سوا
أهل الغوى عالْهوى
يتفاهموا من غير حكي

كنا نراسل بالوما
ونقول الشرح يطول

عَلَّمَتْ قَلْبِي مِنَ الطُّفُولِي عِ هَوَاكَ
وَمَا تَعَلَّمْتُ هِ الْعَيْنِ مَرَّةً إِلَّا عِ حِمَاكَ
اللَّهُ بِيَشْهَدُ مَا ضَحَكَتْ مَرَّةً لِسَوَاكَ
وَلَيْشْ بَتَضَلُّكَ تَفْتَحَلِي بَوَاب؟

عَايِشْهُ بَعِيدَهُ عَنِ لِيَالِي الصِّفَا
عِيشَتُهُ جَفَا وَبَحَكِي مَعَ النَّاسِ بِجَفَا
يَا هَلْ تَرَى مَشْ هَيْكَ بِيَكُونُ الْوَفَا
وَكَيْفَ بِيَكُونُ الْوَفَا اعْطِينِي جَوَاب؟

إِنْ كَانَ غَيْرُهُ هِ الْجِدَالُ وَهُوَ السَّكُوتُ
أَضْنَيْتَنِي، يَكْفِي بَقَا، يَرْحَمُ أَبُوكُ
وَإِنْ كَانَ غَيْرُ أَحْبَابٍ عَمَّ يَعْلَمُوكُ
اللَّهُ يَبَارِكْ لَكَ يَا وَلَفِي بِهَالْحَبَابِ

كُلُّ مَا عَمَّ زَيْدٌ بِحَبِّكَ وَلَوْعُ
كُلُّ مَا بَتَزِيدُ بَعَيْنِي الدَّمُوعُ
وَيَا لَيْتَ عَنْ حَبِّكَ الْمَضْنَى لِي رَجُوعُ
رَحْ تُهْرَبُ الْأَيَّامُ وَيَمُرُّ الشَّبَابُ

وَوَيْنَ بَتَلَاقِي مَتَلِ قَلْبِي قُلُوبُ
شَوْ صَارَ صَافِي لَكَ وَغَافِرَ لَكَ ذُنُوبُ
وَقَدِشْ عَنْ حَبِّكَ قَلْتَ بَكْرًا بَتُوبُ
مَا تَبِتَ يَا وَلَفِي وَلَا هَالْقَلْبُ تَابُ

رَاجِعِينَ

رَاجِعِينَ يَا هَوَى رَاجِعِينَ
يَا زَهْرَةَ الْمَسَاكِينِ
رَاجِعِينَ يَا هَوَى
عَلَى دَارِ الْهَوَى
عَلَى نَارِ الْهَوَى
رَاجِعِينَ

مَغْرُورَ يَا هَوَى يَا هَوَى مَغْرُورَ

يَا حَبِيبِي يَا وَرْدَةَ عَلَى سَوَرِ
نَحْنُ الْعَاشِقِينَ عَلَى طُولِ عَاشِقِينَ
وَإِنْتَوِ بِلِيَالِنَا عَايِشِينَ

مِنْ وَدَّعَ زَمَانَ مَنْرُوحَ لَزَمَانَ
يَتَسَانَا عَلَى أَرْضِ النِّسْيَانِ
مَنْقُولَ رَايِحِينَ مَنْصِيرَ رَاجِعِينَ
عَلَى دَارِ الْحُبِّ وَمَشْ عَارِفِينَ

رَاجِعِينَ يَا هَوَى رَاجِعِينَ

طَلَعَ الْقَمَرُ

طَلَعَ الْقَمَرُ غَفِي حَبِيبِي
غَابَ الْقَمَرُ وَعِي حَبِيبِي

جَلَيْتَ لِيَالِي السَّهَرِ
يَا لَلَّهِ يَغِيبُ الْقَمَرُ

نَحْنَا قَصْدُنَا الْهَوَى
وَأَنْكَبْنَا عِ دَمُوعَهُ
شَقِينَا وَسَهْرُنَا سَوَا
رَاحَ وَنَطَرْنَا رَجُوعَهُ

كُنَّا سَوَا نَلْتَقِي
وَمَا عَادَ سَوَا نَلْتَقِي
وَضَاعَ الْهَوَى وَمَا بَقِيَ
إِلَّا الْقَصَصُ وَالصُّورُ

بِأَخْرِ طَرِيقِ الْمَسَا
فِي شَجَرَةِ لَيْلِكَيْتِي
يَا عَمْرَ مَا بِيَنْتَسَى

يا حبيبي تعا تنروح قبل الوقت وقبل الحب
بديت القصة تحت الشتي
بأول شتي حبّوا بعض
وخلصت القصة بتاني شتي
تحت الشتي تركوا بعض

حبّوا بعض تركوا بعض

يا حبيبي شو نفع البكي
شو إلو معنى بعد الحكي
ما زالا قصص كبير
وليالي سهر وغيري
بتخلص بكلمي زغيري

حبّوا بعض تركوا بعض

وكانت القصة تحت الشتي
بأول شتي حبّوا بعض
وخلصت القصة بتاني شتي
تحت الشتي تركوا بعض

حبّوا بعض تركوا بعض

ما في حدا

ما في حدا لا تندهي ما في حدا
عتم وطريق و طير طاير ع الهدا
بابهن مسكر والعشب غطى الدراج
شو قولكن صاروا صدى؟
ما في حدا

مع مين بدك ترجعي بعتم الطريق
لا شاعلة نارهم و لا عندك رفيق
يا ريت ضوينا القنديل العتيق

ضلك فايق علي
يبقى لنا وشو لنا
غير التعب شو لنا
غصن المحبه انحنى
وتغاوى لون الشجر

حليت ليالي السهر
يالله يغيب القمر

ياريت

يا ريت إنت وأنا بالبيت
شي بيت ابعد بيت
ممحي ورا حدود العتم والريح
والثلج نازل بالدني تجريح

يضيع طريقك ماتعود تفل
وتضل حدّي تضل
يزهر ويدبل ألف موسم فل
وتضل

ما يضل بالقنديل نقطة زيت
ياريت

حبّوا بعض

بيقولوا الحب بيقتل الوقت
ويقولوا الوقت بيقتل الحب

لا إنت حبيبي

بالقنطرة
يمكن حدا
كان اهتدى
وما في حدا

لا إنت حبيبي
ولا ربينا سوا
قصتنا الغريبي
شَّلْعها الهوا
وصرت عنك غريبي
إنساني يا حبيبي

مبارح التقينا
برد وحوالينا
خرَّقنا الصور
ردَّيت له مكاتيبه
قعدنا ع حجر
عريان الشجر
ومحينا القمر
وردة لي مكاتيبه

كل مين طوى شراعه
وَلَدَيْن وضاعوا
تفارقنا بهذا
بخاطرِك، صल्ली لي
تَسْعُد، يا حبيبي
وراح بها المدى
ع جسر الصدى
والدني هدا

قد يش كان في ناس

قد يش كان في ناس
ع المفروق تنظر ناس
وتشتي الدني ويحملوا شمسية
وأنا بإيام الصحو ما حدا نظرنى

صار لي شي مئة سني مشلوح بهالدگان
ضجرت مني الحيطان
ومستحيي تقول

أنا عندي حنين

أنا عندي حنين ما يعرف لمين
ليللي بيخطفني من بين السرهانيين
بيصير يمَشِيني لبعيد يودِيني
ت أعرف لمين وما بعرف لمين

عدَّيت الأسامي ومَحَّيت الأسامي
ونامي يا عينيّ نامي إذا راح فيكي تنامي
وبعد هالحنين من خلف الحنين
ت أعرف لمين وما بعرف لمين

أنا خوفي يا حبي تكون بعدك حبي
ومتهياً لي نَسِيتك وإنت مخباً بقلبي
ويتودّي الحنين ليلي الحنين
يشْلَحني بالمنفى بعيونك الحلوين
ت أعرف لمين وما بعرف لمين

طريق النحل

وأنا عيني عالحلا والحلا ع الطرقان
غني له غنيات وهو بحالو مشغول

نطرت مواعيد الارض وما حدا نطرنى

انت وانا يا ما نبقى
وعلى خط السما الزرقا
انا ومتكية ع بابي
غلت بزهور الغابي
وتعن العنين
بسكوت الضهرية

نوقف على حدود السهل
مرسومي طريق النحل
مرقت نحلة بكير
وصارت تعمل مشاوير
حزين ومش حزين
مكسر الحنين

بيقولوا

بيقولوا الحب ييقتل الوقت
يا حبيبي تعا لنروح
وبيقولوا الوقت ييقتل الحب
قبل الوقت وقبل الحب
إذا راح تهجرني، حبيبي
وراح تنساني حبيبي
ضل تذكرني وتذكر طريق النحل

طريق النحل الطاير
بيصير يرسم دوالي
من فوق القصور
أعلى من القباب العالي

فوق الضو المكسور
يكتب ع الهوا سطور
أعلى من القصور
عم يكتب سطور

دبنا وما تبنا

بذيت القصة تحت الشتي
بأول شتي حبوا بعض
وخلصت القصة تحت الشتي
تحت الشتي تركوا بعض
حبوا بعض تركوا بعض

يا حبيبي شو نفع البكي؟
شو إلو معنى بعد الحكي؟
ما زال قصص كبيرى
وليالى سهر وغيرى
بتخلص بكلمة زغيرى

حبوا بعض تركوا بعض

دبنا وما تبنا ولا من الهوى تعبنا
بعدا منازلنا ملفى حبايبنا

دبنا وما تبنا
وبعدا رياح الحب

والهجر تعبنا
عم بتسوق مركبنا

من غير حبك شو الغنيات
شو الليل شو الوادي شو الأشعار؟
من غير حبك ما لنا ساعات
غصة غنية بأجمل التذكار
دبنا وما تبنا
تفنى الدني ما دام بعده الحلو حبايبنا

وصوب الضنا قربنا

توفيق الباشا الإفتتان بالموشحات

أكرم الرئيس

باحث في أنثروبولوجيا
الفنون، لبنان.

تخصص مجلة «بدايات» هذا الملف لأحد رواد العمل الفني النهضوي والحداثي في بلادنا توفيق الباشا، المؤلف الموسيقي والمبايسترو المتعدد الروافد والعطاءات. وبما أن التأسيس يتطلب جهوداً على مستويات مختلفة، كان الباشا مشاركاً فاعلاً في إطلاق حركة موسيقية طليعية تلاقي تطلعات جيل الحداثة والبناء. تشعبت عطاءاته في الإدارة والتخطيط في الدائرة الموسيقية للإذاعة اللبنانية، والبحث والتعليم في المعهد الموسيقي الوطني، وفي قيادة أوركسترا المهرجانات والتسجيلات المتقنة، وفي المشاركة في المنابر العلمية الموسيقية المحلية والإقليمية. توجه توفيق الباشا في مرحلة مبكرة نسبياً من تاريخنا الفني الحديث إلى التأليف الموسيقي، رغم غياب المتطلبات التقنية والمؤسسات الداعمة لتنفيذ هذا النوع من الأعمال وتأمين استمراريته، ولابتعاد الذائقة العامة عن الموسيقى غير المقترنة بالكلام والغناء والمغنين، كما تبين مقالة محمد كريم.

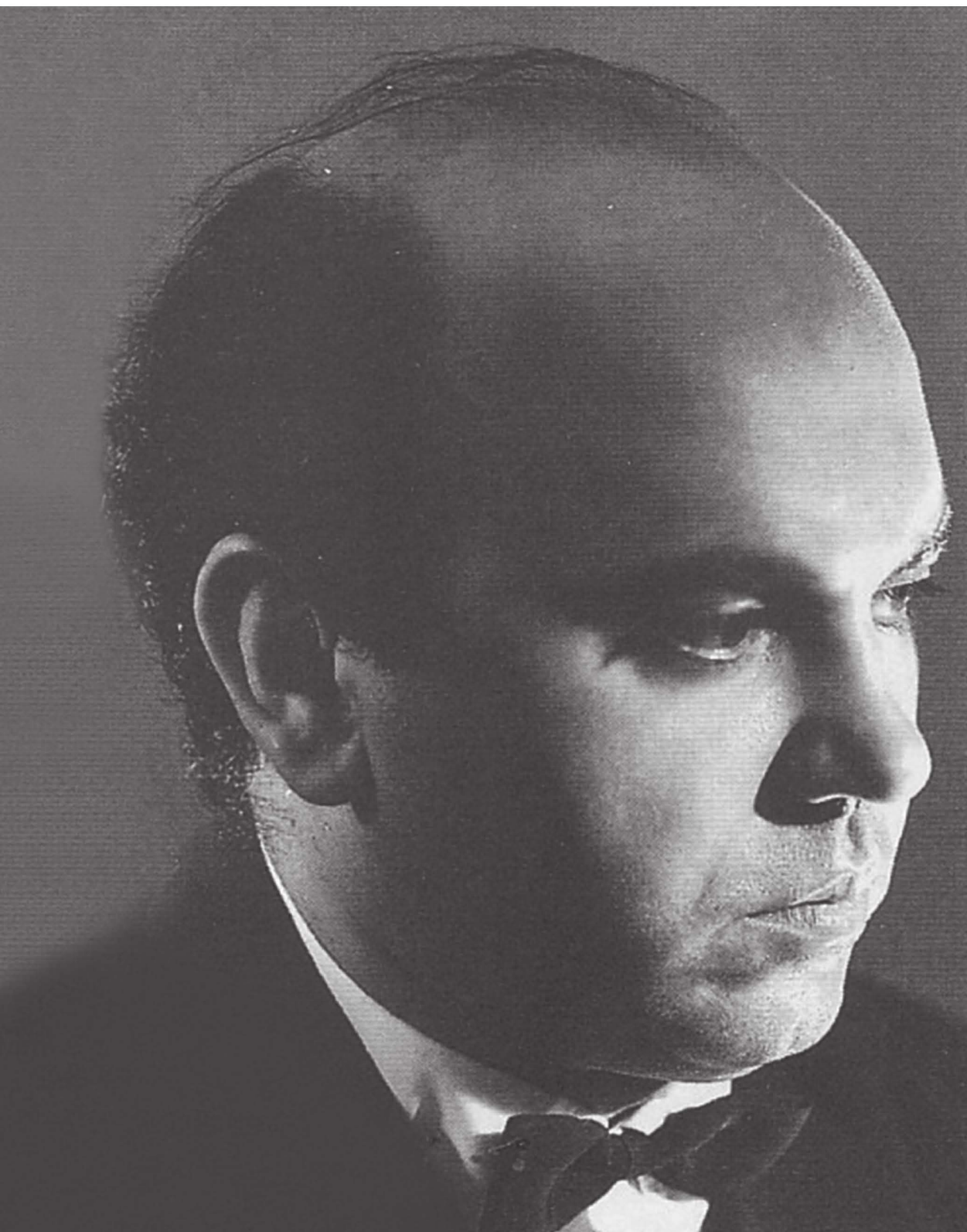
افتتن الباشا بالموشحات إلى أن أصبحت فردوسه ومعجازه حتى في التأليف الموسيقية والأعمال ذات الطابع الروحاني. أولى الباشا اهتماماً خاصاً بالابتهالات والإنشادات مستحدثاً الإنشادية الدينية الشرقية للأوركسترا السيمفونية والجوقة، والتي تتناولها سمر محمد سلمان في مقالها التحليلية عن «الإنشادية النبوية» و«منهل الإيمان».

كتب الباشا في تقديم أسطوانة الابتهالات عن دوافع خوضه هذا المضمار فيقول:

«طالما افتقدنا في موسيقانا الشرقية - العربية الكبيرة هذا النوع من التأليف الموسيقي الديني الدرامي، علماً أن كثيراً من أدبائنا ومفكرينا قد أنشأوا أعمالاً تتراوح بين المأثور من الأدبيات الدينية، والتأليف الأدبي الفني، في حادثة علمية قدّمت للإيمان ما يستحقه من تكريم والتزام».

لهذه الأسباب وغيرها نعود إلى توفيق الباشا في ذكرى رحيله العاشرة، وما الذكرى إلا رحلة نعبّر فيها إلى عالم الباشا الإبداعي.

ندعو من خلال هذه الذكرى المؤسسات الإعلامية والعلمية والمهرجانات الفنية إلى الاحتفال بأحد الأعلام والمراجع الموسيقية عبر توثيق أعماله ونشرها والتعريف عنها في الإذاعات، والبرامج التلفزيونية، والحلقات الدراسية المتخصصة، وحفلات المعهد الموسيقي الوطني، والمهرجانات الكبرى.



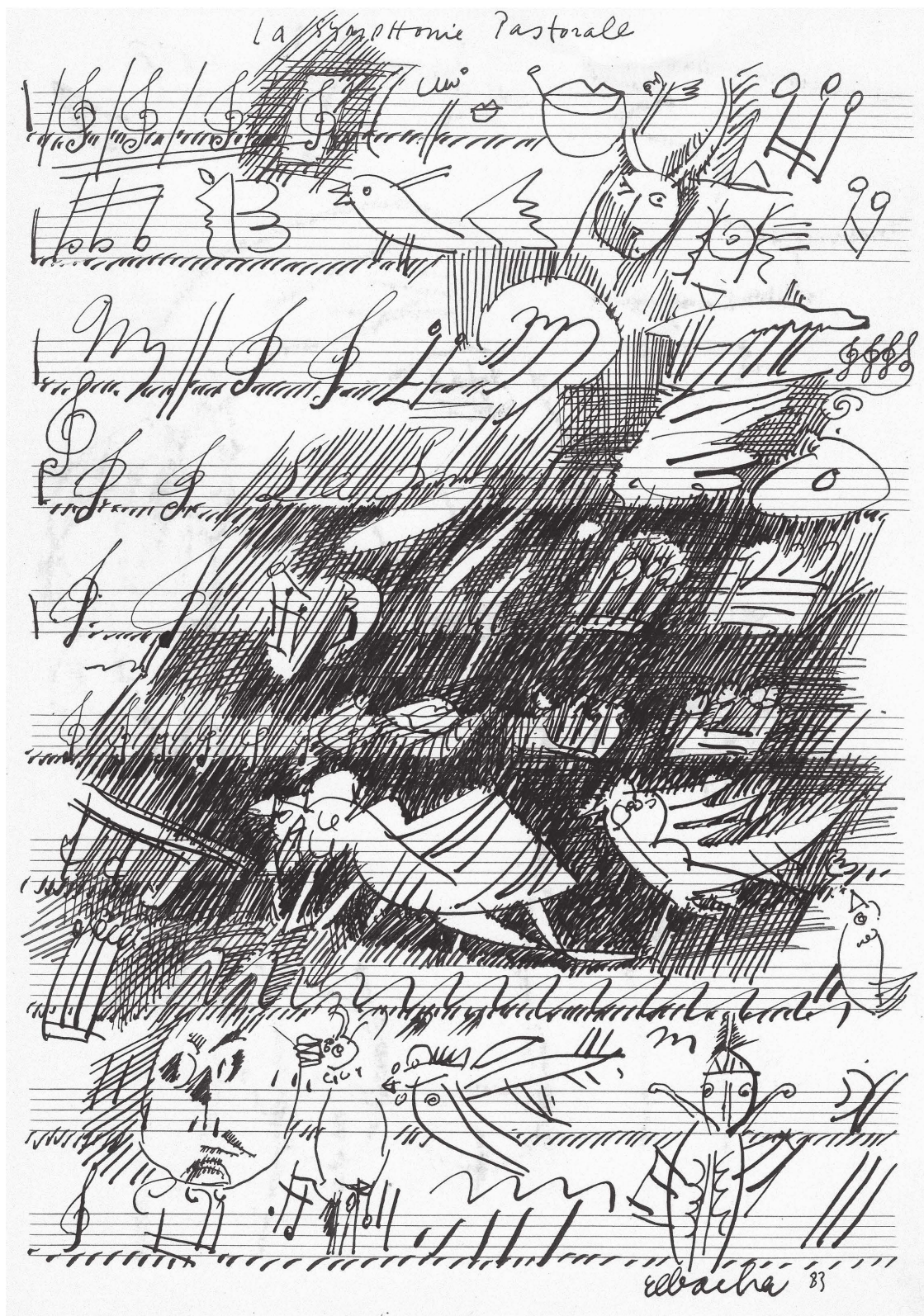
توفيق الموسيقى

عبيدو باشا

كاتب ومخرج تلفزيوني
وناقد مسرحي.
من أعماله
«بيت النار. الزمن
الضائع في المسرح
اللبناني» (١٩٩٥)
و«هكذا. انقلاب
التغيير على ابطال
التغيير في المسرح»
(٢٠١٠).

توفيق الباشا هناك الأخوين عاصي ومنصور الرحباني وزكي ناصيف وعبد الغني شعبان وفيروز ونزار ميقاتي. الكثير من الأسماء والفعاليات. تشغيل نظام تيسير السلوك: ذاك هدف الجماعة والمهرجان. لم يلبث المهرجان أن تخلّى عن طابعه وهو ينتقل بإدارته من مواقع الهجوم إلى مواقع الدفاع. لا بطل منقذاً في تلك المرحلة. الكل أبطال. اتهم الرجال بعضهم بانتزاع السمعة بهدف لصق فكرة تعمير البنية التحتية بأسماء دون الأسماء الأخرى. روى زكي ناصيف في واحدة من جلساتنا أن منصور الرحباني اعتاد أن يفلش عند كل ظهيرة أوراق الآخرين الموسيقية لاخترال نصوص هؤلاء في نصوص الأخوين رحباني الموسيقية. دوائر القرب والبعد كثيرة بين الفنانين اللبنانيين. هي وهلات التحول الثقافي البنيوي في مهرجانات بعلبك الدولية. السلطة هي المعيار عند الكثير من الفنانين والمبدعين اللبنانيين. عند توفيق الموسيقى هي كل الدلالات والتأثيرات من مفهوم الحرية. حرية الفرد ونأيه عن السلطة. لم يشغل توفيق الباشا كبنية فوقية، اشغل كما تشغل المنارات الموجهة. عنيف وشرس في المجال هذا لأنه ما رغب بأن تريح أنظمة الاستبداد جولة عليه ولا على الآخرين. عمل الرجل على إيقاف أنظمة الرضوخ والتجنب وآليات الاحتماء بالآخر. لعب دوره هذا في الإذاعة اللبنانية حين بان مقامه البارز في اللجنة المتخصصة باختيار الأصوات والأغنيات. كذلك عمل على مقارعة نظم القيم الموجهة للرؤية والفكر. بدا ذلك جلياً حين وجد في ما قالته السيدة أم كلثوم، أيام عزّها وجبروتها، عن البشرف والتحميلة ما يحدد خياراتها وممارساتها لا انتشار البشرف والتحميلة الموسيقيين بحركة تاريخية بدت قابلة للإجهاز عليهما بتحويل

ندر أن اشتغل توفيق الباشا على شيء شكلي. لم تكن له الشكليات شيئاً حين غاص في التحولات الاجتماعية عبر الفن والثقافة. لا علاقة لما أنجزه بالسياسة لأنه لم يرتض يوماً من الأيام دور التابع ولا المواكب. يُروى أنه ناضل في الحزب السوري القومي الاجتماعي. انتسب إليه لفترة قصيرة، ثم لم يلبث أن غادر أطره ونظمه لأنه آمن بأن قيام ديمقراطية أصيلة صعب جداً، إذا اقتصر الطلب على المطالبة السياسية بعيداً من الديمقراطية المجتمعية، لأن السياسة لا تفعل إلا ترسيخ العلاقات البطريركية في النسيج الاجتماعي، ما يفقدها فاعليتها ويُفقد النسيج الاجتماعي فاعليته. آمن بالتحوّلات الثقافية، لأنه آمن بأن الإيمان به سوف يؤسس ما يرغب بتأسيسه والآخرين. انتمأه إلى الحزب انتماء تنويري، على استثمار طاقات الحياة ومرجعياتها الفاعلة. هكذا ابتعد عن العلاقات العمودية والفوقية إلى العلاقات الأفقية التشاركية في حالة من المساواة بين المبدع والمبدع. وهكذا ساهم مساهمة بعيدة عن أخلاق الطاعة بتأسيس مهرجانات بعلبك الدولية، الداعية إلى فتح السبل أمام اللبنانيين. إنه واحد من ثلة رغبت، مع رئيس الجمهورية آنذاك كميل شمعون وزوجته السيدة زلفا مؤسسة المهرجان، بإطلاق الطاقات الحية لدى اللبنانيين، ما ابتعدت عنه اللجان اللاحقة لا من موقع تحرير الإدارات بل من موقع الانحياز غير المقصود على الأرجح من الإنتاج إلى الاستهلاك. لقاء الرعاية والحماية في مهرجانات بعلبك أفضى إلى قيام تجربة المسرح في لبنان مع منير أبو دبس وفرقة «المسرح الحديث». نظرة الجماعة إلى ذاتها، حددت في مفاعيلها الأدوار والممارسات. لا مهرجانات إلا لغاية تكريس «الليالي اللبنانية» بدورات المهرجان العالمي. التقى



❖ كل الرسوم للفنان
أمين الباشا

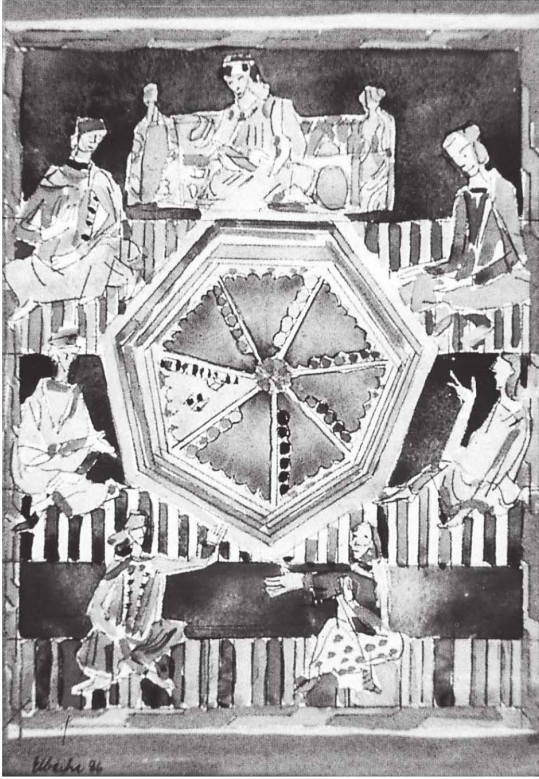
والإقدام ما دام لا يهتم إيثار السلامة حتى في أكثر اللحظات عقلانية واعتدالاً. ثورة وتعبئة وحشد كمن طويلاً حتى تسنح له فرصة العمل على «الأوراتوريو» في مذهب التعبير عن الإحساس بالكيان الحي والحضور المؤكد لذاته. الأوراتوريو لا يلغي الآخر، بل ينشط حضوره بالقوى الذاتية الخاصة بالاثنين. كائنات حيّان يساهم كل واحد في إطلاق القوة الفردية لكل منهما ويعززهما. أبرز اللحظات ذات الزخم التاريخي في حياته لحظات لقائه بالسيدة كوك. سيدة أميركية أذهلتها القدرات الخلاقة للموسيقى اللبناني العربي، مما حولها إلى سيدة قدمت خبزها إلى خبز الموسيقى لبناء كيان غير مهدور يدور حول حياة النبي العربي محمد. أوراتوريو أمسي غوذجاً سارع الجميع إلى التعلم منه، لا بداعي الحرمان، بل بداعي الثراء، وبداعي إشعال النار ومراكمة جحيمها الكياني.

الكيان المهدور

أبى توفيق الباشا أن يقتل دوراً ومكانة. استفاد من كل الأدوار والمكانات بدنياميكية شاب جسدها رجل لم بين صلة بالاحتقان ولا بالردود السلبية على القهر والهدر والمهانة والحرمان. طارت «محمد» فوق الكثير من أساليب الحرب عليها. طارت فوق البلدان بحشودها الغنائية والموسيقية الراقصة. استرداد وجود لا علاقة له برضاة التسلية ولا بابتداع التقنيات على حاجات المال الوفير. تجربة ضد التهميش والإقصاء لم تلبث أن وقعت بالتهميش والإقصاء، حين لم يجدها باحث نادر إلا خلف جدران التعقيم. لم يتوسلها أحد، ولم يسمعها من أسلم زمام القيادة فرحاً مستبشراً باقتراب فجر جديد. لم يستفد من فاعليتها بدفعها بعيداً عن تأزيل وجودها. تم قتلها بالتجهيل. هي كيان مهدور. لا غرابة بميدان اتسم أبطاله بصفات القتل وفرض الرضوخ. هذا مشهد يتكرر في الكثير من الأحيان لأن تقنيات الإعلام الاجتماعي تسود لبنان، وليس الإعلام النقدي المفصح والفاضح والمكرّس. بناء ذكاء اجتماعي في الأوراتوريو ذي النزعة المقاتلة للمتعة والتسلية وحدهما وحب الظهور. لا بروز ولا مباهاة في حياة المايسترو الباشا. توفيق الموسيقى. اختزل توفقه قواعد الكبار في قواعده بدون أن يعطل طاقات هؤلاء. ضد الطفيلية والطفيليين. ضد انعدام الجدية والمسؤولية. هكذا قرأ في المنجز العام الجديد. هكذا قرأ في تجربة الأغنية السياسية. هكذا قدّم

المصدر من مصدر إلى آخر. وجدتهما تركيين. صحح لها إذ حاججها على صفحات صحف تلك الأيام ومجلاتها مؤكداً أنهما من نتاج غناء الموسيقى العربية في فضاءات قيادة الثورة على المعادلات الجامعة القديمة بصالح المعادلات الجامعة الجديدة. لم يرفع جدار خوف أمامه وأمام الآخرين في القضايا الخاصة بصناعة المصير. تلك جملة ما أطلقها دهماء. تلك جملة وقفت باستمرار على معادلة الحياة والموت. لم يمزح وكان فائق الغنى والعمق أمام فكرة استرداد الحق بالكلام والفعل. كسر الصمت أولاً، ثم قاتل كل أشكال الموت الوجودي الطائرة في الفضاءات العربية. لم يهدر وجوده في جلسة أو مناسبة. لم يهدر وجود الآخرين حين لم يقبل بهم لا تلاميذ ولا مرّدين. لم يهدر ما ربّاه عليه الآباء من قيم. لذا عبّر عن ذاته وذات الكثيرين حين رفض بعنف كل ما هدد وجود الموسيقى العربية كموسيقى مؤلفات وموسيقى مؤلفة. عنده هناك حق قول وتجمع وفعل بشرط ألا يمنع حق القول القول الآخر، ألا يطمس القول الحقيقة ولا الحقائق. لا حاكم ولا محكوم في ما أراده وابتغاه. غير أن معادلة الكلام على الموسيقى العربية هي ترويج كلام على موت سريري لها، باتهامها بأنها موسيقى ارتجال. موسيقى ارتجال لا فقط لا غير. كلام لم يستسغه رجل المؤلفات الموسيقية البعيدة عن سلطات الاستبداد العثماني والأوروبي والأميركي سواء بسواء.

عملت أنظمة الاستبداد هذه على تحويل الكيانات الوطنية إلى مجرد ملكيات خاصة. استعادة ملكية الحيز العام من وظائف أبرز من اشتغل على الموشحات العربية وأبرز من قاد أوركسترا. لا استكانة ولا رضوخ لقدرة مفروض. توفيق الباشا واحد من القواسم المشتركة بين الناس والجمهور والموسيقى العربية. لم يأنس إلى التخويف والإرهاب المزمّن من مؤسسات أجنبية، حرصت باستمرار على تصوير الموسيقى العربية كموسيقى استعصى التأليف عليها، وهي تدوين ارتجاليات وتنويطها لا أكثر. لا نظام حياة حيوي في ذلك. حالة كمون تعطف على حالات الكمون الأخرى. هذا رجل جهاز ميسر للسلوك الرابط بين تفعيل طاقات الحياة وبين النماء والتوسع والتمدد والإقدام والمغامرة والمواجهة. لا نزوات عند توفيق الباشا إلا على صعيد أغنية أو مؤلف موسيقي. رجل نشاط عصبي موصل لحالات الحماسة والنشوة والشعور بالتوسع والقدرة



الغذاء للتجارب الجديدة، في الميادين الجديدة. مشهد لم يلبث أن تكرر في الكثير من المناسبات. كل جدير يقرأ، أهدى إلى المعرفة وسط الشريحة الجديدة، إذ لم يضعها في استراتيجيات الإلهاء وتسطيح الوعي. وصل أجزاء الأغنية الجديدة بأجزاء الأغنية الجديدة في فرنسا. أغنية ماتيو وفيرا وفيرا وجاك بريل وآخرين. تجربة اندفاع وعطاء وبذل وتضحية بابتكارات جديدة بنت حضورها على القدرات الصوتية لا على جمال الأصوات. لا اغتصاباً ولا سلب وجود. تدوير حضور على القدرات الصوتية لهؤلاء. لا جمال أصوات كما هي في الواقع والمخيل الثقافي حضور شرطي على نواة الكيان. لا أصوات جميلة لدى أحمد قعبور ومارسيل خليفة وخالد الهبر وأعضاء الكورس الشعبي وغير هؤلاء من العاملين في تجربة الأغنية السياسية. الأغنية ميدان، وإنتاج الحياة الثقافية على الحيز العام المصادر من قوى الاستبداد منذ أزمنة. تجريد حضور الصوت من المقومات خرق المحرم ليس انتحاراً. الانتحار باعتبار الأغنية السياسية هي الأغنية الجديدة في سماء الحرب الأهلية المتجددة في لبنان. تفرغ الأغنية بالتمسك بالفنعة كان اعتبارها حلقة ثقافية، وحلقة فنية مستقلة.



موسيقي، ومؤلف، وناقد، ومتابع، وقارئ ضد الخصاء الوجودي. لن يطرده أحد من أي استحقاق. ابن المولد العظيم في خمسينيات القرن العشرين، مَيَز بين التخريب والتحطيم والشغب والتنوير والتثوير. دفع بيدين عاريتين كل الدخلاء على الحيز، ودافع أمام كل موضع شك عن كل مطرود من استحقاق التواجد بالمجال العام في حيز المدينة. غدرت المدينة ابن المدينة. غدرت المدينة ابنها. غدرت بمن دعا إلى مقاربات جديدة تتصف بالانفتاح الفكري واليقظة الذهنية حين تركته وحيداً على وسادة باردة في أحد مستشفياتها، يؤدي سلسلة كبرى من التذكرات والابتهالات. هناك خلقت روحه كفراشة، بعيداً عن الهواء العكر. هناك فارق جسده رأسه. مات الجسد. جسد ألفناه، في حين أضحي الرأس بيتاً على جرف على ماء بحر.

لم يضع توفيق الباشا رحماته وأعماله وذكرياته في حقبة حين أغلق عينيه على شباك محفور على جدار بلا شروخ. مات توفيق الباشا وهو يتأفف من الإضاءة السيئة البيضاء المعتمة. وجد على مقعد قطار فضائي يلوح لبلاد تكثر فيها الطواير المكروهة.

توفيق الباشا والإنشادية الدينية المشرقية

سمر محمد سلمان

صحافية وناقدة
موسيقية.

فقد تحسّس مبكراً مآلات الحركة الموسيقية العربية التي لم تعرف إضافات كبرى حقيقية بعد جيل الرواد ومن تلاهم من جيل الوسط في الخمسينيات والستينيات. وقد اتّضح منحى الانحدار في مسارها في النصف الثاني من السبعينيات إلى يومنا هذا. ونعني بالانحدار هنا العجز عن مواصلة ما بدأه الرواد في خط تصاعدي تطويري من خلال توسيع آفاق الألوان التعبيرية والدرامية، وإحداث التوازن بين الثوابت المميزة لهويتنا الموسيقية والعناصر القابلة للتحويل للانطلاق إلى بناء خطاب موسيقي معاصر يتصل بالتغيرات الثقافية والاجتماعية. فعلى الرغم من مواكبة الموسيقى العربية للتحوّلات التكنولوجية الكبرى، لم يحدث بالمقابل تحولات فكرية وجمالية وفنية ذات قيمة، وبدلاً من الانفتاح بشكل تفاعلي حضاري على الثقافات الأخرى، حلّت التبعية لهذه الثقافات وتم تهميش الثقافة الأصيلة عموماً.

هذا بالضبط ما حاول توفيق الباشا تجنّبه، ونجح مبكراً في محاولاته إلى حد كبير، فقدّم لنا أعمالاً متطورة من نسيج هويتنا الثقافية الموسيقية. غير أن الجهد ظل في إطار نخبوي لم يستطع أن يُحدث اختراقاً في الذوق العام نتيجة إحصام الدولة ومؤسسات الرعاية الإنتاجية والإعلامية عن احتضان هذا الجهد والإخفاق في الارتقاء بمستوى التذوّق الفني للعامة، سواء في لبنان أو في الوطن العربي عموماً، لا سيما في منتصف السبعينيات وما بعدها، حيث طغت ثقافة الاستهلاك والانفتاح العشوائي على كل ما يأتي به الغرب من ثقافة وفن، باستثناء بعض المحاولات الفردية المتناثرة هنا وهناك.

قدّم توفيق الباشا جميع الألوان الغنائية والموسيقية من الطقطوقة إلى السيمفونية، مروراً بالموثّحات والبرامج الغنائية الإذاعية، وتصدّى للتراث الشعري

يعتبر توفيق الباشا أحد أعمدة النهضة الموسيقية اللبنانية والعربية. لم يكن مجرد فنان أدائه الموسيقي وحرفته التلحين، بل هو مفكر موسيقي وصاحب مشروع فني حقيقي يسير في خطين متوازيين: إحياء التراث الأدبي العربي وإخضاعه للتجريب الموسيقي بما يليق به ويساعد على خلوده، وإحداث نقلة نوعية في الموسيقى العربية عامة، واللبنانية على وجه الخصوص، لانتشالها من محليتها وقوابلها التقليدية إلى ما هو أبعد من الطقطوقة والفولكلور، مما يمكنها من تجاوز غاياتها المتمثلة في التطريب إلى أبعاد أكثر عمقاً للتعبير عن أفكار ورؤى. فلبنان الصغير الذي أثار الكون بأبجديته البكر، تليق به موسيقى ليست أقل إنارة وانفتاحاً وقدرة على الوصول إلى آفاق أرحب. لذلك حاول توفيق الباشا الانعتاق من أحادية المنظور الأسلوبي المتمثل في سطوة الغناء الفردي المهيمن على الفن اللبناني والعربي إلى رحاب الموسيقى المحضّة، والتوسع في توظيف الجوقة توظيفاً درامياً بحيث تتعدد الأصوات في النص الموسيقي من خلال البوليفونية التي تتيح خلق علاقات متشابكة وتوترات عدّة في البنية الموسيقية.

معادلة مشرقية بأدوات غربية

كان توفيق الباشا من أوائل الذين قدموا الإنشاد الديني المشرقي و«الإسلامي» في لبنان وأحد الرواد المؤسسين لنهضة الموسيقى العربية واللبنانية عبر معادلة موسيقية مشرقية الروح والطابع والهوية، لكن بأدوات وآليات غربية تمنحها أبعاداً إنسانية شاملة تتفق مع ماهية الفن الموسيقي الذي هو في الأصل عابر للهويات والجنسيات. كان يجهد منذ البداية حتى النهاية في منح الموسيقى العربية استمرارية وتطوراً يقينها الاندثار والانحدار،

العربي وساهم في إحيائه مانحاً الفصحى حياة فوق حياة. من هذه الزاوية بالذات يمكننا أن نقول إنه سار على خطى السنباطي في تعزيز مكانة القصيدة العربية، وإن اختلفت رؤاه الموسيقية التلحينية في هذا المجال، فقد خرج في بعض مؤلفاته على التلحين التقليدي العمودي للقصيدة، وتفادى الخضوع المباشر للنص الشعري عبر استلهاهم الأساليب الغربية، والتوزيع الموسيقي الأوركستراي، والتوسع في وظيفة الآلات

إن الداخل إلى عالم توفيق الباشا الإنشادي كمن يفتح مصراعين على المدى. صحاري وحدائق معلقة تتناثر فوق سندسها صوامع الوصل بين الأرض والسماء. قباباً تلمحها من بعيد تختلط عليك هويتها. أمساجد هي أم كنائس.

الموسيقية ووظيفة الجوقة، بحيث لم تعد القصيدة الدينية مجرد مناجاة فردية، بل غدت حالة جماعية أو طقساً دينياً تؤدّيه الجوقة وفق رؤية موسيقية علمية منهجية من خلال بُعد فلسفي ولغة موسيقية راقية تستدعي التأمل والتفكير. ربما من أجل هذا هجر عازف التشيللو توفيق الباشا آلتة الأثرية إلى فضاءات الأوركسترا بكل عدّتها وعديدها، وانصرف عن الآريا بمواصفاتها التقليدية إلى الموسيقى المحضة التي وجد فيها مرآة روحه وجموح خياله، ليعبر عن القيم المشتركة بين بني البشر تحقيقاً لمشروع آمن به. هجر التشيللو لكن التشيللو لم تهجره، وظلت ملامحها وصفاتها التعبيرية التي تمنح المقطوعة الموسيقية بُعداً حانياً سمّته الحزن القدري الكامن المستقرّ في أعماق الإنسان مطبوعة على صفحات فنه الراقي، فبدا في جميع حالاته الموسيقية كآلة التشيللو محافظاً على جلاله ووقاره يسير على درب الحكمة التي لا تخلو من جمال وألق. بقاء موسيقي هو، مغوله النغم، يوظف كل مقام في موضعه وكل آلة وفق أصالتها التعبيرية، لا يغويه النافر والغريب، بل الجديد والمتطور المنبثق من نسيج الروح المشرقية والمنفتح على الثقافات الأخرى، شديد الانضباط لا يحيد عن الطريق الموسيقي الذي اختطه لنفسه ويجهد في التعبير عن المشاعر الإنسانية باحترام. هكذا هو الموسيقار توفيق الباشا: عاشق وقور لا يقارب الوله، صبّ هو لا تفضحه عيون.

الإنشاد الديني هو جديده الحقيقي إن الداخل إلى عالم توفيق الباشا الإنشادي كمن يفتح مصراعين على المدى. صحاري وحدائق معلقة تتناثر فوق سندسها صوامع الوصل بين الأرض والسماء، قباباً تلمحها من بعيد تختلط عليك هويتها، أمساجد هي أم كنائس؟ حتى إذا دنوت منها عرفتتها. يغريك تمام التكوين بالدخول إلى حضنها للصلاة والمناجاة والجلوس في رحابها حيث يختلط الديني بالديني، والمادي بالروحي في مشهد إنشادي مترامي الأطراف تحمله إلى عينيك لغة موسيقية أبت إلا أن تكون وثبة جريئة فوق وشم الكلمة وسلطانها، فما حاجتها إليها وفي النغم العاري كل أبجديات العالم؟

هكذا حاول أن ينحّي الكلمة ويحدّ من طغيان اللغة اللفظية لصالح اللغة الموسيقية، كما في عمله الكبير «الإنشادية النبوية» (١٩٩٥) التي تروي السيرة المحمدية من خلال مختارات لأبيات قليلة متناثرة من قصيدتي شوقي «وُلد الهدى» و«نهج البردى» يوظفها كما لو أنها حلية أو زينة لغوية ومحسّنات بيانية، تهدف إلى الإضاءة البسيطة على مضامين وأسرار النص الموسيقي الذي لم يكن في الحقيقة يحتاج إلى رديف شعري نظراً لحساسيته التعبيرية المرهفة الدالة والكاشفة. النص الشعري هنا مجرد وسيلة لا غاية، أداة لغوية لجأ إليها حتى يستسي له خلق ديناميكية بين الصوتي والآلي واللغوي والموسيقي بما يجعله أقرب إلى الأذن العربية التي لم تعتد على الإدراك، والتأمل، والتحسس إلا من خلال اللغة وترجمتها إلى نغم. هذا النص الموسيقي الذي أبدعه توفيق الباشا كان قادراً على أن يكتفي بذاته، ويستغني إلى أبعد مدى عن الكلام. غير أن استنباط المعاني من الموسيقى العارية يحتاج إلى درية لا يمتلكها المستمع العربي لفك شيفرة نصوص الموسيقى المحضة التي ظلّت في مشرقنا حبيسة الصالونات النخبوية. لذا فإنّ توفيق الباشا قد اختار للبوح بمكنونات الحكاية لغةً زاوجت بين اللفظي والموسيقي، موظفاً عناصره الأساسية الثلاثة التي تتكرر في هذا النوع من الإنشادات: التلحين الأفقي، والجوقة، والتكرار في تداخل وتتابع تتألق من خلاله الجوقة، التي اعتقد أنها من أهم مرتكزات الفكر الموسيقي لتوفيق الباشا، نذرنا لتؤدي وظيفة أكثر عمقاً وتعبيرية وتطوراً من الاتباع الرتيب. الجوقة تقدّم وجهات نظر نغمية متعددة، وتقنية مختلفة، وتنوعات صوتية ولحنية تسرح المقطوعة الموسيقية وتروي الحكاية موسيقياً

بشكل حدثي لا سردي، يجعلها أقرب إلى نص درامي يعبر عن حدث وموضوع ويرتكز أداؤها اللحني بشكل كبير على عنصر التكرار كظاهرة أسلوبية لجأ إليها الباشا من خلال التصاعد الصوتي المتكرر والمتدرج أفقياً بوليفونياً لعبارة «وُلد الهدى»، موزعاً بين الأصوات النسائية والرجالية للإيحاء بالتمدد في الزمان والمكان كدوائر الماء التي تتشكل وتتسع كلما تباعدت عن مركز سقوط الحجر. التكرار ليس إذاً مجرد إعادة رتيبة للعبارة، بل هو كسر للحدود والقيود التي تحول دون تبليغ الرسالة المحمدية الدينية والأخلاقية التي لا تختص بالمسلمين وحدهم، وهزة شعورية مزلزلة تضخ شحنة من التوتر العالي الانفعالي الذي يصبغ الحدث - البُشرى بصبغة الجلال، ذاك الذي يستمد هيئته الفنية من قوة التكرار الذي يُعد أيضاً خاصية إسلامية، لا تخفى على أستاذ الأنديسيات، تتجلى وتتضح في الطوقس الدينية والتراث اللغوي العربي وفي الفنون العربية الإسلامية عموماً كالزخرفة والأرابيسك.

من أهم المضامين التي أراد الباشا التعبير عنها في مجمل أعماله وفي هذا العمل على وجه الخصوص ترسيخ مفهوم الكونية للرسالة المحمدية من خلال المنطلقات التأسيسية للنص الإسلامي التي تركز على وحدة الوجود والمشاركات الدينية والأخلاقية القيمة بين بني البشر، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». تتعدد أعمال الباشا الدينية إذاً وتتنوع في قوالبها بين موشح، ومغناة، وقصيدة عمودية تقليدية، لكنّها جميعها وإن اعتمدت خطاباً لغوياً إسلامياً، كانت لغتها الموسيقية بكل تأكيد ذات مضامين إنسانية خالدة عابرة للهويات والطوائف.

إنشادية «منهل الإيمان»

سجل توفيق الباشا هذه الإنشادية عام ١٩٦٤ مع الأوركسترا اللبنانية بمشاركة محمد غازي والجوقة، وهي من نظم مصطفى محمود وتبلغ مدتها حوالي العشرين دقيقة. أول ما يلفت الانتباه في هذا العمل الديني الراقى هو أنّه بلا صبغة طائفية محدّدة، بل هي مغناة ذات منحى إنساني شامل حاول فيها توفيق الباشا أن يعبر عن الإيمان كقيمة مطلقة تتجاوز الأديان، بل تتجاوز الإنسان إلى سائر الكائنات. نوع من الانسجام والتوحد بين الإنسان والكون، أو ما يسمى بوحدة الوجود، فبدت الموسيقى فعل إيمان، وبدا الإيمان موسيقى يعزفها الكون.





يقوم بتهيئة المقام الذي سيبدأ منه الغناء الفالنت وسلطنته، في محاولة ثانية للصعود على مدارج الإيمان من مقام حجاز تليه لازمة غامضة تعبّر عن تبدل ما قد حدث. نلاحظ عند هذه اللحظة أن أداء الكورال جاء من طبقة منخفضة نسبياً «لاحت على الأفق أحلامنا»، بأسلوب هادئ ووقور كأن استقراراً ما قد حدث في النفس عبّر عنه خير تعبير مقام الرست. ويواصل الكورال واللوازم الموسيقية ثم القانون والتسليم الثالث للغناء الفالنت الفردي يتبعه بعد ذلك غناء الكورال «عاد الهنا يا ليالي» العابق بأجواء الأندلس. نحن هنا بإزاء موشح موشى بأزاهير المقامات دون التوقف مطولاً عند مقام بعينه، بل هو أقرب إلى حركة الفراشة التي تنتقي من كل بستان زهرة، ومن كل زهرة رشفة من رحيق.

تكوين مقامي يضمّ الحجاز، والكورد، والرست، والبيات، والعجم، والنهوند في ضفيرة تتداخل فيها النغمات وتنبثق من بعضها البعض يتقاسمها الغناء والموسيقى تحت سماء الحجاز، المقام المسيطر على جو المغناة يظللها من البداية إلى النهاية بروحية غربية في اللوازم الموسيقية وشرقية في الغناء، ويا له من توظيف عميق لهذا المقام!

تدرّج الأحوال والمقامات

«منهل الإيمان» مغناة هي أقرب إلى إنشادية دينية عربية صغيرة، يتألف فيها الغناء الفردي الفالنت التشبيه بالإلقاء مع الغناء الجماعي بمصاحبة الأوركسترا، يتخللها أداء فردي لألة القانون التي تمثّل صلة الوصل والفصل بين أجزاء الموشح الذي يؤدّي الكورال. ثلاث محاولات للمناجاة تدرّج في معانيها يقابلها تدرّج أفقي في الموسيقى من خلال اختيار ثلاثة مقامات شديدة التعبير عن هذه الأحوال التي تمر بها النفس، بدءاً بالكورد الذي يعبر كما أشرنا عن حالة النفس التي تتألم وتعاني سكرات العشق وتتوق إلى التحرر من قيود الجسد التي تثقل كاهلها وتشدها إلى الأرض. يليه الانتقال إلى حالة أقرب إلى الهدوء النفسي المشوب بالإشفاق بعدما لاح في الأفق أمل عبّر عنه مقام الحجاز في الدعاء الثاني، يليه بعد ذلك مزيج من النهوند في أعلى السلم المقامي في الدعاء الثالث والحجاز مجدداً في أدناه للتعبير عن الحبور المشوب بالشجن لحظة الاقتراب من بلوغ المرام، لكأن النفس تدرك أن مستقرّها دائماً بين الخوف والرجاء. هذا الانتقال من حالة إلى حالة مهّدت له اللوازم الموسيقية المتنوعة في مقاماتها التي تفصل بين الصلوات الثلاث لألة القانون.

يستهلّ المؤلف الموسيقي مغناته بمقدّمة تصويرية تفتح الخيال على سحر الشرق لكن بمنظور غربي. تأثير الكلاسيكيات الأوروبية واضح من خلال أسلوب تناوله لمقام الحجاز الذي يجعلك تبحر بعيداً في الزمان والمكان في مشهد بانورامي ينداح أمامك على صحاري مترامية

كل شيء مدروس بدقة. كل شيء في مكانه. بناء هندسي موسيقي أرستقراطي بالغ الإحكام. وليس في ذلك ما ينقص من قيمته الإبداعية.

الأطراف، يقطنها هدوء وسكينة تجعلان الإنسان قريباً من الله، فلا حواجز ولا صخب، بل أفق مفتوحة يجول فيها البصر بحرية فترقّ البصيرة وتغدو أكثر شفافية وقدرة على الصعود في معارج الإيمان. هذا المشهد تعبّر عنه المقدمة في جزئها الأول حتي إذا دخلت آلات التشيللو تضيق زاوية الرؤية تدريجياً وكأنها تسدل الستار على المرحلة الأولى الاستكشافية لتبدأ مرحلة التطهر وتهيئة النفس للارتقاء إلى المرحلة الثانية في رحلة السعي الحثيث للوصول إلى ذروة الإيمان في الجزء الثاني من المقدمة، الذي أعطى ذلك الإحساس بالصعود من خلال النقر (البيستكاتو) واللوازم الموسيقية التصاعديّة التي عزفتها الوترية، لتهيئة المناخ لدعاء المناجاة الأول، الذي تمهّد له آلة القانون بعد أن تسلمها آلات النفخ والوترية بطريقة بالغة الرهافة والعذوبة على مهاد من السلاسة كأنها تقول إن من يسعى بقلبه لا بد أن يصل ويتصل.

هكذا وصلت قوافل هذه الرحلة المتتدة إلى مقام الكورد بعدما جالت في بحور الحجاز وتنويعاته، للتعبير عن الرجاء الشجيّ المؤثر الذي يدخل النفس في حالة من التذلل الدرامي لله وحده. ينهيه المطرب محمد غازي بتحويلة سلسلة إلى مقام العجم يتسلمها الكورال الذي أطل كملائكة تحفّ المكان لتوازر هذا الولهان ويذوبا معاً في سيمفونية من الرجاء. غناء جماعي فالت أيضاً، امتداد لحالة المناجاة، بلامح بيزنطية مشرقية نجد لها أصداء في توظيف الرحابنة للكورال في العديد من أعمالهم. لم يبدأ قالب الموشح بالاتّضاح إلا عند الدخول الثاني والإيقاعي للكورال «يا باري الأكوان»، تليه لوازم موسيقية تذكرنا مجدداً بموسيقى المقدمة، ثم تسليم ثان للقانون الذي

هذا التدرج الثلاثي موسيقياً ليس ببعيد عن التدرج المقامي روحانياً الذي يبدأ بالمعرفة، ثم الإحسان، ثم الإيمان أملاً في بلوغ الرضى والأمان الذي ينزل في النفس فترتوي طمأنينة ومحبة. إن للرقم ثلاثة في الأديان السماوية دلالة خاصة، فهل هي محض صدفة؟ لا نريد أن نحمل هذا العمل الذي يدور في فلك ثلاثي الأبعاد فوق ما يحتمل، لكننا بالمقابل لا يمكننا أن نتغافل عن حقيقة أن للفن الحقيقي قدرة على الكشف من حيث هو تعبد في محراب أرقى خلق الله، الجمال. وتختتم المغناة بأداء موحد ينخرط فيه الجميع صعوداً إلى ذروة الشحنة الشعورية التي عبّرت عنها الموسيقى اللاهثة في تسارع وتيرتها كنبض العاشق إذا ما اقترب من تحقيق الوصال وبلوغ «نيرفانا» الإيمان.

توظيف الآلات الموسيقية والجوقة

إن اختيار آلة القانون ليعزف نغمات تلك المناجاة ويمهد لها موقفاً جاداً، لعلها الآلة الأكثر تعبيراً في هذا المقام، فكما تترقق قطرات الموسيقى المنبعثة من آلة القانون كذا تتلأل قطرات النور في الروح التواقة إلى بلوغ مقام الإحسان. آلات النفخ ساهمت في إضفاء مسحة من الغموض العذب كغلالة من الغيم يظلل الحقيقة قبل بزوغ فجرها في النفس. لذلك نلاحظ وجودها بكثافة وبوضوح أكبر في النصف الأول من العمل أو لحظة حدوث تحول تعبيرى ما في الجزء الثاني، وفي التحول غموض يسبق البزوغ. أما آلة المثلث والوترات والآلات الأخرى عموماً، فلم تخرج عن وظيفتها التعبيرية المعتادة في الأوركسترا التي تعزف هذا النوع من الأعمال التي يتداخل فيها الشكل السيمفوني مع القوالب الشرقية الأخرى.

لا تختص بالفرد بل بالجماعة. لعل الأناشيد الدينية هي الموطن الفعلي لمفهوم القيم المطلقة والضمير الجمعي. لقد تم توظيف الكورال في مغناة توفيق الباشا بشكل جميل لم يخرج عن المؤلف. أداء الكورال جاء متمكناً ومعبراً لامتس تقنية البولي فوني بشكل حساس وسلس لا يكاد يُلاحظ في بعض المواضع لأن المقام يتطلب البساطة لا التعقيد، وفي حضرة الإيمان لا بد من خفوت التقنيات الاستعراضية إلى أقصى مدى. لذا غلب على الإنشاد الجماعي هنا الأداء التبادلي بين الأصوات الرجالية والنسائية والموحد عموماً. وفي غمرة أصوات الجوقة برز صوت المطرب المجيد محمد غازي في تفريدات المناجات الثلاث. أداء احترافي عالي المستوى وإحساس عميق بالكلمة، حاول من خلاله التعبير عن الرجاء ببساطة وجلال، فلا مبالغات ولا عرب استعراضية، إنما أداء مناسب لمقتضى الرجاء والتذلل لله سبحانه وتعالى. خامة صوتية عريضة ذات طابع منسجم تماماً مع الانشاد الديني الشرقي.

بدأ توفيق الباشا في هذا العمل الجميل أقرب إلى العالم، والمتقف، والمفكر الموسيقي منه إلى الملحن ذي المؤهبة الفطرية المدهشة. كل شيء مدروس بدقة، كل شيء في مكانه، بناءً هندسيّ موسيقي أرسنقراطي بالغ الإحكام، وليس في ذلك ما ينقص من قدره وقيّمته الإبداعية. جديده من وجهة نظري هو هذا التداخل الموسيقي المعشق بين تراث الغرب وتراث الشرق، بين العربي والبيزنطي والأندلسي في انسيابية خلاصة، «أوسموز» موسيقي شديد الرقي وذلك في بداية الستينيات من القرن الماضي.

لم يسقط توفيق الباشا في هوى الثنائيات التي جهد الحداثيون العرب في التأسيس لها بل حاول أن يمد للتراث يداً تصله بغده من خلال ما قدمه للمكتبة الموسيقية العربية من أعمال كلاسيكية متطورة تراوحت بين الموسيقى المحضة، والتوزيع الموسيقي، والقصائد، والطقطوقة، والموشحات بدأ فيها مهموماً بالبعد الأخلاقي والإنساني الشامل لتلك الموسيقى القادرة على وصل ما انقطع من تراحم ومودة بين الإنسان والإنسان.

لم يسقط توفيق الباشا في هوى الثنائيات التي جهد الحداثيون العرب في التأسيس لها بل حاول أن يمد للتراث يداً تصله بغده من خلال ما قدمه للمكتبة الموسيقية العربية من أعمال كلاسيكية متطورة.

أما الكورال فهو عنصر أساسي من عناصر المغناة بل يكاد يكون العنصر الأساس، فهو يعطي للإنشاد بُعداً شمولياً لا سيما عند التطرق للقيم المطلقة التي

توفيق الباشا، موسيقى النهضة

محمد كريم

كاتب وخرج.
محاضر سابق
في كلية الإعلام
وفي معهد الفنون
في الجامعة اللبنانية.
رئيس دائرة البرامج
في إذاعة لبنان
ومدير إذاعة
صوت الوطن.

توفيق الباشا (١٩٢٤-٢٠٠٥) رائد من رواد الموسيقى العربية وواحد من رجالات لبنان المبدعين الذين تركوا إرثاً غنياً في الموسيقى والغناء. وهو من الذين أسهموا مساهمة فعالة في نهضة الأغنية اللبنانية والعربية وخلف مدرسة موسيقية كبيرة ومهمة وعالمية، وتخرجت على يديه مجموعة من الموسيقيين والفنانين.

البدايات

وُلد في بيروت، تفتّحت عيناه على «الفونوغراف» يتصدّر منزل بيتهم في منطقة رأس النبع في بيروت، ويقر به خزانة حافلة بأسطوانات لأم كلثوم وعبد الوهاب والشيخ سيد درويش وسامي الشوّ وأبو العلا محمد ومحمد عثمان وغيرهم من كبار الفنانين المصريين أساطين الغناء والعزف في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. وإلى جانب هؤلاء كان ثمة أسطوانات للموسيقى البحتة عليها بشارف وتقاسيم ولونغات وسماقيات. ولا شك في أنّ هذه المقطوعات الموسيقية وتعلّق الفتى توفيق بالاستماع إليها شكّلت الإلهامات الأولى لتوجّهاته الموسيقية في ما بعد. يقول أخوه الفنان التشكيلي أمين: «في طفولته كان يمضي وقته في رصف القناني ثم يعزف عليها بملعقته مستمتعاً بما تُصدره من أصوات. كان لعبة الأصوات المنبعثة من القناني كانت صلته الأولى بالموسيقى».

كان أبوه «سميعاً» ومتذوقاً للفن الغنائي، يشاركه في ذلك نسيبه الرسام والموسيقي خليل مكينة الذي حوّل المنزل إلى صالون فني يجتمع فيه نخبة من الفنانين تسمع وتعزف المقطوعات الموسيقية ومن ثم يتجادلون ويتناقشون في ما سمعوا وما عزفوا. شيئاً فشيئاً وجد الفتى توفيق نفسه منساقاً إلى هذا الشيء الجميل الممتع

الذي كان يسمعه ويراه. وبعد متابعتة لما يدور في السهرات الحميمة صار يحفظ الألحان. في إحدى المناسبات كان يترنّم وهو طفل بمعزوفة موسيقية «بشرف»، فدعاه خاله إلى إسماع ضيوفه الترنيمة عندما يلتقون مساءً، ففعل وكان منسجماً في الأداء، الأمر الذي أقنع الحاضرين بضرورة تعليمه الموسيقى. لكنّ والده لم يكن يريد له أن يسهر الليالي يعزف وراء المغنيات في المرافق الليلية. كان يريد له أن يصبح مهندساً، فأدخله إلى المدرسة الإيطالية في بيروت مبكراً، لكنّ أزمة اقتصادية حادة تعرض لها الوالد حملته مرغماً على سحب ولده من المدرسة. توفيق عوّض عن ذلك بمطالعاته الخاصة، فدرس على نفسه معظم القراءات وحصل علوماً قد لا يتوفر بعضها في الجامعة آنذاك.

باشر توفيق الباشا مسيرته الفنية الموسيقية عازفاً هاوياً على آلة «الفيولنسيل» أو «التشيلو». في تلك الأيام كان العازفون على آلات التخت الشرقي مثل العود والكمان والقانون، نادري الوجود، فما بالك بعازف على آلة الفيولنسيل ويجيد قراءة النوتة الموسيقية وكتابتها. كان الاستمرار في هذه المهنة، مهنة العزف، يمكن أن يحقق له كسباً مادياً مريحاً، لكنه منذ مطلع شبابه، وعى حقيقة موهبته الموسيقية وأدرك أنه خلق ليلعب دوراً أكبر من دور عازف، هو دور المؤلف الموسيقي، وأيقن أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بالعلم وبالدراسة، فالتحق بالمعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت ليعمّق دراسته الموسيقية على يد أستاذ روسي أبيض يدعى «الكسي كوغل»، كما كان للفرنسي «برتراند روبيار» فضل كبير في تثقيفه موسيقياً وتلقيه دروساً في التأليف، شأنه شأن الأخوين رحباني اللذين تلقيا الدروس عنهما على يديه، وكان قد سبقهم إلى ذلك زكي ناصيف.

في نظرة مبكرة للواقع الفني، أدرك توفيق الباشا أن مفهوم الفن الموسيقي لدى العامة في لبنان، كما في سائر العالم العربي، مقصور على الأغنية فقط، وهذا مفهوم خاطئ ولا ريب، لأن الموسيقى عالم أرحب من أن يُحصَر في إطار ضيق ومحدّد هو إطار اللحن الغنائي. لذلك كان أول اهتماماته، تبديد هذا المفهوم ومن ثمّ العمل على تأليف ونشر الموسيقى والتبشير بها. وفي الوقت الذي كان فيه التلحين الغنائي هو الطريق الأسهل للكسب المادي والأسرع إلى الشهرة، فضّل هو أن يعمل من أجل الموسيقى العربية أو الشرق عربية، كما يفضّل أن يسمّيها. يريد في نظرة استشرافية أن يطورها ويرتقي بها، أن يُدخل عليها قوالب جديدة لم تعهدها من قبل لتتماشى مع العصر والعصور المقبلة، يريد لها السمو نحو العالمية مع احتفاظها بروحها الشرقية ونكهتها العربية. يريد أن يرّد عملياً على إحياءات غير بريئة، كما يذكر، تأتي من مصادر غريبة تقول: أن ابقوا ضمن دائرة الموروث، فموسيقاكم إذا تطوّرت فسدت، إنها لا تحتمل التطوير. وكان في قوله هذا يستشهد بقول الإمام عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد: «الغربي يعرف كيف يسوس، وكيف يتمتع، وكيف يأسر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً». وكثيراً ما كان يرّد أمام صحبه: «يريدون لنا العودة إلى الخيمة والجمال والربابة لينعموا هم بلغة العصر».

فهل كان الباشا زاهداً في الشهرة حتى ركب هذا المركب الصعب؟ إذا جاء الرد بالإيجاب فذلك يعني أننا رفعناه إلى مصاف الملائكة الأطهار، لكننا جميعاً آدميون، والشهرة ثمرة التميّز وغار الطموح. وكلاهما مشروع ومطلوب، فلماذا إذاً لم يلج توفيق الباشا باب الأغنية على حصانه الأبيض ويتفرّغ كلياً لها، وهو سيّد من امتطى الصهوات الموسيقية، وأثر اقتحام باب الموسيقى المرصود الذي نأى عنه الكثيرون من أبناء جيله؟ في اعتقادي أنه بما جبل عليه من علو في الهمة وصلابة في العزيمة وإيمان بالنفس، وبما اختزنه من موهبة وعلم، لم يكن ليقتنع بما دون النجوم، فقد وضع نصب عينيه التعبير عن القضايا الوطنية الكبرى، والأعمال الإيمانية العميقة وقضايا الإنسان وحقّه في العيش بكرامة وحرية، وهذه المشاعر الجليلة لا يمكن التعبير عنها إلا بالفن الكبير، أي بالموسيقى.

الهدف: التأليف الموسيقي

بيد أن توفيق الباشا لم يحرق المراحل. كان يسعى إلى تحقيق هدفه ضمن تخطيط واسع ومدروس من دون أن يضع مُدداً محدّداً للتنفيذ، ولم يكن ممكناً بالطبع وضع مثل هذه المدد لأننا في بلد ينمو فيه الوعي الموسيقي ببطء، إذ لا يكفي أن نؤلف أعمالاً موسيقية بل المهم أن ننشر ونعمّم. وحتى ننشر يلزمنا عازف ماهر وأوركسترا متكاملة قادرة على التنفيذ، وبالتالي لا بد من جمهور مثقف موسيقياً أو فنّان مهتمّ لتذوّق الموسيقى، ليتقبّل ويقوم ويقدر. لذلك فقد تعامل مع الواقع، فلحن في البداية عشرات الأغاني ومئات الفصائد للبرامج الغنائية الإذاعية والتلفزيونية، وأعطى اهتماماً خاصاً للموشحات الأندلسية وأشبعها درساً وتدرّساً حتى أصبح مرجعاً أساسياً فيها، كل ذلك دون أن يهمل الهدف الرئيسي الذي كان يعمل بجهد لتحقيقه: التأليف الموسيقي. فكان يؤلف المقطوعات الموسيقية ويعممها باستمرار. فأعدّ بداية مجموعة من الألحان الشعبية والفولكلورية اللبنانية والعربية نفّذها مع الأوركسترا: عُمّي يا بيع الورد، قهوة بلدي، يا ميلة ع الغصون، زوروني كل سنة مرة، يا أمّ العباية، طلعت يا محلي نورها، إلخ. ثم كتب مجموعة أعمال موسيقية أخرى أصدرها لاحقاً في أسطوانة تحت عنوان «نزوة شرقية» *Fantaisie Orientale* وهي مجموعة جمل موسيقية من فاصل «اسق العطاش» تلعب فيها الكمان دور المطرب في العمل الأساسي. وأصدر بعد ذلك أسطوانة بعنوان «متتالية أندلسية» *Andalouse Suites* أتبعها بأسطوانة ثالثة بعنوان «بساط الريح» *Le Tapis Magique* المستوحاة من أجواء «ألف ليلة وليلة». كل هذه الموسيقى كتبها توفيق الباشا وسجلها ونشرها ليقرّبها من أذن المستمع وليحببه بالفن الموسيقي الصرف، فنّ اللحن من دون كلام. وكان يصرّ في كل المهرجانات التي شارك فيها، ملحنًا وقائدًا للأوركسترا، على أن يكتب هو المقدمات والموسيقى التصويرية لكل منها.

وقبل ذلك، في منتصف الخمسينيات، ابتدع الباشا أسلوباً ذكياً لتقريب الموسيقى إلى أذواق العامة، فقد كان يصوغ لوحة فسيفسائية موسيقية ممتعة، من مجموعة ألحان عبد الوهاب في أغانيه المعروفة ينسّقها وينظمها لتأتي منسجمة من حيث تتابع المقام، أو يربط بينها بجملّة موسيقية من عنده ليتم التألف والانسياق الجمالي، فلا تنزعج أذن ولا يختل توازن. وقد لاقت هذه المقطوعات التي كان يقدمها في حفلات المنوعات في مسرح الفري

لحساب «إذاعة الشرق الأدنى» ولاحقاً في الإذاعة اللبنانية التي ترأس فيها دائرة الموسيقى بقسميها الشرقي والغربي، الكثير من التجارب والحماسة من جمهور الحضور. وأوجد ما يُعرف بالإخراج الموسيقي في تنفيذ الأعمال الموسيقية والغنائية والذي ساهم أيضاً في الارتقاء بالأغنية اللبنانية شكلاً ومحتوى، وتحقيق السمعة اللائقة لها في العالم العربي. وفي هذا الصرح الفني الرحب وجد مجالاً واسعاً

من أجل أن يواكب تطور العصر لا بد له من اعتماد الأوركسترا التي بواسطتها يمكن للملحنين الكبار أن يعصرون الغناء العربي

لتنفيذ أعمال ما كان ليحققها لولا أن إدارة الإذاعة وضعت كل الإمكانيات اللازمة في تصرف الموسيقيين والملحنين اللبنانيين. ولربما، أقول لربما، بقيت العطاءات خزينة خزينة في صدور أصحابها، فقد استفاد من وجود الأوركسترا، وتفهم صبري الشريف (مراقب الموسيقى) وتشجيعه لتنفيذ ما كان يحلم به باستمرار بغية تعميمه: الموسيقى البحتة، إذا جاز التعبير، فسجل مجموعة من المقطوعات الموسيقية جمعها لاحقاً في أسطوانات عدة.

نحو الموسيقى المجردة

هذا من الناحية التطبيقية، أما من الناحية النظرية ومن أجل تنشيط الموسيقى المجردة، فقد ساهم في تطوير مناهج المعهد الموسيقي وأحداث الدراسات التطبيقية في المقامات والإيقاعات. وأخذ على عاتقه مهمة تنظيم دروس الموشحات، وهو النوع الذي أولاه الباشا عناية خاصة في نقله من التخت الشرقي إلى الأوركسترا ومن ثم مزواجه لكتابة أعمال الأوركسترا السمفوني وجماليات الموشح مثل ما جاء في أسطوانة «متتالية أندلسية». ولم يدع الباشا مؤتمراً موسيقياً إلا وشارك فيه مبدياً آراءه وتوجيهاته، وكلها كانت موضع احترام وتقدير، حتى إنه أصبح عضواً دائماً في المجمع العربي للموسيقى. هذا فضلاً عن مؤلفاته في علم الموسيقى الشرقية، وهي: المختار من الموشحات الأندلسية (تحقيق وتأليف)، الإيقاع في الموسيقى العربية (تحقيق وتأليف)، الكمان والأرباع الصوتية. يضاف إلى ذلك عشرات المقالات المتخصصة في الصحف والدوريات. بيد أن اهتمام الباشا بالموسيقى لم يجعله يتنكر للفن

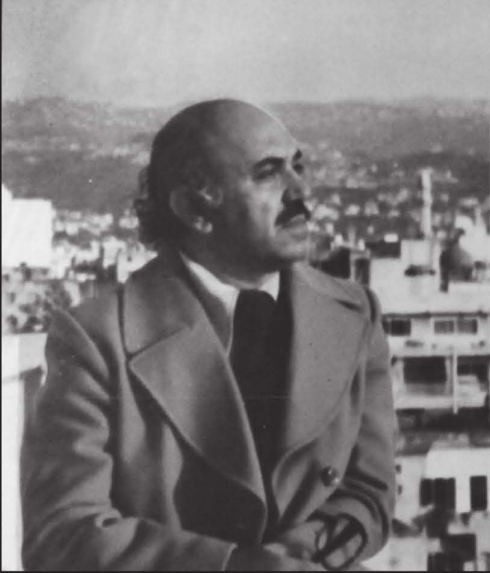
الغنائي العربي بل بالعكس فقد كرس الوقت الطويل لتطوره، فصبّ جل اهتماماته على الأعمال الغنائية الكبرى التي تعتمد على الأوركسترا في تنفيذها. كان يؤمن بعدم صلاحية التخت الشرقي لمواكبة تطور الفن الغنائي العربي، فمن أجل أن يواكب تطور العصر لا بد له من اعتماد الأوركسترا التي بواسطتها يمكن للملحنين الكبار أن يعصرون الغناء العربي. صبّ الباشا اهتمامه في التأليف على الأعمال الغنائية الكبرى: الأعمال الوطنية والصوفية والدينية والموشحات والمغناة إلخ... التي تتطلب الأوركسترا والتوزيع الموسيقي والبوليفوني والكورال والأصوات الكبرى: وديع الصافي، محمد غازي، سعاد محمد، نجاح سلام، نور الهدى، وداد، فدوى عبيد، فيزة أحمد، نجيب السراج، مهى الجابري، نصري شمس الدين، سعاد هاشم، عائدة شلهوب وغيرهم. فأعطى في قالب المغناة ابن زيدون والطريق الأخضر وبائع العطر... وفي قالب البرامج الغنائية التمثيلية طروب، ابن جامع، عباقرة الغناء عند العرب مجالس الطرب، شهرزاد وغيرها. وفي قالب الموشحات ابن خفاجة، اسق العطاش... وفي قالب الإنشادية منهل الإيمان، دعاء الحق، الإنشادية النبوية، عظماء الدنيا وعظماء الآخرة.

المسز كوك

أما المحطة الهامة والمفصلية في مسيرة توفيق الباشا الموسيقية فهي، ولا شك، تعاقدته مع إذاعة القدس عام ١٩٥٠ في رام الله، وبالتالي تعرّفه إلى المسز كوك التي ما فتئ يذكرها بالخير ويذكر تأثيرها فيه وفي توجهاته الموسيقية ويعتبرها نقطة تحوّل في حياته. كانت الإذاعة يومها محطة لكبار الفنانين، ومن هؤلاء الشيخ علي الدرويش صاحب الاطلاع الواسع على فن الموشحات وقد أخذ عنه الباشا الكثير من فنون الموشح. وفي إذاعة القدس تعرف إلى المسز كوك، وهي سيدة أميركية على جانب كبير من الثقافة والمعرفة، أحبّت الشرق وروحانيته، وانشغلت بجلال الدين الرومي وبابن عربي وغيرهما من المتصوفين، وهي تعدّ محيي الدين بن عربي قمة التصوّف. كانت السيدة كوك تتقن اللغات الفرنسية واليونانية القديمة والفارسية والعربية الفصحى، وعلى معرفة وافية بتراث الشرق الأوسط وفلسفاته ودياناته. وتسعى إلى التوفيق بين الباليه والموضوعات الدينية، ولما كان التعبير بالصوت والجسد أرقى أنواع التعبير، حسب وجهة نظرها، فقد تولّدت عندها فكرة إطلاق لوحة عن مولد الرسول

توفيق الباشا

من مؤلفاته وقيادته

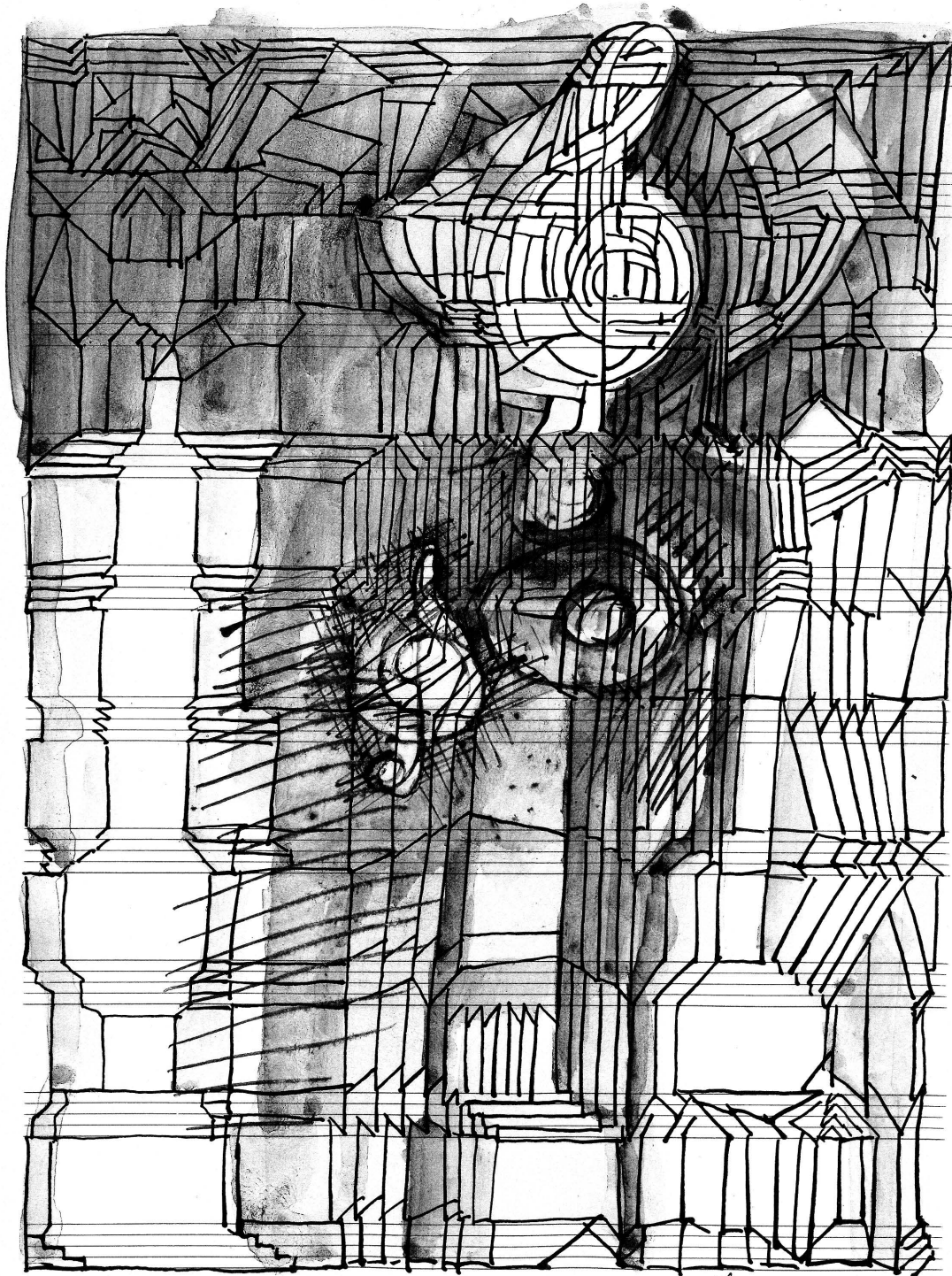


صلى الله عليه وسلم تكون الذروة في عرض الباليه الذي تنوي أن تجوب به البلاد العربية والإسلامية، وكانت تبحث عن موسيقيّ مسلم يضع لها موسيقى لهذه اللوحة. بالصدفة استمعت من إذاعة القدس إلى عمل غنائي جماعي يشبه الموشح الصوفي لتوفيق الباشا، فصرخت: هذا هو. وطلبت الالتقاء به وتم اللقاء، ومن ثم توثق التعاون بينهما من خلال «باليه الشرق الأوسط والبلاد العربية».

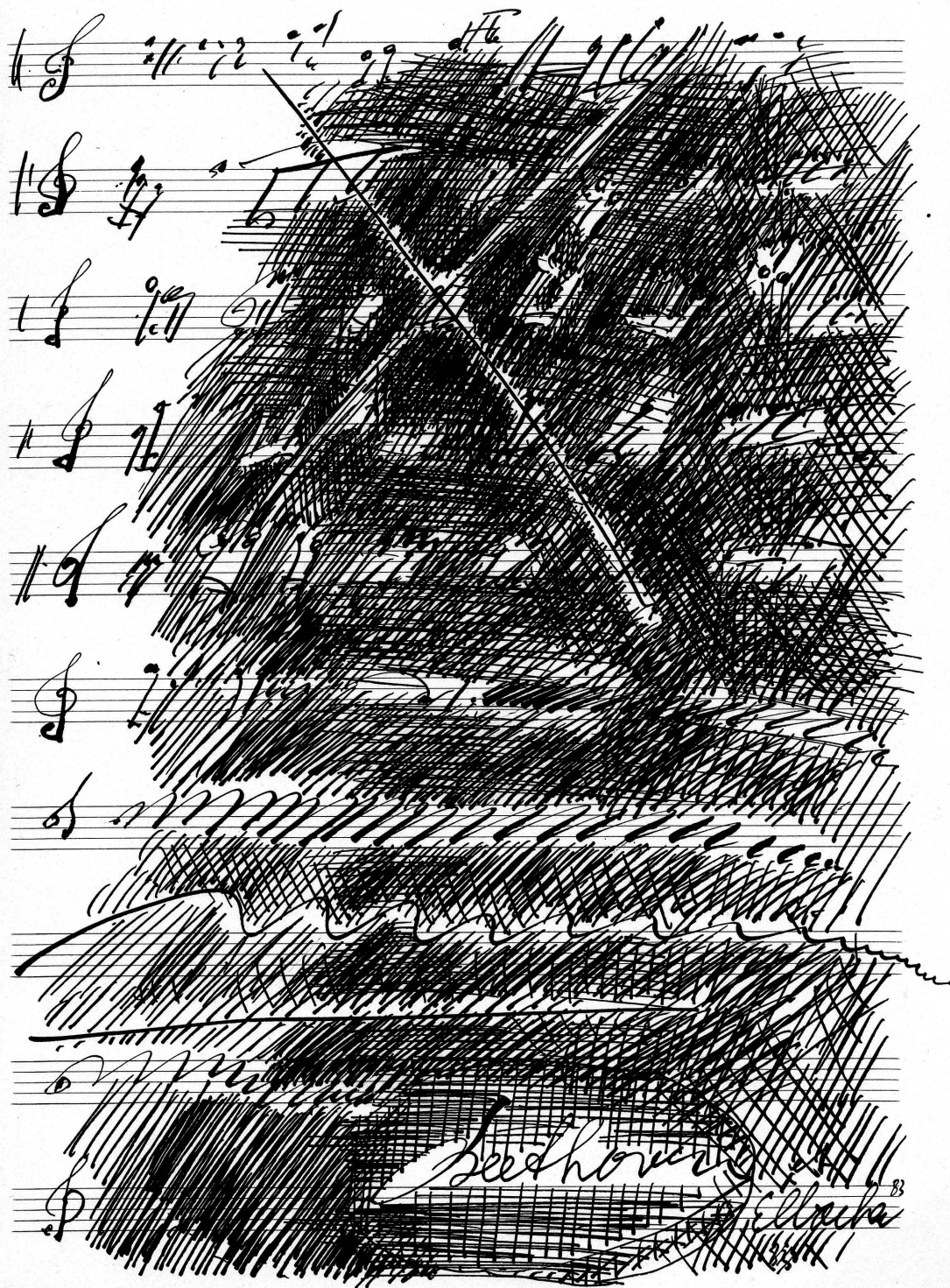
في هذا اللقاء تعرف الباشا إلى السيدة التي صارت محطة هامة غيّرت الكثير في مجرى حياته الفنية. وهي عندما التقت به قالت له: أنت الشخص الذي بحثت عنه طويلاً. سيدة لا تنسى، يقول الباشا، ربطتني بها علاقة أشبه ما تكون بالخرافة. قالت له: أريد أن أقدم لوحة تعبيرية عن مولد الرسول، وشرحت له ما يدور في خلدتها من صور ومشاهد حول الموضوع. وتفرغ الباشا لكتابة موسيقى اللوحة التي تعشق أجواءها قبل أن يراها. كان المشهد مميزاً في العمل: نحلة تدور في الطبيعة لتجمع الرحيق من الزهور على وقع كلمات «ولد الهدى» لأحمد شوقي من الكورال، تصاحبها مجموعة من جنود الإيمان يأتون إلى مطرح الحدث ويعبرون بتشكيلات بدیعة عن سمو الفكرة. وقد رُمز إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعلم الأخضر الذي كان يحمله صبي ويلوح به باستمرار.

أما مشهد الإسراء والمعراج فقد كان بدوره مشهداً عظيماً، إذ إيقاع مقطع «أسرى بك الله» من قصيدة شوقي والذي يتردد في المشهد، كان يظهر حصان «البراق» الذي يمر كالشهب، وكانت ترمز فيه إلى أنّ الروح هو من انتقل. هذا المشهد الهام في سياق العرض كان يُناقش دائماً من قبل رجال الدين قبل أن يعرض على المسرح. كانت مسز كوك تلتقي مع رجال الدين في كل مدينة قُدم فيها العرض لتقدم تفسيرها لمشهد الرقص التعبيري ولروحانية ما جاء في شعر أحمد شوقي. ولم يتحفظ علماء الدين في دمشق وبغداد والقدس. أما في القاهرة فقد تحفظ علماء الأزهر، ورفضوا السماح بعرض المشهد، فعمد الشاعر عبد الرحمن صدقي إلى إنقاذ الموقف، وكتب شعراً جديداً على إيقاع شعر أحمد شوقي وأطلق على المشهد اسم «الراية الخضراء» لأن الراية كانت تبرز خفاقة طوال المشهد.

التحق توفيق الباشا بفرقة باليه «الشرق الأوسط والبلاد العربية» بوصفه مؤلفاً موسيقياً وقائداً للأوركسترا، وجاب البلاد مع الفرقة محققاً النجاح تلو النجاح. استمرت التمارين على العمل الذي بلغ ذروته بلوحة المولد النبوي الشريف ستة أشهر في بيروت، وكان العرض الأول عام



Elbache 93



الرضا، ياذا السخا، اسق العطاش تكزما»، استجاب الله لتضرعات المحتشدين ودعواتهم، فانهمرت الأمطار، وروت ظمأ الناس والحيوان والزرع، وفرح الناس وصدحوا بأناشيد الشكر والابتهالات أياماً عدة.

هذه الابتهالات في جوها الصوفي أوجدت تراثاً شرقياً صميماً أطلق عليه في ما بعد اسم «اسق العطاش» استمر يتردد في المناسبات الدينية أكثر من مئة عام. غير أن هذا اللحن أخذ يعتريه التشتت مع الأيام، فجاء عمر البطش الموسيقي الأشهر، وجمع هذا التراث حفاظاً على أصالته. ومع ذلك، أثرت مع دورة الأيام بعض التعديلات في اللحن والشعر سلباً على الجو الصوفي بين بداية العمل ونهايته. وخدمة لموسيقانا العربية قرّر القسم الموسيقي في إذاعة الشرق الأدنى أن يعاد النظر بفصل «اسق العطاش» بشكل يحفظ له جوه الصوفي من أوله إلى آخره.

كتب توفيق الباشا فاصل «اسق العطاش» بطلب من إذاعة الشرق الأدنى. أحضروا له الأسطوانات من مشايخ حلب، فعكف على دراسة اللحن وتحليله وأعدّه بشكل علمي حديث، وقدمه برؤية موسيقية جديدة، مطبقاً عليه أساليب الموسيقى السمفونية وخصوصاً التألف الموسيقي (البوليفونية). وتولى الشاعر مصطفى محمود، بإشراف توفيق الباشا، إعادة صياغة لوحات هذا الفصل في إطار صوفي وجداني عامر بالقوى.

شارك في التنفيذ موسيقيون من إذاعة دمشق وإذاعة الشرق الأدنى، وأساتذة الموسيقى في المعهد الموسيقي، أما ما كتبه الباشا لآلة العود فلم يستطع أن يؤديه إلا فنان قدير هو عبد الغني شعبان. وعهد بالأداء الغنائي إلى مطرب متمكن هو محمد غازي، وشاركه في الأداء «الكورال» الذي لعب دوراً أساسياً في العمل، إذ لم يقتصر دوره على ترديد ما يؤديه المطرب كما هو متبع عادة في أعمالنا الغنائية بل أصبح دوره هنا أساسياً، وهذه خطوة تطويرية تحسب للمؤلف، استمر التدريب والتحفيظ مدة شهرين، وتم التنفيذ في ٢٢ دقيقة فقط هي مدة المغناة.

وفاصل «اسق العطاش» مدمك أساسي في البنية الموسيقية لدى توفيق الباشا، وهو عدا كونه خطوة متقدمة في نتاجه الموسيقي، من اللبنيات الأولى التي بدأت تتفاعل في ذاقلته وخرج من رحمها، في ما بعد، ما قدمه من أعمال غنائية دينية صوفية أوركسترالية كبرى. ولاحقاً أضاف الباشا إليها موسيقى «المولد» أو الراية الخضراء التي أعدها لفرقة باليه الشرق الأوسط، بما فيها من روحانية صوفية أسرة. ومما لا شك فيه أن هذه الأعمال التي تراكمت أخذت

١٩٥٢ في دمشق، ثم انتقلت الفرقة بعدها إلى بغداد، ومنها إلى القدس ورام الله، فدار الأوبرا في القاهرة. ثم انتقل العمل إلى الهند بدعوة من وزير المعارف آنذاك أبو الكلام آزاد، الرفيق الحميم للزعيم غاندي، فقدمت الفرقة عرضها في بومباي وكالكوتا ونيو دلهي. ومما تجدر الإشارة إليه أن الفرقة، في كل المدن التي زارتها لم يكن في صحبتها من الموسيقيين إلا عازف واحد نمساوي مع آلة «الهارب»، أما

عكف على كتابة مؤلفاته الموسيقية الكلاسيكية. ومنها القصيدة السيمفونية «بيروت ٨٢» التي صور فيها معاناته وأحاسيسه عندما غزا الجيش الإسرائيلي لبنان سنة ١٩٨٢.

باقي العازفين فقد كان توفيق الباشا يختارهم من أبناء البلد الذين هم فيه، فيعمد إلى كتابة النوتة للموسيقيين ثم التدريب وإجراء التجارب من بداية العمل إلى نهايته. بلغ التفاهم والاحترام المتبادل مداه بين توفيق الباشا والمسر كوك. التقت السيدة الغارقة في سحر الشرق والتراث الروحي الإسلامي، الذي جهدت لتصويره بالحركة والإيقاع، والموسيقي سعياً إلى تحقيق الروحانية الصوفية في اللحن، ووجد كل منهما في فن الآخر المساحة الواسعة للتعبير. «لقد عثرت على شويان»، تقول المسز كوك لسعيد عقل عندما التقيا. ووجد الباشا في أجواء المسز كوك متنفساً لما يجول في خاطره من صور بقيت حبيسة يبحث لها عن مجال الانطلاق. وفي يقيني أن الأعمال التي قدمها في فرقة المسز كوك كانت الإرهاصات الأولى لما أتخف به الباشا الفن العربي من موسيقى كبرى تجلّت في الأنشودة النبوية وما تبعها من أعمال ماثلة وبالذات «عظماء الدنيا وعظماء الآخرة».

فصل «اسق العطاش»

يُحكى أنه في سنة ١١٩٠ هجرية انحبس الغيث طويلاً عن حلب واشتد العطش فيها، وتعرّضت لجفاف وقحط شديدين، وضاق الناس ذرعاً بعدما تضرّر الزرع وجفّ الضرع وتشققت الأرض. فلما انقطع الأمل والرجاء في النفوس اتجه أهالي حلب بالملئات إلى ظاهر المدينة لصلاة الاستسقاء، وهناك توجّهت القلوب إلى السماء، تطلب الرحمة والتوبة وزوال المحنة الشديدة. وبينما كانت أصوات الألوف تردّد: «ياذا العطا، ياذا الوفا، ياذا

تنمو وتتطور وصولاً إلى الإنشادية النبوية، فاتحة أعماله الدينية ذات القالب الكلاسيكي.

الأعمال الكبرى

عندما استراح من هموم الوظيفة ومتاعبها، أصبح بإمكان توفيق الباشا أن يتفرغ لتأليف الموسيقى التي كان يحلم بها وتنفيذها. فالأوركسترا الآن طيعة بين يديه، وهو الذي قادها بمهارة طوال أكثر من نصف قرن، كما أن موهبته وعلمه يمكنانه من التعبير، بوعي واقتدار، عما يجول في خلد من أفكار وما يحوم حول نفسه من الهام. فعكف على كتابة مؤلفاته الموسيقية الكلاسيكية، ومنها القصيدة السيمفونية «بيروت ٨٢» التي صوّر فيها معاناته وأحاسيسه عندما غزا الجيش الإسرائيلي لبنان سنة ١٩٨٢، وضربت طائراته ودباباته المخيمات الفلسطينية والبيوت الآمنة في بيروت، كما مجّد فيها المقاومة البطلة التي تصدّت للجيش المعتدي وأرغمته على الانسحاب. وفي تحليله لهذه القصيدة السيمفونية يقول الدكتور كفاح فاخوري: «الأستاذ توفيق أراد أن يستخدم وسيلة الأوركسترا الكبيرة حتى يعبر عن قضية كبيرة». ثم كتب «سيمفونية السلام» التي لعبتها أوركسترا لياج الفيلهرمونية في بلجيكا بقيادة المايسترو «بارتولومي» والتي وصفها بقوله بأنها لقاء بين عطر الشرق وفنون الغرب. وقد ثمن بيير بارتولومي، وهو الخبير، هذا العمل، بعد اطلاعه على المخطوطة، وقرّر تقديمها إلى جانب أعمال شوپان وباخ في حفلة واحدة. وقد نالت السيمفونية نجاحاً لافتاً في لياج، ودام التصفيق عند نهايتها لدقائق عديدة كما هي الحال مع الأعمال السيمفونية الكبرى. عندما سئل الناقد المثقف نزار مروة عن الجديد الذي يراه في هذا العمل قال: «أرى في سيمفونية توفيق الباشا الجديدة عملاً كتبه موسيقيّ ناضج وراءه تجربة فنية يزيد عمرها على خمسة وثلاثين عاماً، موسيقي لم يعد راغباً في الزخارف والادعاء واستعراض المهارات، استعاض عن النزوات والمزاج المتقلب بالاهتمام بالتعبير الموسيقي الجاد وبالحكمة والخطوة الواثقة. الأوركسترا أصبحت الآن طيعة بين يديه، حاضرة لتلبية إلهامه وصوره وأفكاره. وفي الأساس، ومنذ الأعمال الأولى، يتميز توفيق الباشا بالتعامل الماهر العارف مع الأوركسترا، وفي هذه السيمفونية الجديدة يتعاضد نضج هذا التعامل. إننا أمام فنان أدرك أنّ دوره يتجاوز الانصياع لرغبات الجمهور وميوله واختار الطريق الصعب المثير للجدل».

أحبّ توفيق الباشا المظاهر الشعبية في بيروت ولفنته طريقة الاحتفال بها، وكان يؤلمه أن نلجأ إلى الاحتفال بأعيادنا الكبرى بطرق بدائية غير حضارية. كان يريد لهذه الاحتفالات أن تتخذ الطابع الموسيقي الحضاري. وبقيت هذه الأفكار تراوده إلى أن استطاع، في وقت تفرغه للتأليف الموسيقي، التوصل إلى ابتداع الإنشادية النبوية في العام ١٩٩٥ من شعر أمير الشعراء أحمد شوقي مع مختارات من شعر محيي الدين بن عربي والحسن بن هاني، وهو ما يعتبر فتحاً في الموسيقى العربية. وهي بدأت في ذهنه منذ وضع موسيقى «المولد» لباليه الشرق الأوسط، إلا أن العمل في الإنشادية المحمدية اتخذ قالب «لأوتاتوريو» الكلاسيكي المعروف في الموسيقى الدينية الكلاسيكية. هنا أخذ الباشا القالب، أو الفورم، الغربي وحافظ على الروحية الصوفية الإسلامية، فقدّم عملاً رائداً وفريداً، وهو من أجل تحقيق ذلك عانى كثيراً في سبيل تنفيذه، لجهة ضعف الإمكانيات الفنية، لكنه حاول التغلب عليها بعنايه وإصراره على تحقيق ما كان يؤمن به. ويمكن اعتباره أول «أوتاتوريو» في تاريخ التأليف الموسيقي العربي، وقد نجح العمل ولاقي استحسان الطبقة المثقفة والنقاد عندما قدّم في أوبرا القاهرة مع أوركسترا القاهرة السيمفوني بالاشتراك مع كورال أوبرا القاهرة، الأمر الذي زاد في حماسه وقوّى إيمانه وتصميمه على إنجاز عمل آخر قدّمه أيضاً في أوبرا القاهرة، هو إنشادية «عظماء الدنيا وعظماء الآخرة» في العام ١٩٩٦، عن تراث محيي الدين بن عربي، وقد أعدّ النصّ الأدبي الدكتور مصطفى محمود. أما آخر أعماله فهو أوبرا «قدموس وأوروبا» من شعر سعيد عقل، وقد انتهت من إعدادها قبل وفاته بفترة قصيرة.

مغامر موسيقي

في الختام، وبعد الإضاءة على مسيرة توفيق الباشا في التأليف الموسيقي، التي كلما استعدتها في خاطري، أتمثل بيت المتنبي القائل: «إذا غمرت في شرف مروم/ فلا تقنع بما دون النجوم»، وهو منذ بداياته، غامر وتصدّى وتحدى. وأي مغامرة أشقّ على المرء من أن يدخل الحياة الفنية في لبنان يوم كانت من المحرّمات على أبناء البيوتات المحافظة. فالسائر على هذا الدرب كان كالسائر على الجمر، تتناوله الألسنة بالنقد، ويتصدى له المجتمع بالرفض وتبشّر منه العائلة، ومع ذلك تصدّى وتحدى. وتوفيق الباشا غامر مرتين: مرة يوم قرر السير في طريق الفن ومرة يوم اختار التفرغ للموسيقى التجريدية البحتة.